www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

التحويل لصفحات فردية
وتصغير الحجم
وإزالة البقع
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا للأخت العزيزة رياحين
التي قامت بسحب الكتاب

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى
1428هـ - 2007م

ردمك 978-9953-87-119-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

إهداء ..

إلى هوى حياتي

ابنتي نـدى

كل شخصيات الرواية
من الخيال

لم تستطع تجاهل شعور قوي بالانقباض هذه المرة، شعور لجوج عجزت عن التحكم به، نظرت في ساعتها مدركةً أنها لأول مرة تتأخر عن موعدها معه. سارعت خطواتها ليس من أجل تخفيف غضبه بسبب تأخرها، بل عساها تفلح بالهرب من هذا الشعور الخانق بالانقباض... كانت تدسّ يديها في جيبي معطفها مرتعدة من سلطة صوت غامض ينبع من مكان ما في أعماقها، يستحيل أن تسمّيه صوت الضمير لأنها عملت خلال السنوات العشر الأخيرة على سحق تلك الكلمة وتأثيراتها الكارثية في حياتها.

هذه المرة تشعر أنها مُخترقة بقوة سلطة مجهولة، تساءلت وهي تقف عند إشارة المرور، متأملة بذهن شارد نهر السيارات: ترى هل يمكن أن يموت الضمير تماماً لدى الإنسان؟! ولم يهمّها أن تبحث عن إجابة، بل كانت أسيرة هذا السؤال الذي تفجّر من كل خلية في جسدها، تخيّلت وجهه الغاضب وتذمّره من تأخرها، ولأول مرة تدرك قساوة ملامح وجهه، ونظرته المتوحشة... تذكّرت حين التقته لأول مرة كيف لم تكف عن التحديق بوجهه توّاقة لاكتشاف ذلك الشيء الغامض الذي يجعلها غير قادرة أن تحيد بنظرها عنه. وذات مرة قالت له راغبة أن تكسر الحاجز الجليدي بينهما: أتعرف أحسّ وجهك من رخام، فرشقها بنظرة نارية جعلتها ترتعد حذراً منه وخوفاً، ولم تجرؤ بعد تلك الحادثة أن تعلّق بكلمة في حضرته... علا رنين هاتفها الخليوي، عكست الشاشة الصغيرة رقمه، وبصوتٍ كالقصف سألها: أين أنتِ...

ردّت وهي تشعر أن قلبها يهوي بين قدميها: سأكون عندك بعد عشر دقائق.

صرخ بغيظ: لماذا تأخرتِ، لا ينقصني إلّا انتظارك...

تجاهلت لهجة الاحتقار المبَطنة لكلامه، فكّررت ببرود: سأكون عندك بعد دقائق، لكنه أنهى المكالمة قبل أن تنهي عبارتها...

اشتعلت عيناها بغيظ مكبوت، وأدركت كم تكرهه وتخافه، فكّرت أن الخوف والكره متلازمان دوماً في حياتها، وأنهما الشعوران المؤكدان والأكثر إخلاصاً لها.

بلغ شعورها بالضيق حداً جعلها تشعر أنها ستنفجر لا محالة، وأنه لم يعد باستطاعتها الاحتمال...

تسلّل سؤال خبيث إلى أذنيها: احتمال ماذا؟...

صرخت بغضب مجنون: كفى، لا أريد أن أسمع أي شيء، أي شيء... ولا كلمة ولا كلمة...

توقّفت لبرهة متألّمة من خفقان قلبها الشديد، وضعت يدها على صدرها، شاعرة أنها تطبطب على قلبها المسكين الذي يرتعش بقوة، كان انفعالها أعظمياً، فكّرت أنها في كل مرة تلقاه يتعمّد أن يهينها ويُصّر أن يذكّرها أنها تحت رحمته، ومنذ تعاملها معه لاحظت ولادة إنسانة غريبة عنها في داخلها، لا عمل لها سوى ازدراءها، إنسانة مُزعجة لجوجة، تستعمرها، تشعرها في كل مرة تلتقيه أنها تحّط من قيمة نفسها وتهين كرامتها، وتحاول جاهدة السخرية من تلك الإنسانة وطردها من روحها لكنها تفشل دوماً...

وصلت مكتبه، احتاجت لدقائق كي تلملم نفسها المشتّة من الغضب والانفعال قبل أن تقرع الجرس، كانت روحها مسرحاً لصراعات عنيفة، وحين ضغطت الجرس بسبابتها ودوى صوته الأشبه بزقزقة حادة، شعرت أن كل انفعالاتها العنيفة تموت. همدت وصارت قربة فارغة، هكذا تشعر بنفسها كل مرة تدخل مكتبه، تحسّ أنها تفرغ من روحها وكيانها

وإنسانيتها وتصير مجرد هيكل مجرد قشرة.

فتح خادمه الباب، فدخلت رأساً إلى مكتبه المفرط البذخ، وكما توقعت تماماً، كان يدخّن بشراهة، وقد امتلأت المنفضة بالأعقاب المحروقة بفظاظة وخشونة، رشقها بنظرة غاضبة، فأسرعت تسبقه بالكلام قائلة:

- آسفة، آسفة، لكن لديّ صداع رهيب صدّقني.

فكّرت أنها تفتعل دوماً شكوى الصداع كي تنجو من مآزق مؤكدة مع الناس...

شعرت أنه صدّقها لأن ملامحه المتشنجة استرخت قليلاً، فتحت حقيبتها وأخرجت كومة من الخيوط الجراحية وضعتها على مكتبه، فتأمّلها دون أن يلمسها وسأل ببرود:

- كم عددها؟

قالت: أربعون.

سألها بسخرية صريحة: أما كان باستطاعتك إحضار كمية أكبر؟ كنا ننتظر أن تحضري ستين خيطاً على الأقل.

ابتسمت بمرارة، مدركة أنه يتحدّث عن نفسه دوماً بصيغة الجمع، لكن معه حق فهو يشمل شركاءه الغامضين معه.

قالت: في الواقع، لم يعد الأمر سهلاً، إذ صاروا يطلبون منّا أن نسجّل كم خيطاً استهلك في كل عملية...

للحظة كادت تقول لم تعد سرقة الخيوط الجراحية سهلة... لكن كلمة سرقة جعلت جسدها يقشعر بكهرباء باردة...

وضع الخادم صينية القهوة أمامها، دوماً يحرّك فيها بخار القهوة شعوراً إنسانياً دافئاً، فتهمس لنفسها "القهوة أرق وأكثر رحمة من البشر..." تأمّلت الفناجين البديعة من الخزف وقد نقشت عليها رسوم

صينية ملونة برّاقة، لم تستطع أن تخفي إعجابها بالفناجين، نظرت إلى وجهه المتصلب الملامح وقالت: هذه الفناجين رائعة، تشعرك بالتفاؤل...

ضحك ضحكته الآلية المصطنعة وقال: تعابيرك تضحكني، كيف يشعرك مجرد فنجان بالتفاؤل؟

تمنّت لو تملك الجرأة كي تجيبه: انظر إلى وجهك الميت تفهم كل شيء... تفهم كيف أن مجرد فنجان قهوة بنقوش ملونة يُشعرك بالتفاؤل والحياة...

كان لوقع كلمة حياة تأثيراً مشوشاً ومؤثراً عليها، فما إن لفظت بصمت هذه الكلمة، حتى انقضّ عليها شعور مؤكد أنها امرأة من رماد، امرأة خسرت روحها... كرّرت تلك العبارة مراراً وهي ترشف القهوة وتقاوم صداعاً تفجّر حقيقة في رأسها...

كانت الغرفة غارقة في ضباب دخان السجائر، تمنّت من كل قلبها لو يقتله التدخين... لكنها ارتعدت خوفاً إذ إنها تشعر أنه يعرف كيف يقرأ أفكارها...

في كل مرة يفاجئها أنه يعرف تماماً بماذا تفكّر؟! وتشعر أن عينيه تصدران أشعة قادرة على اختراق رأسها وقراءة أفكارها...

فتح درجه وأخرج رزمة من المال قذفها في حضنها، لامست الرزمة فنجان القهوة الذي كاد يسقط لولا تشبّثها به، يا لحقارته، إنه يعطيها المال كما يرمي عظمة لكلب. في كل مرة يبتكر طريقة لإعطائها المال تشعرها بالمهانة وبأنها تحت سيطرته تماماً، لكنها هذه المرة لم تستطع أن تصمت، رفعت إليه نظرة متألمة وسألته بكل جموح روحها المرضوضة من الألم: لماذا تعطيني المال بهذه الطريقة المهينة؟

لم يجب، استمر بتأمّلها ببرود وتعالي، ثم انفجر بضحكة وقحة

مستهترة.

وضعت المال بحقيبتها وقامت لتنصرف، لكنه أمرها بلهجة جافة أن تجلس، فثمة موضوع هام عليه أن يحدّثها عنه...

انهارت في مقعدها، شاعرة أن دماغها سوف يتفجّر من الصداع، سألها: ما بك مقطبة، قالت: إنه الصداع.

صرخ بصوتٍ كالجعير طالباً من خادمه أن يحضر الدواء المضاد للصداع الأميركي. أسرع الخادم يلبّي طلبه، دخل المكتب مهرولاً ووضع أمامه علبة أنيقة... قدّم لها قرصي تايلانول قائلاً: هذا دواء أميركي ممتاز... خذي جرّبيه... ابتلعت الحبتين، وأغمضت عينيها، للحظة تمنّت لو تدخل في غيبوبة تامة، طويلة وأبدية...

هرش صلعته وتثاءب بوقاحة، أشعل سيجارة فتمنّت لو تصرخ: كفى، كفى أكاد أموت من الدخان... لكنها كانت تحدّق بوجهه بنظرة أقرب للذهول كما لو أنها تحاول أن تفهم أي شخص هو، أي وحش يتقمّص جسد إنسان!

نفث الدخان بشراهة وقال: اسمعي، البارحة تمّت صفقة أدوات جراحية، علبة جراحة عصبية تحتوي ثلاثين قطعة، وعلبة جراحة عظمية تحتوي خمسين قطعة وسوف تستلمينها خلال أيام.

هوى قلبها، وفغرت فمها كما لو أنها تودّ الكلام، لكن نظرته القاسية جعلت كلماتها تتبدّد...

وجدت نفسها تسأل بذل إن كان بإمكانها أن تأخذ عدة حبوب من الدواء المضاد للصداع، فقذف العلبة في حضنها وقال: خذيها كلها، إنما ركّزي معي الآن...

- اسمعي هناك أداة مهمة جداً وباهظة الثمن في علبة الجراحة العصبية، عليك أن تحضريها لي، لا تخافي، إذ توجد ثلاث قطع مطابقة

لها... كما أن هناك أداة أخرى في علبة الجراحة العظمية ستحضرينها لي وكالعادة هناك أدوات مطابقة لها...

- لكن ماذا لو انتبه الجرّاح و...

لم يتركها تكمل... ستكون عمولتك عشرين ألفاً...

لم تتوقّع هذا المبلغ الكبير... شهقت وهي تكرّر بصمت عشرون ألف، أي ما يعادل راتبي عن ثلاثة أشهر!

لم تعلّق بكلمة، أطرقت في الرسوم البديعة للسجادة، ولمحت حذاءه الملمّع والفاخر، تخيّلت أنها بعد أيام سوف توقّع على أوراق استلامها لعلبتي الجراحة العصبية والعظمية، في المشفى الحكومي الذي تعمل فيه منذ سنوات... لكن لن تكون وحدها مسؤولة عن هذه الأدوات، لأن ممرضات الليل مسؤولات أيضاً عن الأدوات، وحين تُفقد بعض الأدوات الجراحية، ستضيع الطاسة كما يقال، ستتّهم ممرضات الدوام النهاري ممرضات الدوام الليلي، والعكس صحيح أيضاً...

انتفضت مذعورة حين رنَّ هاتفها الخليوي، أشعرها الرنين أنها تهوي من عالم إلى عالم... سرت رعدة قوية في جسدها حين أتاها صوت تعبده:

- ماما، أين أنتِ؟

صوت عذب طاهر، فجّر في أعماقها طوفاناً من المشاعر بالخزي واحتقار الذات.

قالت وهي تحيك عبارتها بمشقّة: لن أتأخر يا حبيبي.

- لكني جائع، ألن نتغدّى في المطعم.

- طبعاً، طبعاً يا حبيبي، البس ثيابك الجديدة، وسألقاك في المطعم بعد ربع ساعة.

- لا تتأخري ماما، لا تتأخري.

- لا، لن أتأخر، لكن انتبه جيداً حين تعبر الشارع.

- أوكيه ماما...

تعملقت الإنسانة المسجونة داخلها، وانفلتت تكرّر عبارة أوكيه ماما بشماتة واحتقار ثم صارت تغني بلؤم: الماما المرتشية، الماما التي تسرق أدوات المشفى... انهالت بشتائم لاذعة على تلك الإنسانة التي تستعمر أعماقها ولا تنفك تزدريها وتهينها...

أيقظها صوته البارد من انفعالاتها، وسألها: هل أعتمد عليك.

هزّت رأسها موافقة، واستأذنت بالانصراف... ما إن وصلت الشارع حتى أحسّت أن كل قواها الحيوية قد نزّت منها، في كل مرة تزوره تشعر أنه ينسفها، يلغيها لا يمكنها أن تشعر بكيانها أبداً وهي معه، وتلك الدقائق القليلة التي يستغرقها لقاؤهما، تحتاج لأيام ولجهود جبارة كي تنظّف روحها من سمومه، هذا الرجل سم... لكن هل يمكنها أن تعيش من دونه؟!

أحسّت بدوار شديد وهي تمشي، وكادت تسقط عدة مرات، أوقفت تاكسي فكّرت أنه من الخطأ أن تبتلع دواءً قوياً على معدة خاوية... لكنها تشبّثت بصورة الوجه الذي تعبده، وأخذت تهمس باسم ابنها كما لو أنه تعويذة للشفاء: نوار، نوار نوار، ياه ما أعذبك، كم أحبك...

لكن حتى الوجه الطفولي العذب لم يتمكّن من تخفيف انقباضها الفظيع الذي يشلّها شلاً... شعرت بغثيان وأخذ عرق بارد يرشح من راحتيها وفروة رأسها، سرت رجفة خفيفة في يديها، عرفت أن نوبة نقص سكر الدم قد باغتتها... أمرت السائق أن يتوقف برهة ونزلت إلى دكان لتشتري قالباً من الشوكولا، وعدّة قطع من حلوى جوز الهند، التهمتها بشراهة، فشعرت براحة وبأن دوارها يتراجع... رجت السائق

أن يغيّر وجهة سيره وأن يصحبها إلى دار الأيتام... في كل مرة تقبض الرشوة، تسرع بقلب مرتعش بهوى كبير إلى دار الأيتام، تشعر أنها تعطي الصدقات للأيتام لتسكن أوجاع ضميرها، كما لو أنها تحاول أن تنسى أن ما تقبضه هو مال حرام... لكنها فكّرت وهي تبتلع قطع جوز الهند أنها تدفع المال للأيتام لحاجة أكبر من تسكين ضميرها، بل لرغبتها أن ترى نفسها مُحترمة ومُقدَّرة لدى إدارة المشفى، وفي عيون الحرمان لأطفال مساكين... وصلت المطعم متأخرة عشرة دقائق، كان صغيرها ينتظرها وهو يطقطق أصابعه كعادته حين يكون متوتراً، وفي عينيه نظرة حب وعتب.

ابتدرها قائلاً: متُّ من الجوع...

ضمّته بقوة إلى صدرها، راغبة أن تلتحم به، وأمطرت خدوده الوردية بقبلات مشتاقة نهمة، تململ منها وأبعدها عنه، أشار إلى الطاولة حيث يرغب أن يجلسا، وافقت وهي تربت على رأسه، قالت له: لا أعرف لم ترغب كل مرة أن نجلس عند النافذة، لا أحب أن يتفرّج علينا الناس ونحن نأكل...

قال: أحب أن أتفرّج على السيارات والناس، أوف ماما، نتسلّى أكثر حين نجلس قرب النافذة...

اقترب منهما النادل، طلبت كأساً من النبيذ الأحمر، ورجت النادل أن يسرع بإعداد الطعام لأن الصغير جائع...

كانت تتأمّل وجه صغيرها بوَلَه، وتهمس لنفسها أنه نظيف، نظيف، لم يشوّه نفسه بالرشاوى والفساد، شعرت فجأة بطعنة ألم في قلبها، كما لو أنه اخترق بسكين، فكّرت أنها في كل مرة تقبض مالاً حراماً من الوسيط تبرّر لابنها بأنها قبضت مكافأة كبيرة من عملها، وتكذب عليه بأنها تعمل في مشافي خاصة وتلبّي طلب الكثير من المرضى في منازلهم

بإعطائهم الإبر، وتعليق السيروم، وتغيير ضمادات الجروح...

ماذا لو عرف ابنها أنها تسرق خيوطاً وأدواتاً جراحية من المشفى الحكومي الذي تعمل فيه وتبيعها لوسيط وتقبض مالاً حراماً؟! أطرقت عاجزة عن النظر في وجهه، وقد وعت كم ستسبّب له الألم والشعور بالعار فيما لو عرف حقيقتها... حقيقة الماما المرتشية، اللصة... علا صوت الإنسانة التي تستعمر روحها وقالت ساخرة: الجنة تحت أقدام الأمهات...

رشفت النبيذ بجرعات كبيرة، رجت الكحول أن يخدّر ألمها ويعفيها من محاكمة نفسها لتهب روحها لابنها الذي تعبده، ليتها تتمكّن من طرد تلك الأفكار والمشاعر.. أوف، كفى، كفى جلداً للذات، أهي الوحيدة التي تلجأ لهذه الأساليب؟ هل يحق لها أن تلوم نفسها على سلوكها، ألم تضطرّها الظروف رغماً عنها أن تلجأ لهذه الأساليب كي تعيش بالحدّ الأدنى من الكرامة، أيستطيع راتبها الهزيل أن يسدّ جوع المعدة وأن يؤمن عيشاً لائقاً لابنها؟!

ثم كم مرّة ستؤكد لنفسها أن سرقة اللصوص ليست سرقة... لكن هذه الحجج لم تفلح هذه المرة في تبديد إحساسها بالخزي والألم... كانت تسترق النظر إلى صغيرها، شاعرة أنها لا تستحق أن تكون أمه، تتأمّل ملامحه الرقيقة الحلوة، وخدوده الوردية المغطاة بطبقة رقيقة من الأكزيما، لوهلة عصف بها هوى جامح كي تركع أمامه وتوسد رأسها بحضنه وتبوح له بكل ما يعذّبها، لا شيء يريح النفس كالبوح... تريد أن تحكي لحبيبها الصغير قصة سقوطها، أن تعطيه حكمة هذا الزمن، يا حبيبي يجب أن تعهر وتسقط في هذا البلد كي تشبع... كانت تصغي لثرثرته وتتأمّله كيف يأكل بشهية، وجانب من روحها يفكّر بأن استحالة البوح والاعتراف شيء فظيع ويدمّر الروح، كم تحتاج إلى تعاطف وحب

كبير من ابنها... لكن ماذا يستطيع ابن السنوات التسع أن يقدّم لها سوى حب خام نقي طاهر؟

وجدت نفسها تقاطعه وتسأله برجاء: إلى أي حدّ تحبني يا نزّار؟

ضحك وقد أربكه سؤالها غير المتوقع: أحبك كثيراً...

- أأنت واثق؟

- رفع إليها عينين تشعّان بالحب والمرح قال: أحبك أكثر شيء في العالم...

ابتلعت النبيذ ودموعها وهي تتساءل بقلق: هل سيستطيع حب ابنها الكبير أن يشفي روحها المتعفرة في وحل الفساد؟!

حين طلبت كأساً ثانياً من النبيذ، نظر إليها صغيرها نظرة مؤنبة، وقال لها:

ماما، ليس من عادتك أن تشربي النبيذ ظهراً... ثم ألا تكفي كأس واحدة...

ضحكت، كم تحب قلقه على صحتها... لكن النادل الذي وضع صحن اللازانيا الشهية أمام ابنها، حَرف انتباه صغيرها عن رغبتها أن تسأل، أن تنسى... ليس مثل الكحول من يضع مسافة بينك وبين مشاعرك... إنه معجزة حقيقية أن يجعلك تنفصل عن روحك، كما تنفصل البطانة عن القماش...

داعبت خدّه براحتها وسألته: أنسيت أن تدهن خديك بالكريم المضاد للأكزيما...

قال: أجل، نسيت...

كان يأكل بشهية ويشرب الكولا... لم تكن تحب تلك العادة التي نبّهته إليها مراراً: حاول ألّا تشرب الكولا مع الطعام... لكنه كان متأثراً بشدة بدعايات التلفزيون...

ساعدها النبيذ حقاً أن تنظر للحياة نظرة متصالحة مسالمة، ما العمر سوى لعبة، تسلية، سنوات طالت أم قصرت ستنتهي... عدم يفغر فاه ليبتلع كل شيء... كل شيء... والحكمة الحقيقية ألا نأخذ الحياة على محمل الجد...

تنبّهت لنقرات خفيفة على زجاج النافذة، التفتت لتواجه وجهاً شاحباً قذراً لشحاذ قدّرت أنه في عمر ابنها... كان يتوسّل إليها بعينيه أن تعطيه شيئاً... طلبت من ابنها أن يعطي الشحاذ مئة ليرة، لكن صغيرها احتجّ وصرخ مندهشاً:

- ماما، هذا كثير جداً...

قالت أرجوك، اليوم قبضتُ مكافأة كبيرة، لنعطه مئة ليرة، ألا ترى كم هو بائس...

وجدت نفسها غير فاهمة المشاعر التي تعتمل في صدرها، تدسّ قطعة اللحم مع البطاطا المقلية في كيس الخبز، وتسرع لاحقة المتسوّل، تعطيه الكيس، للوهلة الأولى نظر إليها بحذر، إذ اعتقد أنها ستستعيد المئة ليرة، لكنها حين طمأنته بابتسامة ودودة وهي تمدّ باتجاهه كيس الطعام، اقترب بحذر، خطفه وأسرع راكضاً...

كانت ملامحها مشدودة بقلق غريب، وبلهفة أيضاً، كانت لهفة غامضة لأشياء مجهولة تأخذ بمجامع روحها، سرى خدر الكحول في أطرافها، وأحرق أحشاءها وتركها تلحق ذلك الشعور الحار المتدفق من نبع خفي في روحها، شعوراً يدلّها بطريقة غامضة أن ثمة أشياء رائعة في الحياة، عليها أن تجتهد للبحث عنها وعيشها... حدس مؤكد يدلّها إلى تلك الأشياء، لكن ليتها تعرفها تماماً.. إنها تراها من خلال وشاح رقيق من حرير... أجل من حرير الروح... فتنها هذا التعبير فسألت صغيرها الذي كان يأكل، وعيناه تتابعان أغاني هابطة يبثّها التلفزيون المعلّق قرب

سقف المطعم...

- نوار، ما رأيك أن نشبّه الروح بالحرير...

ضحك، وحكّ خدّيه المتأكزمين، وهزّ كتفيه لامبالياً...

• • •

أوصلت ابنها إلى بيت أستاذة اللغة الإنكليزية، قبّلت وجنتيه ورأسه شاعرة كم تحتاجه كي تقاوم إحساساً مستمراً بالانهيار... منذ تورطها في حلقة الفساد صار عليها أن تصارع شياطين روحها بصمت، وعليها أن تتعوّد أن ثمة شرخاً هائلاً يزداد اتساعاً في داخلها، تذكّرت أن تعريف السعادة هو إحساس الإنسان أنه مكتمل بنفسه أما هي فتشعر دوماً أنها ناقصة، وتفتقد لأشياء حيوية وضرورية للإحساس بكرامتها كإنسانة... لكن هل كانت تشعر بكرامتها قبل أن تتورّط في حلقة الفساد؟ ولو كان راتبها يكفي لعيش كريم هل اضطرّت للجوء إلى هذه الأساليب؟!

حسمت صراعها الأبدي وأقرّت أن شكل الحياة الكريمة مستحيل في هذا البلد فإما أن تكون سارقاً أو مسروقاً... وقد عاشت سنوات طويلة شاعرة أنها مواطنة مهدورة الكرامة، تعيش عيشة الذل والقهر والغضب الدفين... تحسّ بعجز وشلل ويأس، فكان لزاماً عليها أن تعبر إلى الضفة الأخرى، وتعطي ولاءها للصوص كي ينوبها شيء من الفتات المتساقط عن موائدهم.

لكن ما يقلقها حقاً إحساسها أنها تسير في طريق النهاية، وبأنها تقاوم كي لا تنطفئ، إنها مرتشية وفاسدة مهما حاولت أن تجد لنفسها مبررات، وفي كل مرة تقبض ثمن المسروقات تحسّ بتعاسة ويأس، لم تشعر مرة بفرح رغم افتعالها ذلك...

ورغم فرح وحيدها بالثياب والألعاب والمأكولات اللذيذة التي لا

يمكنها تأمينها له بدون دخل إضافي... لكن نوب ذعر متقاربة صارت تنتابها، إنها تخشى أن تفقد روحها، روحها التي تحب أن تتخيّلها دوماً كفراشة بديعة الألوان، تطير من زهرة إلى زهرة مفجّرة شذى الحرية والفرح...

• • •

كلمّا طوّقها الضيق تلجأ للدفتر الأخضر العتيق الذي يشهد على مشاعرها وأفكارها وحوادث تخشى أن تنساها، كانت حريصة ألّا تنسى أبسط حادثة مرّت في حياتها ولم تفهم سبب حرصها وإخلاصها لكل ما يمّر بحياتها، أحياناً تفسّر هذا الهوى، بأنها لا تملك سوى أيامها التي تصير ذكريات، لا تملك مالاً، ولا نفوذاً ولا مركزاً... تملك حفنة أيام، تسطّرها في الدفتر الأخضر، الشيء الوحيد الذي تحرص على إخفائه... ومن وقت لآخر تقرأ مقاطع وصفحات فتحسّ بتأثر شديد وتمسح بحنان على الصفحات المصفرة هامسة لنفسها أن هذا الدفتر كنزها الوحيد...

ترى ما سبب هوسها بكتابة مذكراتها، كما لو أنها تخشى أن تصاب بفقدان الذاكرة! ارتمت فوق سريرها شبه مخدّرة من تأثير النبيذ، ضمّت الدفتر الأخضر إلى صدرها، ثم فتحته برفق، قلبّت الصفحات التي تحفظها عن ظهر قلب، تربّعت في سريرها وبدأت تقرأ كما لو أنها تنسحب إلى الماضي، عدة سنوات إلى الوراء... أخذت نفساً عميقاً، فكّت رباط حمالة نهديها، عقصت شعرها بملقط بلاستيكي سحبتها الكلمات إلى ذلك الزمن:

«تنبّهتُ أن أول شيء أفعله حين أستيقظ هو إطلاق تنهيدة عميقة وطويلة تنهيدة تعني أن كل أوجاع روحي تستيقظ معي... صرتُ أخشى

الصحو مع الوقت، الذي يعني لي عبء الذكريات والإحباطات، الصحو الذي يعني الصبر الطويل الطويل المُرهق والأمل المعذّب... اتّجهتُ لأعدّ القهوة، عارفةً أن الحركة الروتينية الأبدية لنهاري قد بدأت، حدّقت في الماء الذي بدأ يغلي، عصف بأحشائي غثيان، إذ سربلني شعور مباغت كم أن حياتنا تافهة ومهدورة، تطلّب اعترافي بهذه الحقيقة شجاعة كبيرة، وقد حاولتُ خداع نفسي لسنوات طويلة، بأن حياتنا ذات قيمة وهدف وبأننا نشعر بإنسانيتنا وكرامتنا، لكن السنوات تتالى ويتأكّد لدينا الإحساس بانعدام الحل، فطعم الذل يزداد كثافة في فمنا، راتبنا هزيل حقير، والمدينة تزداد انتهاكاً وقذارة، وحديثنا الأبدي عن الفاسدين واللصوص، والحملات المضللة الشكلية لمكافحة الفساد، بعد أقل من ساعة سأنضمّ إليهن... صديقاتي الممرضات... لكن يستحيل أن أشبههن، ولا أحسّ بالانتماء إليهن، لستُ متعالية ولكني أتفوّق عليهن بصفة نجحتُ في الحفاظ عليها، وهي أنني أتمكّن من الانفصال عن عاداتي وواقعي، أحمي نفسي من الانهيار بأن أنشطر إلى امرأتين امرأة تعيش الواقع المُهين وأخرى تتفرّج وتراقب...

فكّرت وأنا ألبس ثيابي ذاتها منذ أربعة أيام، وأعقص شعري الوسخ دون أن أمشّطه، إن كان باستطاعة الإنسان أن يحترم نفسه إن كان يشعر بالذل طوال الوقت؟ ترى هل وصلنا إلى مرحلة صرنا نستعذب معاناتنا ونتسلّى بها؟!

عصف بي غضب مفاجئ على نفسي، ما هذه الأفكار؟! ليت العلم يخترع وسيلة تمكّن المرء من إيقاف أفكاره ساعة يشاء، ولوهلة رغبتُ أن أتصل برئيسة التمريض لأقدّم إجازة، لكن خبراتي السابقة منعتني من اتخاذ هذه الخطوة، إذ تعلمّت أنني حين أكون في ذروة اكتئابي وسوداويتي أن أرغم نفسي للذهاب إلى العمل، كي أضيع في التفاهة

وأغرق نفسي في الثرثرة، أما إذا بقيتُ وجهاً لوجه مع سامي، فأصل إلى حدّ الانفجار وجَلد الذات، أتحوّل إلى كائن متوحش يُمعن في تعذيب نفسه والتشفي منها.

لكن شعوراً مؤكداً بالانقباض خنق قلبي وأنا أدخل المشفى، عجباً، نادراً ما يخيب حدسي، فما إن خطوت بضعة خطوات في الرواق الضيق الذي ينتهي بغرفة رئيسة التمريض حيث نخربش توقيعنا الصباحي، حتى كدتُ أتقيّأ أمعائي من رائحة المجرور الذي يرشح ماؤه القذر على أرض الممر، لكنه هذه المرة بالغ في فجوره، وتدفّقت كتل البراز من فتحات مخفيّة... ورغم قرفي شعرتُ بسعادة خبيثة كما لو أن نفق المجرور صورة لحياتنا، بل تمنّيتُ ألا يتم إصلاحه، وأن تعوم هذه المشفى القذرة بالبراز... وفي غرفة رئيسة التمريض انحشر جسدي بين أجسادهن نساء متعبات صابرات، بعضهن يحملن أطفالهن إلى حضانة المشفى البائسة، أطفال صغار مساكين يُوقظون فجراً ويُقادون رغماً عنهم إلى حضانة المشفى... أكثر ما يهمّ إدارة المشفى التوقيع، إنه القيمة المقدسة الوحيدة... تنبهتُ أن هدى قرصتني في خاصرتي، وحين التفتُّ إليها، غمزتني وقالت مبتسمة: لديّ خبر حلو...

كان مزاجي لا يزال في قمة سوداويته، علّقتُ: طوفان المجرور...

ضحكت: بل سنقبض الراتب اليوم.

- لكننا لا نزال في 23 من الشهر.

- أعرف، لكنهم حنّوا علينا، فبعد غدٍ سيبدأ شهر رمضان...

أرجوك أسرعي واقبضي راتبك، ولا تنسي هذا الشهر دوري في الجمعية.

فكّرتُ وأنا أمشي ورائحة البراز النتنة تلحقني، أننا دوماً نستعمل صيغة الغائب... مَن هؤلاء الذين حنّوا علينا، مَن هؤلاء الذين

نخشاهم، مَن هؤلاء الفاسدون الذين نتناقل قصصهم ونحلّلها لساعات... نتحدّث عنهم دوماً بصيغة الغائب... ربما لحماية أنفسنا من أخطار محتملة.

لا أذكر نفسي إلّا وأنا أتدحرج من جمعية إلى جمعية، لا يمكننا - نحن الممرضات البائسات - أن نتدبّر أمورنا إن لم ندخل في سلسلة لامتناهية من الجمعيات، مَن تريد شراء غسالة أوتوماتيك، ومَن تحتاج لدفع مبالغ طائلة أجور أساتذة الرياضيات والإنكليزي لأولادها، خاصة بعد أن تحوّلت الشهادة الثانوية إلى رُهاب حقيقي للأهل والتلاميذ... ومَن تحتاج المال لأنها على وشك ولادة طفل غير عارف أي حرمان ينتظره...

لكني في الحقيقة كنتُ أتعاطف مع هدى أكثر من كل زميلاتي، ليس لأنها تعاني من ظلم مديد، بل لأنها أكثر زميلاتي حساسية ونقاءً... كانت محبة معطاءة، لم تعرف الحسد يوماً، وقد تزوّجت ابن خالتها بعد قصة حب، كان موظفاً في مؤسسة المياه، وقد ورث عن والده بيتاً واسعاً لكنه يحتاج لترميم، ويتطلّب مالاً كثيراً لإصلاحه... وفي بداية زواجهما قرّرا تأجير البيت لسنتين، والسكن مع أمه وأخته العانس، كي يجمعا المال اللازم لترميمه... وفعلاً أجّرا البيت لأخ أعزّ صديق لزوج هدى، بعقدٍ نظامي سُجّل في المحكمة... وقد حلف المستأجر بحياة أولاده أن يُخلي البيت لحظة يطلبه المؤجِّر... لكنه حنث بوعده دون ذرّة ضمير، إذ استعذب السكن وسط المدينة، وقام بإصلاحات بسيطة للبيت الفسيح... ومرّت السنوات، والدعوى في المحاكم، أكثر من خمسة عشرة عاماً، ولا حديث لهدى سوى نذالة المستأجر وطمع المحامين والقضاة... وكانت حماتها شديدة التذمّر من ضجّة أولادها، فالبيت ضيق، والعمة العانس تضيق ذرعاً بأولاد أخيها الذين يحرمونها من

خصوصيتها، وكان على هدى أن تحتمل وتمتصّ كل المنغصات وتبتسم محاولة استرضاء حماتها... فهي التي تسكن بيتها... وتقلق راحتها.

وكل الجمعيات التي دخلت فيها هدى كانت لجمع المال اللازم للمحامين والقضاة... هذه المرة ستدفع هدى 25 ألف ليرة للمحامي الذي سيعطيها للقاضي كرشوة من أجل إصدار الحكم بإخلاء المستأجر للبيت الذي احتلّه أكثر من خمسة عشرة عاماً.

تحلّقنا حول المائدة الواطئة العتيقة الشاحبة كأحلامنا، هرسنا البطاطا المسلوقة التي يتصاعد منها البخار، قسّمنا الخبز الطازج الذي تحضره كل صباح ابتسام لأن بيتها مقابل الفرن، أضفنا الكثير من السكر لإبريق الشاي، وأخذنا نلتهم فطورنا الأبدي.. وجدتني أفتتح الحديث بلذّة خبيثة تعربد في نفسي من المجرور الطافح بالنجس... زجرنني وهن يقلن متذمرات: أوف، ما بك تتحدّثين عن المجرور، ألا ترين أننا نأكل...

اعتذرتُ لهن اعتذاراً زائفاً، صرخت هدى مهتاجة: هيا، أسرعن لقبض رواتبكن فهذا الشهر دوري في الجمعية.

علّقت إحدانا ببراءة: بل دور القاضي.

صار من المستحيل أن نتخيّل حياة هدى إلّا وقصص المحامين والقضاة تحفّ بها... ولن ننسى أبداً يوم أتت إلى المشفى متقافزة من الفرح، تلوح أمامنا بجريدة نُشر فيها القانون الجديد للإيجار، ويقتضي أن بإمكان مالك البيت أن يستعيد بيته بعد أن يدفع للمستأجر 40% من قيمة البيت... ومعظمنا صعقن أن تحسّ هدى بفرح.. أين العدالة، فبعد أن سكن المستأجر خمسة عشر عاماً في بيتها وبإيجار زهيد، عليها أن تدفع له مالاً يعادل تقريباً نصف سعر المنزل كي يستعيدوا بيتهم؟! لكنها لم تبالِ بأفكارنا، وقالت المهم أن يخرج، من قبل كان من المستحيل أن يترك البيت.

في الواقع صرنا بارعات في قوانين الإيجار بفضل هدى، فكم شهدنا نوب انهياراتها النفسية كلما دفعت مبلغاً للمحامي أو القاضي، وكم تحلّقنا حولها نؤاسيها كلما وقعت في فخ نصّاب وعدها أن يعيد البيت إليها بعد أن تدفع له مبلغاً كبيراً...

لم تتوقّع أي منّا أن هدى ستنهار بسبب عبارة انطلقت عفوية من إحدى زميلاتها:

- بل قولي هذا الشهر هو دور القاضي لقبض الجمعية...

كانت هدى تهمّ بدسّ لقمة خبز كبيرة محشوة بالبطاطا المسلوقة في فمها، حين انقضّت عليها هذه العبارة، ولم نفهم لِمَ زلزلتها بتلك الطريقة المبالغ بها... رمت اللقمة جانباً وانهارت بنحيب يقطع القلب.

كان من عادتها إخفاء وجهها بين راحتيها حين تبكي، لكنها هذه المرة بكت بعينين مكشوفتين مذهولتين وهي تنقّل نظرتها الزائغة بين وجوهنا، وتقول بصوت مختنق بالدموع: معك حق، المال سيذهب إلى بطن القاضي الذي يتّسع للدنيا بحالها. لم أرَ وجهها ينزّ بألم شديد كما كان ذلك الصباح، ومن ملامحها العذبة ارتشحت قسوة، فكّرتُ أن الظلم يجعل الناس قساة وحاقدين.

جمّدنا هياج انفعالاتها وكلامها الأقرب للصراخ، انتفخت أوردة عنقها النحيل صفعت وجنتيها بغضب مجنون وصرخت، ونظراتها تتجاوزنا، كما لو أنها تحدّق بأعداء متكّرين عذّبوها طويلاً:

والله عيشتنا عيشة كلاب، بل الكلاب يعيشون أفضل منّا، يا جماعة، مرّ شبابنا ونحن نتحمّل عيشاً ذليلاً، أنا وزوجي وأولادي محشورون في غرفة، وأمه وأخته العانس في الغرفة الأخرى، وكل دخلي ودخل زوجي يذهب للمحاكم، أقصد لبطن المحامي والقاضي، أنتن تشهدن أن أكثر من عشرين جمعية اشتركت بها، كانت لغاية وحيدة

الدفع للمحامي! يا إلهي أين العدل في هذا البلد، هل وجدت القوانين لتدفع الناس للجنون من القهر والظلم؟! أليست غاية القانون تحقير الناس وإذلالهم!!

أهكذا تكون الحياة؟! أهكذا تكون الحياة؟! باه كم كنتُ غبية، كنت أعتقد أن الحياة وردية، ثم تبيّن لي أنه لا يوجد حياة أصلاً، لأن عيشنا سلسلة من القهر والذل...

هززتها من كتفيها ورجوتها أن تهدأ، ذكّرتها بفرحها هذا الصباح، وابتسامتها العذبة وهي تزفّ لي خبر أننا سنقبض الراتب، انتفضت مبعدة يدي عن كتفها بنزق طعنت وجهي بنظرة محمرّة من الغضب وقالت: ما بك، عودي لحديثك الجوهري، حدّثينا عن المجرور الطافح بالخرا، إنه حياتنا، حياتنا الأشبه بمجرور.

علت أصواتنا نرجوها أن تهدأ، فكان جنون غضبها يزداد حين نطلب إليها الهدوء كما لو أننا نشحنها أكثر وأكثر، تعلّقت عيوننا الحزينة بهدى التي شوّه الغضب وجهها الجميل الصبور، هذّك القهر يا هدى، بل هدّك الظلم... تغيّر طعم الشاي في فمنا، واستحالت حلاوته مرارة انسكبت في قلوبنا المثقلة بأعباء الحياة الطاحنة...

للحظة توحّدنا مع هدى وشعرنا بتلك القوة الوحشية التي تهرس الفرح والأمل في حياتنا، لم نكن قادرات أن نحقّق أي هدف، فالعمر يمضي سنة بعد سنة، ونحن نزداد فقراً سنة بعد سنة، ورواتبنا الهزيلة بالكاد تكفي ثمن خبز لأولادنا... كل ما فعلناه أننا نجحنا إلى حدٍّ كبير في ترويض أنفسنا على تحمّل الذل، ندفن أحزاننا وخيباتنا في الثرثرة، وحين ننهار كل مساء على فراشنا العتيق، يعبر خيالنا أملٌ شاحب بأن الغد لا بدّ أن يكون أفضل!

انطفأت هدى بعد فورة غضبها الذي هزّ كيانها هزّاً، فتحت ابتسام

حقيبتها وأخرجت زجاجة عطر رخيص، رشّت يدي لينا وهي تقول لها بلهجة مرحة مفتعلة:

- هيا امسحي وجهك...

أعادت هذه اللمسة الإنسانية الرقيقة الهدوء إلى جو الغرفة المشحون بالتوتر وإلى روح هدى خاصة، التي ضحكت والدموع لا تزال تتدفّق بسلاسة من عينيها، قالت وهي تتمخّط: هيا يا صبايا، أسرعن لقبض الراتب...

لا أعرف لماذا أحسّ أن حزننا مقدّس نحن النساء المسحوقات. حسبنا أن العاصفة هدأت، ولم نتوقّع أن الانفعالات معدية هذا الصباح، ففي اللحظة التي هدأت هدى، انفجرت دلال بعاصفة من الغضب غير متوقّعة، دلال التي نادراً ما تتكلّم، بل كنا نسخر منها ونقول: أوف يا دلال، أرهقتنا من الكلام... فترد على دعاباتنا بابتسامة...

بعض الممرضات اللاتي يعرفن دلال منذ زمن بعيد يقلن إنها كانت مرحة وتتدفّق حيوية وتتكلّم وتثرثر، ولكنها اختارت الخرَس بعد أن سحقها سجن أخيها...

كانا توأماً، حفظنا صورهما معاً، بالأبيض والأسود ثم بالألوان، وفي سنته الجامعية الثانية في كلية الهندسة اختفى... قبضوا عليه بتهمة انتمائه إلى رابطة العمل الشيوعي. للمرة المليون سمعنا دلال تحكي القصة ذاتها... تعشّينا أنا وهو بيضاً مقلياً، كان يحبّ البيض عيوناً، يقول لي، أنظري ما ألذّ هذا الصفار المكتمل يرشّ فوقه البهار الحار والملح ويأكل بلذّة كبيرة... ثم شربنا الشاي، وقال إنه يريد أن يبوح لي بسرّه... قلتُ له، لا تعطّلني، يجب أن أنام لأني سأذهب باكراً إلى المشفى، قال مداعباً: طظ في هذه المشفى القذرة... اسمعي، اليوم

قبّلتُ نهى في المدرج... يا إلهي يا دلال، وجدنا أنفسنا فجأة وحيدين في مدرج كلية الهندسة... تشابكت نظرتنا، لم نتفوّه بكلمة، قوة مغناطيسية قرّبتنا من بعضنا، والتحمنا بقبلة إلهية... أتعرفين القبلة معجزة... معجزة، كل كياني تبدّل، كما لو أنه انتقل من جاذبية إلى جاذبية أخرى، كما لو أنه عَبر فضاءً، أو محيطاً... كما لو أنه تبدّل فصار من نور...

تضحك دلال وتقول: يا سلام، الشاعر، الشاعر... أتفعل بك قبلة كل هذا... ثم كيف تتجرّآن، يا للوقاحة، ماذا لو ضبطكما أستاذ أو أحد الطلاب تتبادلان القبل في الحرم الجامعي...

اوف، اسكتي، هل هذه جريمة، أم أن منظر رجل يبوّل في الشارع هو الجريمة. عجيب هذا البلد الناس لا يتحمّلون مظاهر الحب، بل يتحمّلون القبح والقذارة والانتهاك. سمعنا هذه القصة عشرات المرات من دلال، وفي كل مرة نصغي إليها بتأثر وحب...

في الليلة ذاتها، قرعوا باب البيت، بضربات كالقصف... كانوا أربعة، كان لا يزال صاحياً يستعيد التأثير السحري للقبلة وبجانبه كأس المتة يرشف منه بلذّة وبطء انتفضتُ من فراشي مذعورة، لأجدهم في غرفة النوم، يأمرونه أن يأتي معهم... صرختُ إلى أين، فقال لي أحدهم: اخرسي...

لم أكن أعرف أن أخي منتمٍ لتنظيم سياسي سرّي، رجاهم أن يسمحوا له أن يبدّل ملابسه فلم يقبلوا، جرّوه خارج البيت لابساً البيجاما.

مرّت ثلاث سنوات على اختفائه، لم يعرف أهله هل هو حي أم ميت؟ وأين هو هل حُوكم؟ وما هي جريمته؟! في أي سجن هو، أم في أي قبر؟!

ثم دفع والدها رشوة لأحد الضباط مئة ألف ليرة ليعرف إن كان ابنه حيّاً أم ميتاً وأتاه الجواب أنه حي، كلمة من حرفين سعرها مئة ألف، الحاء بخمسين ألف والياء بخمسين ألف، كانت دلال تسلّى بمأساتها وتقول:

الحاء، أي حب، حرب، حمى، حنين، حبيب، حبس، حمار، حصان، حميم.. كلمات تبدأ بحرف الحاء... سعر الكلمة... تغصّ بالدمع وتضحك، ثم تقول وحرف الياء... يأمر، يتهك، يعضّ، يؤلم، يجرح، يخصي، يعوي، يقتل... كلمات سعرها خمسون ألف...

كنا نحسّ بانسحاق روح دلال، وصمتها الذي يضجّ بمأساتها، لقد اختارت الصمت لأن الكلام يوجع روحها، كنتُ أعرف أن الزمن توقّف في تلك الليلة الرهيبة التي ألقت بظلها على حياة دلال، ورغم أنها تزوّجت شاباً يحبها، وأنجبت طفلاً سمّته باسم أخيها السجين، إلّا أنها كانت منخطفة إلى الهناك، إلى المجهول الذي يبتلع توأم روحها، كانت تقول لنا، لا تعرفن ماذا يعني التوأم... صعب أن أشرح لكن... إنه أنا، وأنا هو... لسنا بحاجة للكلام، المشاعر والأفكار تمرّ بيننا بطريقة سحرية، كما ينتشر العطر في الجو... كم من المرات فاجأتنا دلال بدموعها الصامتة تسقط في كأس الشاي فنرجوها أن تحكي وتنفض عن آلامها، فتبتسم وهي تقول: لا تشغلن بالكن... عادي، عادي.

صارت كلمة عادي ملاصقة لدلال، وفي البداية كنا نسخر من الكلمة السخيفة اللامعنى لها، ثم ترسّخت في وعينا كما لو أنها كلمة السر، أو شيفرة تكشف لنا خفايا يومنا العادي... عادي أن نعيش في ذل وذعر، عادي أن لا نحصل على حقوقنا، عادي أن يكون راتباً حقيراً، عادي أن نتفرّج على نظرات الحرمان في عيون أطفالنا، عادي أن يختفي أحباؤنا في السجون لأنهم يفكّرون بطريقة مختلفة للطريقة

الواجب اتباعها... عادي أن يكون مدراؤنا لصوصاً فوق القانون... عادي ألا نجرؤ على الحلم... عادي أن نعيش قلقاً متواصلاً لتأمين لقمة العيش... عادي أن نفطر كل يوم بطاطا مسلوقة مهروسة، وشاياً حلواً يساعدنا لابتلاع ذلّنا اليومي عادي أن يُهدر عمرنا في الثرثرة... عادي أن نشهد من وقت لآخر انهياراتنا النفسية فنغضب ونشتم ونبكي، ثم نبتسم ونطبطب على آلامنا ونقول عادي...

كانت دلال تشترك معنا في جمعيات، ليس لحاجتها المادية، إذ كان زوجها حلّاق للرجال ودخله جيد، لكنها كانت تحتاج مال الجمعيات، كي تدفعها رشاوى وتتمكّن من زيارة أخيها في سجنه، كل زيارة تكلّفها بين خمسين ألف إلى مئة ألف...

صباح الانفجارات، هكذا سمّيته، هل توقّعنا أن الانفعال العنيف لهدى قد انتقل إلى دلال؟ أم أن دلال ما عادت قادرة على تحمّل أوجاع روحها، سقط فنجان الشاي من يدها وصرخت:

- مصابي أكبر يا هدى، مصابي أكبر... أنتِ تنتظرين حجراً، مجرد منزل، مجرد حجر، وأنا أنتظر روحاً، وقفت وسرحت في البعيد، وشعُّ الوجد من عينيها، كانت تراه، توأم روحها، عرفنا أنها تحدّثه، لكنها تحتاجنا كجمهور... ياه لو تعرفين كيف يمتلئ إنسان بروح إنسان آخر، لدرجة يشعر تماماً أنهما واحد... لسنا توأم في الجسد فقط بل في الروح... إنه هناك هناك، فوق قمة جبل، يضيع عمره سنة بعد سنة، بعد سنة، يسحق شبابه وأحلامه، ليس لأنه قتل أو سرق، بل لأنه فكّر، لأنه فكّر بطريقة مختلفة...

خبطت صدغيها بقبضتيها بقوة، لدرجة صرخنا مخدَّرات: ما بك يا دلال، هل تريدين كسر عظامك...

لكنها لم تسمعنا، بل تابعت كلامها، وعيناها ترشحان بدموع

الوجد...

لماذا فكّرت يا حبيبي، لماذا فكّرت وتبنّيت تلك الأفكار التي لا تناسبهم، لماذا فكّرت يا حمار... لا داعي للتفكير في هذا البلد... لا داعي للرأس أصلاً.

وكعادتها سهام التي تبهرنا كل مرة في امتصاص انفعالاتنا وجعلنا نضحك من خيباتنا ومعاناتنا، قامت تفتح النافذة المخلعة وتقول بمرح صادق:

- الله يلعن هذا الصباح، ماذا حلّ بكن... أهو يوم الشكوى العالمي أم يوم قبض الراتب. طيّب جاء دوري لأحكي لكن عن ابن القحبة، الذي أيقظني من عز النوم لأن شابعه مهتاج، ما ناقصنا إلا الجنس، كل واحدة منّا تنطرح كبهيمة مضى عليها من التعب... وبعدين لازم نفتح ساقينا لابن الكلب ونتظاهر بالنشوة، تفو، أية نشوة وأية سعادة...

انفجرنا بضحك يائس، كم نغبط سهام على قدرتها على تحويل المأسي إلى نكات سهام التي علّمتنا أن الضحك هو طريقة أخرى للبكاء...

بقايا بطاطا مسلوقة مهروسة، وأقداح شاي عتيقة فارغة، وأحلام متكسّرة كأرغفة الخبز... ونساء بائسات صبورات... هذا هو يومي في مشفى القذارة، المشفى التي هدرت سنوات شبابي فيها والتي أكرهها كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله"...

كلما قبضت إيمان رشوة من الوسيط تسرع إلى الدفتر الأخضر لتقرأ مذكراتها لتعود إلى ذلك الزمن المرتشح بالقهر والفقر واليأس، تكفيها قراءة عدة صفحات كي تجد الأعذار لنفسها ولتفهم كيف اضطرّتها الظروف لتبيع الخيوط والأدوات الجراحية، كان الماضي يبدو لها مهتزّاً

دوماً كسلسلة من الدوامات والدوائر مرتسمة فوق سطح الماء، ولم تعرف لِمَ تشعر أن كل ما تحسّه يستحق أن يكتب، فهذا الدفتر كنزها، إنه الصديق الوحيد الذي بإمكانها أن تبوح له بكل شيء... كانت تفكّر وهي تكتب بأن تلك الإنسانة التي تمثّلها فيها شيء مدهش وبأنها محمّلة بطاقات هائلة لا تجد طريقها للتحقق، في مدينة تتفنّن بقتل الروح، وفي عمل حقير يسحقها سحقاً... أهذه مشفى؟ في سرّها تسمّيها مشفى القذارة لأن السمة الرئيسية فيها هي القذارة والفوضى، ورغم إحساسها بأن التعاسة والظروف المشتركة تجعل الناس متآخين ورغم إحساسها بالتعاطف الشديد مع شريحة النساء الصابرات المسكينات الممرضات، وتشاركها معهن ذلّ الراتب والأحلام المجهضة، واليأس اللطيف المرتشح في قسمات وجوههن، إلّا أنها في أعماقها لا تشعر بالانتماء لهن، تشعر ببساطة أنها أكثر مما هي، أكثر من تلك الممرضة التي تذهب كل يوم إلى مشفى القذارة، وتنحشر وسط مرضى أشدّ بؤساً منها، وتفطر مع شريحة النساء الصابرات البطاطا المسلوقة المهروسة مع الخبز...

كانت إيمان تشعرُ أنها مدفوعة خارج هذا النمط البائس من الحياة، وترفض كبرياء روحها الاستسلام للواقع، الذي يعني الهزيمة، كانت مؤمنة أنها تستحقّ حياة رائعة وترفض دوماً القبول بالواقع، وأكثر ما يطيّر صوابها تعبير "ماشي الحال"..

ورغم أنها محاصرة بضباب التفاهة - كما تشعر - لكن هوى غامض ينبض في قلبها، هوى يجعلها تتوق وتحلم بحياة رائعة تشعّ منها الكرامة، كالشمس... وأهم ما يميّز إيمان أنها ترفض أن تعطي لمعاناتها قيمة، مؤمنة أن أكبر خطر على الإنسان أن يقدّس معاناته، فهذا يعني رضوخه لها وقبوله بها، والأخطر من ذلك تعوّده عليها...

السمة الأساسية لديها هي الرفض، ليس للبؤس المعيشي فقط، بل لعقلية الناس وطريقة تفكيرهم، وحدهما طاقة خيالها الجبارة وولعها بالقراءة، نجحتا في تغذية الأمل في نفسها، وفي الحفاظ على ذلك الشعور المُعافى الرائع بأنها إنسانة متميّزة.

كانت الكتب تشدّها للقراءة بنهم، كمغناطيس، بل كإعصار، فتلتهم الصفحات بشغف ونهم، وتشعر كيف يُضاء عقلها وتتفتّح مداركها، والأهم كيف تتمكّن من فهم حياتها وحياة الناس حولها وتحليلها بصدق ودقة... لكن في الواقع لم تقدّم لها القراءة حلولاً فعلية لمعاناتها، فهي سجينة في ثوب ممرضة لا يتجاوز راتبها مئة وخمسين دولار في الشهر بعد خدمة عشر سنوات في المشفى الحكومي، أو مشفى القذارة...

هي الممرضة المتململة من العيش مع أهلها بعد طلاقها، لكنها مضطرة لتحمل كل الظروف من أجل وحيدها الذي تعبده، ولم تستطع الكتب أن تزيد راتبها ولا أن تجعلها تستقلّ في معيشتها عن أهلها، لعلها ألهبت غليانها الداخلي ورفضها لتلك الحياة الوضيعة التي لا تستحقّها...

كانت مؤمنة بتميزّها وبأنها تستحقّ حياة أفضل، ولا يتوقّف خيالها عن ابتداع أشكال بديعة لحياتها، لكن القراءة جعلتها تطفو فوق واقعها، وتخلق واقعاً آخر. القراءة تخطفها إلى فضاءات مذهلة حيث تبدو الأفكار كنجوم مضيئة، وتنتشي بالأفكار والكلمات، كانت تقرأ عن عوالم وشخصيات تبهرها، وتفكّر بها طويلاً وتتخيّل أنها تعيش تجارب الأبطال... وتحسّ بالدونية والخجل كونها لم تسافر قط، لم تركب طائرة، ولم تعبر الحدود... تحسّ بالخجل من تفاهة الحياة في هذه المدينة البائسة، ومن سطحية الناس واهتماماتهم التي تنحصر في مستوى إشباع حاجات البطن وما تحته.

كم من الليالي قضتها إيمان متربّعة في سرير عمره أربعون عاماً، كان لعمتها ثم لأخيها، وبعد طلاقها صار سريرها، يداها على خدها، فكاها مطبقان بقوة من الغضب الذي ينهش روحها بلا رحمة، مهزومة ومستسلمة لصراعات داخلية لا ترحم... حتى تضطرّ للاستنجاد بالمنوّم، تبتلع الحبة الصغيرة التي تعفيها من وجع الصحو...

حين انفصلت عن زوجها وعادت إلى بيت أهلها، كعادة كل المطلقات في هذا البلد، بدأ ينتابها شعور غريب بأنها مهدّدة في جوهر كيانها، ولم تكن تعرف كيف ستحافظ على ذاتها وهي تتماهى - رغماً عنها - معهما (أمها وأبيها)، كانت تفتح خزانتها فتجد ثياب أمها محشورة بين ثيابها، وأحذية والدها بجانب أحذيتها، وكثيراً ما تكون جالسة في غرفتها، تقرأ، أو تتصارع مع مشاعر اختناقها ونظرها مثبّت على ظهر الخزانة حيث تضع أمها لحفاً عمرها مئة عام ثقيلة وعتيقة، لكنها لا ترميها لأنها مؤمنة أن كل قديم جيد، وكل جديد فاسد، فجأة تفتح أمها الباب دون أن تقرعه، وتدخل الغرفة دون أن تلتفت إليها حتى، وتأخذ غرضاً ما... تشعر أنها مستباحة وليس لها أية خصوصية... تشعر أنها تذوب يوماً بعد يوم وسطهم، وبأنها عارية، لأنها تحت أنظارهم دوماً... إذا تحدثت بالهاتف يسمعون ما تقول... وإن لم يسمعوا جيداً يسألونها مع من تتكلّمين وماذا قلتِ؟!

كم من الساعات كادت روحها تتمزّق من القهر والغيظ وهي تتفرّج على والديها العجوزين يلعبان الورق مع الجيران المماثلين لهما في العمر، وتنصت لضحكاتهم البطيئة ونحنحاتهم، ونكاتهم المملّة السمجة عن أيام الصبا، وابتساماتهم التي تكشف عن لثة عارية أو عالق بها بضعة أسنان مُصفرّة... وهي امرأة متوهّجة بالحيوية والرغبة للحياة، لكنها محكومة بظروف قاسية... الشيء الوحيد الذي كان يقيها من الانهيار هو

صغيرها... فمعه ترجح كفة الأمل دوماً...

تنفصل عن نفسها وتتأمّل حياتها، امرأة لم تكمل الثلاثين، تتأرجح بين عجوزين وطفل تنوس بين البداية والنهاية، بين المستقبل والقبر... وهي من تكون، أحياناً تجد نفسها أقرب للموت، وأحياناً أقرب للحياة.

• • •

ما كتبته إيمان عن نفسها قبل أن تصير مرتشية

لا يفارقني هذا الشعور بأنني أعيش عمري بالإكراه، وكم أحسّ بمرارة الهزيمة حين ألخّص سنوات طويلة من حياتي بأنها كانت عيشاً بالإكراه...

لا أتوقّف عن لعن الحياة وشتم القدر، وأحمّلهما مسؤولية موت حلمي بالاستقلالية، كنتُ مفتتنة بمفهوم الاستقلالية، أن يكون لي بيتي الخاص، وأشيائي الخاصة، وحرّيتي، أن أستقبل أصدقائي وقتما أشاء، أن أتحدّث إليهم هاتفياً دون أن أحسّ بعسبه تنصُّت والدي، أن أتجوّل في البيت بثيابي الداخلية وأنا أدندن أغاني أو أطلق أصوات مبتهجة... كم أحسّ بالذل حين أجد نفسي فجأة لوحدي في بيتهما فأبدأ بالصراخ والتصفيق وأنا أكرّر العبارة ذاتها إلى ما لانهاية، ياه، ارتحنا، ارتحنا...

لن يفهم أحد كيف يمكن أن يعيش الإنسان شاعراً كل لحظة أنه يحمل ثقلاً رهيباً على ظهره، أو يشعر ببلاطة ثقيلة على صدره... هكذا أشعر دوماً، لأن قدري أن أعيش بين كهلين وطفل، ولتغيّر الصورة بعد سنوات، فأجد نفسي متأرجحة بين عجوزين ومراهق... مشاعري تتفاقم مع الزمن، أعجز عن إيجاد تسوية معها أعجز عن رشوتها، بأن تخفّف وطأتها على روحي، مشاعر ثقيلة طاغية ليس في قلبها رحمة، أكاد أحسّ بخفقانها في قلبي، وبذلك النمّل الخفيف تحت جلدي، مشاعر

مشمرة بالضيق والرفض والاختناق، ومن حين لآخر تنفجر هذه المشاعر بنوب عاصفة من الغضب الكاسح المزلزل، فأرغب أن أفجّر الدنيا وأنسف أثاث البيت الذي لا يخصّني، وأمزّق وجهي العجوزين اللذين لا يكفّان عن مراقبتي وتقييم تصرفاتي بصمتهما الأثقل من الرصاص، ونظراتهما الباردة...

كنتُ انفجر بهما في أوقات متباعدة، فأنهال عليهما وعلى الحياة بوابل من السباب الفاحش وألعن كل شيء، كل شيء، من الراتب الحقير الذي أذلّني وأجبرني أن أعيش معهما، لأني عاجزة عن استئجار بيت يؤويني وابني، إلى الفرشة العتيقة التي أنام عليها والتي عمرها أكثر من أربعين عاماً، إلى الغرفة المختنقة بأغراضهما المدسوسة مع أغراضي، كما لو أنها تؤكّد لي هيمنتهما على حياتي، ألعن نمط الحياة الذي لا أطيقه والمفروض عليّ كقدر أبدي لا أملك زحزحته... كل يوم أعود من المشفى، لأجلو الصحون، وأمسح رخام المجلى وقد تركوا عليه آثار خبز وطعام... ثم أمسح بلاط المطبخ... أقوم بهذه الأعمال الأبدية وأنا بحالة مزرية من الغضب الكاسح، وسيل الشتائم لا يتوقّف عن الانهمار من فمي، ألعن هذه الحياة فيما خيالي الشرير يوشوش لي أن لا أمل بتغيير حياتي إلّا بموتهما... ويتحوّل وجودي كتهديد لوجودهما، ووجودهما كتهديد لوجودي... اللعنة على الحياة في هذا البلد الذي يجعل الأبناء والآباء أعداء!

لكن سرعان ما أسقط ضحية ندم حارق، وألوم نفسي وأعنّفها لأني تمنّيت موتهما، ويجرّني الندم إلى المبالغة بتدليلهما، فأعدّ لهما قهوة بعد الغداء، وأقدّمها لهما في غرفتهما المختنقة بالأغراض، وأحضر لهما الحلوى التي يحبّانها... وأكوي قمصان أبي بحيوية هائلة وسعادة عصبية، وأشتري الزهور لأمي وأنا أتدفّق بالكلام العذب أمامها،

وأسـحـهما على نوب غضـبي فهي بسبب عملي الحقير في المشفى.

لكن نوب الندم والتفاؤل لا تعيش سوى أيام، أهوي بعدها إلى مَسكني الحقيقي، أقصد تجهمي الدائم الذي صار طبيعتي، كما لو أن جوهر وجودي التجهم والنقمة والغضب الكاسح والرفض...

يصعب أن أصف الألم المُذل الذي كنتُ أحسّه وأنا أتفرّج على زميلات لي يجهّزن بيتهن الخاص، كيف يحكين بفرح وحماسة عن الأغراض التي يشترينها والجمعيات التي تتناسل واحدة بعد الأخرى ليتمكنّ من دفع أقساط النجار، أو لشراء برّاد أو غسالة، ولم أفهم لماذا زججتُ نفسي في جمعية ذات يوم، وبقيت عاماً ونصف أدفع الأقساط، وحين حان دوري وقبضت المبلغ اشتريت سجادة بديعة، ولم ترضَ أمي أن نفرشها في أرض الصالون، لأن لديها سجادها الذي تؤمن بجودته لأنه قديم، وكل قديم جيد، وكل جديد رديء. وتأفّفت من سجادتي الرائعة ورشقتني بنظرة غاضبة وهي تقول: أوف من أغراضك، لم يعد في البيت متسع على الأقل قولي إنك ستشترين سجادة. صرختُ بها وبخار الغضب يتصاعد من روحي، نافخاً صدري كمنطاد: هل عليّ أن آخذ إذناً منك كلما اشتريت غرضاً...

وكأنها لم تسمعني، أو تقصّدت تجاهلي فقالت بالتأفف ذاته: نكاد نختنق من أغراضك.

بقيت هذه السجادة التي مثّلت لي طوال سنوات حلمي المُجهض بالاستقلال ملفوفة بالقهر، مهملة ومحشورة بين الخزانة والحائط، كما لو أنها مرآة روحي لتذكّرني كلما تأمّلتها بحنان أني مثلها تماماً محشورة بين أم وأب!

وكنتُ كل سنة أفردها على الشرفة لتتعمّد بنور الشمس لأيام ثم ألفّها وأعيدها إلى الزنزانة... متحمّلة تعليقات أمي الدائمة، بأن هذه

السجادة لا معنى لها، ومن الخطأ شراؤها... إلى أن بعتها بعد ست سنوات من شرائها وقد خسرتُ ربع ثمنها!

أغراض كثيرة كنتُ أشتريها، متخيّلة أني أزيّن بها بيتي الخاص، محاولة أن أخدع نفسي أن بيتهما هو بيتي، وكنت أخبّئ هذه الأغراض في قاع خزانتي أمسح عنها الغبار من وقت لآخر، ثم أبيعها، أو أهديها لصديقاتي في مناسبات سعيدة...

ظلّ حلمي بالاستقلال قوياً وطاغياً إلى أن استيقظت ذات يوم، وما إن فتحتُ عيني حتى هوى قلبي وأنا أرى فراشة عملاقة رمادية كما لو أنها مكسوّة بالغبار ملتصقة بالستارة البيضاء... أحسستُ بفزع شديد من منظرها، ولمتُ نفسي كيف أرتعب لحدّ الذعر من مجرد فراشة... ورغم خوفي تقدّمت بحذر من الستارة وحدّقتُ في الفراشة العملاقة النائمة، وهززت الستارة وابتعدتُ عنها مسرعة فسقطت الفراشة أرضاً... أدركتُ أنها ميتة، وفي اللحظة ذاتها هزّتني قشعريرة النبوءة، بأن هذه الفراشة تجسّد حلمي بالاستقلالية الذي مات...

بحنان كبير جمعت رُفات حلمي ووضعت الفراشة في علبة صغيرة... وجلستُ القرفصاء أبكي بحرقة، دموعاً الهبت وجنتي... وقرّرتُ أن أدفنها في حديقة أفكاري السرّية، تلك الحقيقة المنسية المُختزلة، والتي لا يقصدها أحد غيري وغير حفنة من المشرّدين...

القناعة هي الهزيمة، لقد اقتنعتُ أخيراً أن لا جدوى من حلمي المعذّب بأن يكون لي بيتي الخاص... بل صار يحلو لي تأمل الإنسانة الجديدة التي صرتها... إنسانة بلا أحلام، وسقطتُ في حالة غريبة وهي إدمان تأمل حياتي في هذا البلد...

أحبّ أن أتأمّل الصور التي يفرزها خيالي لتجسيد حالتي، فأشعر أني أشبه لوحة مغطّاة بالغبار، معلّقة على جدار، أو مياه بحيرة راكدة،

أو أشبّه نفسي بيوم صيفي خانق حيث لا تحسّ بنسمة هواء، ولم أتوقع يوماً أني سأجسّد حالة إنسان هُزمت أحلامه، وكان من الصعب القبول بهذه الحقيقة لأن ألم الكبرياء ظل ينخر في قلبي حتى أنهكه... لكني مررتُ بمخاض قصير، أشبه بولادة جديدة، وقبلتُ عن رضى أن أنتمي لتلك الشريحة الواسعة من الناس الخاسرين لأحلامهم وطموحاتهم..

ربما يملك الخاسرون ميزة فلسفة الهزيمة، بل صرتُ واثقة بأن الإنسان حين يخسر أحلامه التي تعذّبه بوجوب تحقيقها، عندها فقط يملك أفضل منظور للحياة... وبدأت شيئاً فشيئاً أتحوّل إلى فيلسوفة وأنا أتأمّل هزيمتي، وفراغ حياتي من الأحلام... وأصبتُ بحالة عجيبة مباغتة، حالة أريكتي، إذ إنني طوال الوقت أتفرّج على صور من حياتي تنهمر كمطرٍ أمام عيني... وشخصتُ تلك الحالة بأنني مصابة بثقب في ذاكرتي، أكون جالسة على الشرفة الضيقة أرشف القهوة، وأقزّز اللب الصغير تنهمر صوري تائهة في سوق الألبسة المستعملة، المكان الوحيد الذي أحسّ بالحميمية والحياة فيه، بل إنه المكان الوحيد الذي يشي بالحياة في مدينة البلادة... وكنتُ أحب الباعة رغم قرفي من بعضهم، أحب أن أتأمّلهم دون أن يلحظونني، أحفظ وجوههم وكلماتهم وشتائمهم، تنشأ بيننا حميمية صامتة... أحدهم شاب مربوع القامة نزق، عصبي، بحالة سخط دائم على كل شيء حتى الهواء الذي يتنفّسه، وحين ينادي على بضاعته، ترتجّ الجدران ويخاف الزبائن أن يصابوا بالصمم، كنتُ واثقة أن صراخه المدوي ليس سوى تعبير عن قهره المزمن، وكانت لديه عادة مقرفة وهي البُصاق، ولاحظتُ أنه يبالغ في بصاقه كلما احتشد الزبائن أكثر على البسطة التي يفرد عليها بضاعته، رغبت مراراً أن أوبّخه على هذه العادة البشعة المقرفة، لكني فضّلت أن أتركه كنموذج مثالي لإنسان مقهور يعيش يومه واقفاً بجانب بَسطة تفوح منها رائحة الألبسة

المستعملة، ليقبض عمولة تافهة على كل قطعة لباس يبيعها. إنه يبصق على هذا الزمن الذي جعله رقاً، رغم أنه حاصل على شهادة معهد متوسط!

كنتُ أحب أن أتخيّله كيف يعود مساءً إلى بيته وفي جيبه القليل من المال، وأتخيّل أوجاع قدميه وهو واقف لأكثر من عشر ساعات، ينادي على بضاعته، متحمّلاً البرد، والحر، ونزق الزبائن وتضجرهم وإلحاحهم كي يخفض السعر...

أكيد هناك ثقب في ذاكرتي، وإلّا ما معنى أني لا أتوقّف عن تأمل انهمار تلك الصور الدائم أمام نظري... لكن لماذا تجرحني التفاهة لهذه الدرجة، لماذا أحسّ بطعنة ألم حين أتخيّل وأتأمّل أيامنا الغارقة في التفاهة، وأتفرّج على حياة الناس الوضيعة، وأقارنها بحياة هؤلاء الذين نراهم على الشاشة، هل أنسى ذلك العصر كنتُ عائدة محملة بكنزات من سوق الألبسة المستعملة، وشعرت بالانفراج النفسي لأن أمي لم تكن في البيت، خبّأت الكنزات، واسترخيت أمام شاشة التلفاز وبالصدفة حضرتُ برنامجاً عن برشلونة ومتاحفها ومقاهيها، والحياة فيها، وتأمّلت هؤلاء البشر الذين بدوا هابطين من كوكب آخر، وهم يختارون المأكولات البحرية الشهية والمقبلات اللذيذة ويأكلونها، ثم يذهبون إلى المرقص ويرقصون، تأمّلت وجوههم المنشرحة، وثيابهم الحلوة، وشعرتُ كيف تتفجّر الحياة هناك... وكيف تجمدني البلادة والموت... يومها قمت بكل هدوء، أطفأت التلفاز، وحقنتُ نفسي بإبرة؟اليوم وخلال ثواني غرقتُ في رحمة الغيبوبة.

• • •

ما الذي يجعل صوراً من حياتي تنهمر بهذه الغزارة أمام عيني،

صور تنهمر بلا ترتيب وبغزارة، والأهم بوضوح تام وطزاجة، ما عدتُ أعيش الحاضر، بل أشعر أني منهمكة ولاهثة لتأمل هذه الصور... لماذا تحاصرني وتلتمع أمامي؟! لماذا لم تهاجمني من قبل؟ هل السبب إحساسي بالهزيمة واللاجدوى، وأن حياتي لن تتغيّر، بل سأظل أعيش هذا اليوم الأبدي، محنّطة بين والدين، كما لو أني محبوسة بين قوسين، وقلبي يرتعش بهوى حب ابني الذي أتمنّى له مستقبلاً رائعاً؟ لا أملك سوى التمنيات، وأعرف بحدسي أن عمري سيمرّ بالتفاهة ذاتها والأحلام المجهضة نفسها... لكن ما يدهشني أن هذه الصور أكانت محزنة أم مفرحة، فحين أستعيدها يجتاحني رعب! ترى لماذا يتفتّق الرعب من صور عادية؟! ما هو الشيء المرعب في العادي؟

بيّنت لي حالة انهمار الصور التي أعيشها في وعيي وأمام ناظري، أنه لا يكفي تذكُّر حادثة واستحضارها كي تفهمها، فخلف كل ذكرى أو صورة أعماق مجهولة لا تخطر على بال... وكثيراً ما يكون اكتشاف هذه الأعماق قادراً على تغيير إحساسنا بالحادثة...

أتساءل بعد سنوات من عيشي المشترك مع أهلي، هل كنتُ أستوعب أي نخرٍ مستمر وبطيء يحلّ بروحي؟! هل كنتُ أستوعب كيف تئنّ روحي كل لحظة من انعدام خصوصيتي وحرماني من المساحة اللازمة لحريتي، وإحساسي بذاتي؟! صحيح أنني كنتُ أعيش معهما وأنا بحالة ضيق دائم، لكن لم أتوقع أن هذا الضيق - رغم نوب الغضب الكاسح التي تتخلّله - سوف تعطّل إلى حدّ بعيد نموي الروحي والوجداني، وأنني بدل أن أوظّف طاقاتي وإمكانياتي الذهنية والعاطفية لبلورة شخصيتي وتحقيق ما خُلقت له، فقد هدرتُ طاقاتي في الغيظ والقهر والغضب والهروب المستمر من حياتي معهما، كتابعة، كلاجئة أبدية في بيت الأسرة... هدرتُ طاقاتي لكبت مشاعر النقمة المتفاقمة

في روحي... كيف أنسى جنون الغضب الذي اكتسحني حين عدتُ ذات يوم من المشفى والصداع يفجر رأسي، وما إن دخلتُ بيتهما حتى غزتني رائحة صباغ شعر أمي، فاكتسحني غضب مجنون، وعدتُ أدراجي، هبطت الدرج متعثرة بحمم شتائمي، لاعنة القدر والزمن، والشمس والليل، والأهل، والعمل... وهمتُ في الشوارع محدقة بعينين صلّبهما الغضب بما حولي، إلى أن هدّني الإعياء، وعدتُ إلى حظيرة الأسرة.

أفهمني مطر الصور كيف كنتُ أبدأ يومي، أفتح باب غرفتي عارفة سلفاً أن أول وجهين سأراهما هما وجهاهما الأبديان، وأكون محظوظة لو لم يكونا في المطبخ عندها يمكنني أن أحضر قهوتي بروية وهدوء، وكم من المرات هويتُ في إحباط شديد وأنا أراهما متجاورين في المطبخ منهمكين في جبل تلّة من القريشة، وتحويلها إلى أقراص، ثم تشميسها وتغيير أوراق الجرائد المبتلة تحتها، أو وهما مقرفصين أو جالسين على كرسيين ينزعان النوى من تلّة من ثمار المشمش... كان فضائي مستباحاً بحضورهما دوماً، أحسّهما يسكنان الهواء الذي أتنفسه، كما لو أني أتنفس الهواء الخارج من رئتيهما...

كم أحسّ بالأسى والخزي حين أتذكر ذلك اليوم الذي قرّرا فيه بعد تردُّد طويل أن يقضيا بضعة أيام في بيت ريفي لأحد أصدقائهما، أصابتني حالة من هياج الفرح، لم أصدّق أني وحدي، رتّبتُ البيت، وأخفيت آثارهما وأغراضهما، وأغلقتُ باب غرفتهما، كنتُ ألبس قميصاً شفافاً فوق نهدي الحُرّين من الحمّالة، التي كنتُ ألبسها دائماً خجلاً من أبي... ووجدتُ نفسي أدندن بصوتٍ يزقزق من الفرح بأغنية عبد الحليم حافظ: افرح واملأ الدنيا أماني لا أنا ولا أنت حنمشي ثاني... كانت هذه الأغنية تعبّر تماماً عن شعوري بالبهجة والسعادة لحرّيتي المباغتة، أردتُ أن أحتفي بحريتي، وطوال الوقت ظلّ وجهي يعكس ابتسامة

عريضة، ولم أسمح لطعنة الألم المباغتة التي خرقت قلبي لتذكّرني أن سنوات شبابي تُهدر وأنا سجينة بيت الأسرة بأن تنكّد بهجتي... فكّرتُ لو كنتُ عاشقة لدعوت عشيقي لزيارتي، ولشربنا نبيذاً وتبادلنا غزلاً لا أعرفه إلّا في الخيال...

أردت أن أحتفل بحريتي، أشعلتُ سيجارة واخترت موسيقى هادئة، وجلست وقد انحسر قميص نومي عن فخذيَّ اللذين أدهشاني باكتنازهما الجميل، بدوا غريبين عني، تحسّستهما وأنا أتساءل: كيف ينسى الإنسان جسده... وأحسستُ بالشفقة على جسدي المهمل المَنسي... ولم أعرف هل كان عليَّ أن أفرح لأني اكتشفت أن جسدي لا يزال جميلاً شاباً ومتناسقاً، أم أحزن لأنني نسيته بسبب مشاعري المختلطة دوماً بالقهر والضيق، تابعتُ دخان السيجارة المتبدّد ساحباً معه كل توتر وغضب من روحي، وشعرتُ كم غدوت خفيفة وحرة ورشيقة كفراشة، لكن لم أعرف أن الدخان يعدّ لي كميناً وأنه استقرّ هناك في زاوية الصالون البعيدة، حيث نشرا صورهما على طاولة صغيرة... صورهما بالأبيض والأسود، وصور بالألوان، لأبي وأمي متجاورين، ومبتسمين نصف ابتسامة، ومحدقين بنظرة ثابتة جامدة في الكاميرا...

حدّقت بالصور بغضب، وقمت أعاقبها وأجعلها بمواجهة الحائط، كي أعفي نفسي من نظراتهما، وبرطمت بشتائم فاحشة وأنا أختم حفلة السباب بعبارة، حتى حين تغادران هذا البيت، تتركان صوركما لتنتهك حرّيتي...

لكن للأسف لم أعد قادرة على الاستمتاع بحرّيتي وبالنبيذ والدخان... خرجت إلى الشرفة الضيقة أتأمّل الزقاق القذر، وضجيج المذياع والتلفاز المنطلق من بيوت الجيران المتلاصقة يصمّ أذني، فكّرتُ كم هي رديئة الحياة في هذا البلد، وعبرت ذهني صور بديعة يعرضها

التلفاز، لمدن وأماكن وبشر، كأنهم يعيشون في كوكب آخر... لم أكن أملك سوى التنهد والتحسّر على عمري، وعلى قدري... لكن لا يزال في قلب كياني بذرة صغيرة متحدّية ومتمرّدة، إنها بذرة الأمل، التي تهمس لي أن لا شيء يبقى على حاله، وبأن التغير لا بدّ حاصل.

لم أعرف يوماً معنى الاسترخاء، هذا الشعور اللذيذ العذب الناجم عن الرضى ولأني لم أكن راضية إطلاقاً عن حياتي فقد ظلّ الغضب يعربد داخل كياني الضئيل... يكاد لا يمرّ يوم إلّا وأتذكّر ما سميته يوم تجلي الألم، ولا أعرف إن كانت السخرية تشفّ من هذا العنوان، كان اليوم الأول من عيد الأضحى أحسستُ أنني مُحاصرة بوجودهما، فأمامي أربعة أيام عطلة يليها يوما الجمعة والسبت... ما إن فتحتُ عيني صباح يوم العيد، حتى أحسست ببلاطة ثقيلة ترزح على صدري وأنا أتساءل أين المَفر، عرفتُ سلفاً أن وجودهما سيصلبني ستة أيام، وجهاهما يعنيان لي فشلي في الاستقلالية، يعنيان لي مستقبلي، ذهابي إلى العمل كان يريحني لساعات من إحساسي الدائم بوجودهما، فهما يسكنان تلافيف دماغي، وكنتُ أتقصّد أن أعود للمنزل وقت قيلولتهما، كي يعفيني النوم من عيونهما المراقبة، كلانا ضحية، وكلانا سجّان، أنا أراقبهما وهما يراقباني... فنحن يتشارك أشخاص زنزانة واحدة يضطرّون لمراقبة بعضهم البعض...

لذا أحسستُ برعب الأيام الستة الماطرة والباردة، يا إلهي أين سأفرّ وليس في حقيبتي قرش واحد؟ ليس باستطاعتي أن أقصد المقاهي وأنا مفلسة هكذا... سخرتُ من نفسي وأنا أتخيّل كيف سأعصر دماغي لأجد سبيلاً لأفرّ من بينهما... لكن خيالي عذبني إذ صوّرني أتأرجح بين أم وأب أقصد بين ضيق واختناق.

فتحتُ باب قفصي وخرجت، صفعني جعير مذياع أبي المتزاوج مع

جمير تلفاز أمي، بدوا سعيدين، لأن برامج التلفزيون متنوّعة وغنيّة في العيد، لكن أول مشهد صفعني حين تقدّمت خطوات في الممر الضيق، حذاء أبي الملمّع يحمله بيد مرتعشة فرز خيالي للتو صورة حذائه فوق رأسي، لم نكن نتبادل تحية الصباح، كنا نضطرّ لتبادل نظرة عابرة كأنها صفارة إنذار تعلن أن عيشنا المشترك قد بدأ. اتّجهتُ إلى المطبخ بالوجه المتجهّم ذاته لأعدّ القهوة، ويبدو أن العاصفة في الخارج قد شملت المطبخ أيضاً، لأني فوجئت بأمي وقد فتحت كل خزن المطبخ وأخرجت محتوياتها ولم تبقَ زاوية إلّا واختنقت بالأغراض...

سألتها بجفاء: ماذا تفعلين؟

ردّت بصوتٍ متحمّس ونشيط: كما ترين، الخزن بحاجة لتنظيف، ويجب أن نرشّ داخلها الدواء القاتل للصراصير...

- الا يخطر لك تنظيف الخزن إلّا في أول يوم من أيام العيد؟

ردّت بسخرية صريحة: ومتى تريدين أن أنظّفها؟!

اخترق قلبي حنق لا يوصف، وبيدٍ مرتعشة من الغضب وضعتُ الدورق على النار وأنا أحاول تهدئة نفسي وتذكيرها أنه يفضل أن تمر أيام العطلة على خير، ولا داعي للشجار معهما... لكن بعد ثوانٍ خنقتني رائحة مبيد الصراصير، فانفجرت دون إرادة مني في الكلام، وقلتُ: الله يلعن هذا الصباح، عادة الناس يرشّون مبيد الحشرات ليلاً، أو حين يكونون خارج المنزل، وليس منذ الصباح الباكر، ويبدو أن لهجة التحدّي والغضب في صوتي قد استفزّتها، فردّت بنزق وتحدٍّ: والله أنا حرّة في بيتي.

أخرجتني هذه العبارة فوراً عن طوري، أتراها تقدّر مدى الألم والإهانة اللذين تلحقهما بي هذه العبارة، فتقصّدت أن تقولها؟! الا تعني أني مهمّشة، ولا رأي لي ولا حق لي في التصرف بحرية في بيتها؟! الا

تعني أنها تؤويني في بيتها وبإمكانها طردي لو رغبت؟! أيعقل أن ترغب أم بتجريح ابنتها بتلك الطريقة؟!

لم أستطع لجم نفسي والسيطرة على انفعالي، وأظن أن تحكُّمي بردود فعلي صار ضعيفاً جداً، وربما بسبب الغضب المكبوت المديد، أو بسبب إدماني على المنومات والمهدئات، وأيضاً بسبب الحرمان العاطفي والجنسي المديد..

فانفجرتُ في وجهها بصوتٍ كالقصف: طظ في هذا البيت، كفاك تمنناً لي.

ردّت بقرف: تفو على كلامك الوقح، لا أحد يطلب منك أن تشتغلي و...

قاطعتها: لا داعي للطلب، لأني أنظّف، وأمسح، وأجلي، وأكوي، افرحي بسرّك لديك خادمة مجانية.

- بل نحن من نخدمك، لديك غرفة رائعة تؤويك وابنك، وصديقاتك يزرنك و...

بلغ توتري ذروته فقاطعتها: طظ في هذه الغرفة المختنقة بالأغراض التي عمرها أكثر من مئة عام، أتعرفين، أكوام اللحف فوق ظهر الخزانة تثقل على قلبي كوجودكما تماماً.

ردّت: اخرسي، أنت قليلة الأدب فعلاً، جاحدة وناكرة للجميل...

رددتُ بصراخ طغى على قصف الرعد في الخارج: يلعن أبوها الحياة، والله عيشة الكلاب أحسن من عيشتي.

اندلقت القهوة، تركتها، أسرعت ألبس ثيابي بسرعة جنونية، وأنا أنفلت بشتائم لاذعة، ودون تفكير رميت ثيابي المعلقة بجانب ثيابها في الخزانة أرضاً، عقصت شعري دون أن أمشطه، فتحت العلبة البلاستيكية الصغيرة التي أخبّئ بها المال إن كان موجوداً، لم يكن معي قرش

واحد، لكني لم أتردّد أن آخذ الخاتم الذهبي الوحيد الذي أملكه، وخرجتُ من البيت وأنا أشكر الله أن ابني نائم عند جارتنا أم وهيب الأرملة الشابة، والأم المتيّمة حباً بابنها المماثل لابني في السن.

مشيت في الشارع الذي تحوّل بلحظات إلى نهر بسبب المطر الغزير، ولم أبالِ بالعاصفة التي كانت تصفع وجتي بقسوة وتدفع الدموع من عيني... كنتُ أبحث بإصرار عن صائغ يفتح دكانه يوم العيد، ومراراً كادت المظلة تطير من يدي وانقلبت عدة مرات، لكني تشبّثتُ بها براحتيّ بقوة.

لا أحد في الشارع، بحثت عيناي برجاء عن شخص أستمدّ منه بعض العزاء، وبعد تفتيشي لمحتُ عامل التنظيفات، فأحسستُ بحنان غامر تجاهه نظرتُ في ساعتي، يا إلهي الوقت مبكر، الثامنة والنصف، بالتأكيد كل المقاهي مغلقة، بكيتُ من القهر وأنا أعي أية بداية كارثية لعطلة العيد، وفكّرتُ بذعر كيف ستمرّ الأيام الستة؟!

وحيدة وبائسة تحت مظلة تقاوم عاصفة شرسة، شاعرة أن الطبيعة ذاتها ضدي وجدتني أحتمي بمدخل عمارة على الهيكل، أتفرّج على سيل المطر ولا أعرف لماذا رغبتُ أن أتخيّل أن هذا السيل هو دموع النساء الحزينات، ورغم مأساوية وضعي فقد أحسستُ بشيء من بهجة وسلام حين تخيّلتُ أن هذا السيل الجارف سيغسل مَللي وكآبتي... تلمّست الخاتم الوحيد والجميل في جيب معطفي، أطرقت بحزن وتساءلت هل سأبيعه حقاً؟! إنه قطعة الذهب الوحيدة التي أملكها... لكن ألستُ مضطرة لبيعه فليس معي قرش واحد.

وكما لو أنني أعي للمرة الأولى حقارة الراتب ولا إنسانيته، ياه أي ذل هذا، أي ذل! لو كان راتبي معقولاً أما تمكّنتُ من استئجار بيت صغير يؤويني وابني، وأنا المطلّقة التي أعيش مع أهلي، بالكاد يكفي

راتبي ثمن طعام لي ولابني؟!

تذكّرتُ حين أخذت قرضاً على راتبي، كي أدفع لطبيب الأسنان ثمن أربع تلبيسات سيراميك لأن وضع أضراسي مزري... يومها حلّقتُ في سماء الجنون وأنا أصرخ بهستريا أخافت كل من حولي: هل يعقل يا جماعة أن ثمن تلبيسة سيراميك واحدة يعادل راتبي عن شهر!

كان سيل المطر يجرف معه كل شيء، مناديل ورقية، أعقاب سجائر، علب كولا... أغمضت عيني وقد أحسستُ بدوار خفيف، واستندت على الجدار وقشعريرة قصيرة هزّت جسدي، أحسستُ أن داخلي فراغ فراغ، تحول فيه مشاعر الذل والخوف وأن إحساسي بكرامتي مات تماماً.

تذكّرت كم بكيت بحرقة وقهر بعد أن دفعتُ لطبيب رواتبي عن أربعة أشهر ليصنع لي أربعة تلبيسات سيراميك! ازداد قصف الرعد، وصار المطر مجنوناً أشبه بوشاح كثيف يعيق الرؤية، وجدتني أنفجر ببكاء يشبه التفجّع على حياتي كلها كم أنا بائسة ومذلولة ومتألمة، روحي ملوّثة بالغضب والرفض دوماً... فكّرتُ وأنا أراقب السيل الجارف، وقصف الرعد يصمّ أذني، أن مشكلتي الرئيسية أنني أتفرّج كيف تذوي أعماقي شيئاً فشيئاً رغم صراعي المستميت لأحافظ على أناقة روحي وإحساسي بكرامتي... وإن ذلك الحصان الجامح المتوثّب في أعماقي قد هدّه الصراع من أجل الانطلاق في مروج الحرية، لكن الرسن الحديدي الذي يربطه، قد أوهن عضلاته... ارتسم وجه أمي المتعب، أمام نظري، فأحسستُ للحظة بشماتة كونها ستبتلى بتنظيف خزن المطبخ وحدها، كانت تتأمّل أن أساعدها، وبلحظة استحالت شماتتي بها إلى شفقة حقيقية... مسكينة، تذكّرتُ أنها بادرت سحنتي المتجهّمة بابتسامة، وقالت لي وأنا أملأ دورق القهوة بالماء بأنهم سيعرضون فيلم الكرنك

لسعاد حسني ونور الشريف الساعة الثالثة بعد الظهر... لكني لم أتركها تكمل إذ بدأت تصف كلامي عن فوضى المطبخ ومبيد الحشرات الخانق... فكّرتُ أنها لا تفهم لِمَ أنا تعبة معهما؟ لِمَ لا أشعر ببهجة حين نتناول الغذاء معاً؟ تعتقد أنها وأبي يؤوياني ولا يبخلا عليّ بشيء، ويربيان ابني. لِمَ يرغب الأبناء بإلقاء المسؤولية على الأهل بكل الحوادث التي يتعرّضون لها!

أحسستُ بانحطاط جسدي مفاجئ، عرفتُ أنه بسبب التأثير الجانبي للمنوّم الذي أدمته، أحياناً أتمنّى الموت بصدق ولا أعرف إن كان هذا الشعور جدياً تماماً... خرجت من مدخل البناية بعد أن خفّ غضب السماء ومشيت على الرصيف بحذر ورغم حذري فقد ابتلّ بنطالي حتى الركبة بالماء، إذ كنتُ أغوص في حفرٍ مخفية وكم أحسستُ ببؤسي وأنا أتخيّل أني وحيدة في الشارع، يمناي مندسّة في جيب البنطال تقبض على الخاتم الوحيد الذي أملكه، ويسراي تقبض بقوة على مظلّة تريد الانفلات من قبضتي والطيران مع الريح المجنونة. فكّرتُ لو لم أتشاجر مع أمي لما وجدتُ نفسي مضطرة لبيع الخاتم، لكن كعادتنا حين نتشاجر، أهجّ من البيت لساعات طويلة، وأصبّ نقمتي على الحياة والظروف بشخصها أو بشخص أبي وغالباً لا أعود إلا بساعة متأخرة من الليل، معتقدةً أني أعاقبهما...

في آخر الشارع لمحتُ صائغاً يرتّب الحلي في الواجهة، غاص قلبي من ألم بؤس وضعي وقصدته لأعرض عليه الخاتم ليشتريه، فأجاب ببرود وهو يتثاءب:

- أنا لا أشتري...

لم أتزحزح من مكاني، حدّقتُ بوجهه محاولةً أن أتبيّن إن كان جدّياً حقاً، وأغاظني وجهه الجامد وتثاؤبه الوقح، وجعلتني أقول متجاهلة ردّه:

- أنا مضطرة ليه.

واعتقد أن تلك العبارة لامست قلبه، وأشعرته بمدى ضيقي، فقال وهو يمدّ يده ليتسلّم الخاتم: ياه يا له من عيد، عواصف وأمطار ورعود...

لم أعلّق، بل اصررتُ وسألته: كم يساوي؟

وضع الخاتم في الميزان، وقال: ألفي ليرة.

شهقت غير معقول: لقد اشتريته بثلاثة آلاف منذ سنة.

قال بلامبالاة: قيمة الذهب فيه ألفا ليرة.

فرز خيالي الصورة ذاتها التي أهداني إياها خيالي هذا الصباح حين لمحتُ حذاء أبي الملمّع، وتخيّلته فوق رأسي... لماذا أشعر هذا الصباح أن ثمة حذاء يدوس رأسي؟

همست بصوتٍ ذليل: أنا موافقة.

أعطاني ورقتين نقديتين من فئة الألف ليرة، ورمى الخاتم الجميل في درجه...

مشيت وأنا أشعر بالبرد الرطب يخرق عظامي، وبالصداع يفجّر دروز جمجمتي، تمنّيتُ لو أعود إلى البيت وأتدثّر بلحافي، وأغطّي رأسي كعادتي حين أنام، ويداي تتلمّس تحت المخدة متلمّسة الأيقونة الخشبية التي أستمدّ منها العزاء منذ عشرين عاماً... أيقونة تبلسم خياناتي دوماً وتؤكّد لي أن المستقبل أفضل... لم أكن متديّنة يوماً لكني أعجز عن الاسترخاء والإحساس بالأمان إن لم ألامس هذه الأيقونة التي تمثّل العذراء مع ابنها يسوع المسيح... كانت هدية من جدتي حين كنتُ في العاشرة، أذكر يومها كيف احتضنتني وقالت: ضعيها تحت المخدة ستحرسك.

سألتها: مِمّ؟

ردّت بثقة: من كل الشرور.

بحثتُ في حقيبتي عن دواء مضاد للصداع، لم أجد، عليّ أن أقصد صيدلية لأشتريه وجدتني أطلب من الصيدلي أن يعطيني دواءً مهدئاً وآخر مضاداً للصداع، فكّرتُ أن أكثر ما أخشاه هو أن أنقطع من الدواء المهدّئ والمنوّم، فالحياة في هذا البلد مستحيلة دون تخدير متواصل للمشاعر... فرحتُ بهذا الاستنتاج الذي بدا كاكتشاف وتبعته بتعليق أدق، والأهم تخدير للأفكار...

مسكنٌ للأفكار والمشاعر، ضحكتُ بعمق من أعماق قلبي، ونبّهني تقلص عضلات وجهي القصير، كم يظل وجهي متجهّماً، عاودتني شفقة حنونة ولطيفة تجاه أهلي، مساكين فأنا لا أبتسم في وجههما أبداً... مسكينة أمي ستشعر بألم شديد في ظهرها آخر النهار حين تنتهي من تنظيف خزن المطبخ، سيتناولان غداءهما وحيدين وخيبة أمل مزمنة تغلّف مشاعرهما، فكّرت كم هما مظلومين بوجود ابنة نزقة ومتمرّدة لا تطيق الحياة في هذا البلد، وتنشر سموم رفضها وتذمّرها في جو بيتهما!

داهمني إحساس قوي بالنعاس، وللوهلة انفلتت رغبة دفينة من أعماقي بأني أرغب بالموت وليس بالنوم، كنتُ أعصر الألفي ليرة في قبضتي شاعرة بذلّ لا يحتمل، واكزّ على أسناني وأنا أكرّر بغضب عبارة (عيشة الكلاب)... التي تلخّص أجمل تلخيص تقييمي للحياة في هذا البلد...

أوقفت تاكسي ليوصلني إلى مقهى بحري، أبدى السائق دهشته وقال:

- رغم العاصفة ترغبين بالذهاب إلى البحر.

رددتُ بجفاء واضح: هذا أمر يخصّني.

آذته لهجتي الجافة فقال: كل عام وأنت بخير، الصباح رباح يا

ابنتي، واليوم عيد آسف لم أقصد إزعاجك.

انهمرت دموعي، ليس لأن كلماته الصادقة لامست شغاف قلبي، بل لأنها أشعرتني بمدى التجهّم الفظيع في روحي، بإه عليّ أن أوقف هذه الأفكار والمشاعر المسمومة في داخلي، اللعنة عليّ، اللعنة على إنسانة مثلي، أسمّم نفسي بنفسي ملعونة أنا... عليّ أن أحارب نفسي وتلك الأفكار الهدّامة التي تنهشني... وإلّا سأصل إلى الجنون أو الانهيار العصبي قريباً...

استقبلني عاملا تنظيفات بدهشة، كانا يمسحان أرض المطعم التي غمرها ماء المطر المتسلّل من النوافذ... المكان غير مؤهل بعد لاستقبال الزبائن، وأظنهما خمّنا أن شجاراً دفعني للهروب من المنزل منذ الصباح الباكر، وكي أبدّد أفكارهما وأغيّر نظرتهما المرتابة، قلتُ لهما متصنّعة مرحاً زائفاً في صوتي:

- أموتُ عشقاً بهذا الطقس، وأجد متعة لا توصف في تأمل البحر الغاضب.

أوحيا لي أنهما صدّقاني، ورتّبا لي طاولة في الزاوية البعيدة من المطعم، واستمرا بعملهما في مسح أرض المطعم، لو يعرفا كم يعطيني وجودهما دفئاً وأماناً...

ومن خلال نظارتي الشمسية تأمّلتهما بحرية، إنهما في عمر واحد كما بدوا لي، لم يتجاوزا العشرين، نحيلان، مكافحان، رائحة الفقر والعوز تفوح منهما، وعلامات نقص النوم والإرهاق مرتسمة على وجهيهما الوسيمين، وأحدهما لديه حب شباب بحالة مزرية.

تساءلت: أي مستقبل ينتظرهما؟...

كنتُ أنقل نظري بين البحر الهائج المجنون وهو يصفع صخور الشاطئ بوحشية... وبدا لي الموج الهائج المضطرب صورة لأعماقي

العكرة الساخطة دوماً... وعيتُ تلك الطاقة الجبارة في داخلي، طاقة خام لا أتبيّن طبيعتها بدقة، لكنها محبوسة في قمقم، ربما هذا ما يجعلني عصبية لحدّ الجنون... ووعيتُ أنني أنتظر انبعاثاً هائلاً وحيوياً لتلك الطاقات المحبوسة في أعماقي، لكن هذا الانبعاث لا يتحقّق لأنه يصطدم دوماً بجدران تعيقه، ويتحطّم كما يتحطّم الموج على صخور الشاطئ...

خنقت حلقة حديد حنجرتي، فيما ذهني مضاء بنور الحقيقة، بتلك الرؤية الكاشفة مثل برق يشق سماء ملبّدة بالغيوم... أدركتُ أن جوهر مشكلتي هو الخواء الرهيب في حياتنا، ذلك الخواء الذي يبتلع الناس... وأن المأساة تكمن أن الناس لا يعرفون أية حياة تافهة يعيشون...

شعرتُ بهزّة قوية تعبر جسدي، إنها صدمة الحقيقة، فأنا أعي بؤس الحياة وتفاهتها، أعي الفساد في كل مكان، في القضاء، والتعليم، والمشفى الحقير الذي أعمل فيه.

طنّت أذني بأحاديث الناس المتدفقة إلى ما لانهاية في سرد قصص الفساد، وفضح اللصوص الذين نسعى لننال رضاهم كي يكفّوا شرهم عنا...

ملأني البحر الغاضب ذو الكرامة بإحساسات قوية، لن أستسلم لهذا الزمن الفاسد سأموت واقفة...

ساعتان وأنا أتأمّل البحر الهائج الذي كان صدى مشاعري... وبعدها غرقتُ في نعاس لذيذ لذيذ... يا للاسترخاء الناعم الذي يعقب جموح المشاعر الصاخبة... متهاوية فوق مقعد من قش في مقهى لا يزال نائماً، تساءلت من أعماق كياني: لِمَ أنا ناقمة إلى هذا الحدّ؟ غمرني حنان صامت وخجول... وشعرت بحب لا يوصف لوالديّ.

اقترب مني النادل الذي ينضح وجهه بالعرق رغم البرد الشديد، سألني ماذا أطلب وهو يمسح يديه المتورمتين من البرد، الرطبتين والحمراوين بمريلة زرقاء مبتلة... نظرتُ إليه بعطف وقلتُ له: الله يعطيك العافية.

ردَّ: الله يعافيك...

سألته عن اسمه وعمره، كنتُ راغبة بحديث إنساني دافئ، قال إنه في الثانية والعشرين واسمه سليم وبأنه متخرّج حديثاً من المعهد الطبي، ولم يجد وظيفة.

طلبت شاياً، فعاد بعد دقائق يحمل بين يديه صينية شاي معدنية صغيرة، ووضع أمامي كأس الشاي، وعلبة السكر...

ناديته: سليم هل أنتَ راضٍ عن عملك هنا، ألا تشعر بالظلم لأنك لم تجد وظيفة.

ضحك بلامبالاة وهو يبتعد: هذا هو الموجود.

تكرّرت صدى عبارته طويلاً في ذهني، حتى أحسستُ أن هذه العبارة طالعة من قلبي وللحظة توحّدتُ مع سليم، كلانا خسر أحلامه، بدا لي البحر الهائج الذي بدّل لونه من الفضي المزرق إلى الأخضر هو الحياة عينها، تعلّق نظري بالماء المضطرب والزبد الطموح والمهتاج الذي يلطم زجاج النوافذ، فكّرتُ أني أعيش دوماً مع شعور أن الحياة تسير بمحاذاتي، كما لو أنها بحر لا أستطيع أن أرمي جسدي فيه، ليس لخوفي من الغرق، بل لأني معاقة، لأن البحر هو قلب الحياة النابض، وأنا مجرد قربة مثقوبة ليس لي كيان ولا كثافة، أقاوم التقهقر والانحدار، لديّ خوف دائم أن أستسلم لنمط الحياة السخيف التافه هنا، أخاف أن أفقد تمرّد روحي، أنا أشبه آلة معطلة، وإلّا ما تفسير إحساسي الدائم بالغضب المكبوت وعدم الرضى، اعترفتُ أني إنسانة

مهزومة، وللمرة الأولى لم يجرحني هذا الاعتراف، بل على العكس أراحني كما لو أنني وصلتُ شاطئ الأمان.

يا لفظاعة هذا الصباح، ابتلعت حبتي سيتامول، وأغوتني علبة الدواء المهدّئ أن أبتلع حبة، أحطتُ كأس الشاي الساخن براحتي فسرى دفء لذيذ في جسدي وخلال دقائق سرى خدر لذيذ في أطرافي، لم تعد حياتي ممكنة دون مهدّئ، شربتُ الشاي، وأغمضتُ عيني معطية روحي للبحر الفاتن بجواري تبدّدت كل سموم روحي، وغرقت في شبه غيبوبة، أيقظني صراخ طفل، فتحتُ عيني، لقد بدأ الناس يتوافدون إلى المقهى، دفعت الحساب ومشيت كالمخدّرة، وحين هممتُ أن أصعد الدرجات القليلة التي توصلني إلى الشارع، كدتُ أهوي، ولولا إمساكي بالدرابزين الحديدي لسقطت، غاص قلبي بالألم والندم على الخاتم الوحيد الجميل الذي بعته ولعنتُ الساعة التي دخلتُ دكان الصائغ، وحين دخلتُ حظيرة الأسرة وجدتهما كما رسمهما خيالي تماماً يتناولان غداءهما قليل الحريرات، ويتفرّجان على فيلم عربي بالأبيض والأسود من أفلام أيام زمان... لم يسألاني أين كنتُ والعاصفة ترعب الطبيعة والبشر، ولم أبادرهما بالتحية - كالعادة - مشيت مترنحة إلى غرفتي المختنقة بأغراضهما والمشبعة بأنفاسهما واستسلمت لرحمة النوم.

• • •

هل كانت مصادفة ملغّزة أن يتوافق يوم استلام إيمان لعلب أدوات الجراحة العصبية والعظمية مع يوم تعيّنها كرئيسة للعمليات... لم تستطع تجاهل تلك الفكرة بأن هذا التزامن ذو دلالة، قد تتكشّف فيما بعد... فَرَدَ رئيس لجنة شراء الأدوات الطبية الأوراق أمامها، وقدّم لها قلماً لتوقّع على الاستلام، فتحت العلب وأخذت تعدّ القطع قطعة قطعة ثم

توقّع على الورقة المتطابقة مع عدد القطع... شعرت أنها تمثّل الدور تماماً، فلم تكن عفوية أبداً، طوال الوقت ظلّ وجه قاسم بقسماته الجامدة الفظة ماثلاً في خيالها، ومرتسماً فوق كل أداة جراحية تلمسها، كانت ترى بعين خيالها المرحلة القادمة، سوف تسرق القطع التي طلبها منها قاسم وستقبض الثمن... بل شعرت حين انتهت من توقيع أوراق الاستلام أنها دشّنت عصراً جديداً في حياتها عصر الرشوة، وأنها علقت وسام انتمائها إلى هذا العصر، تحديداً وسام عيشها في هذا البلد...

بعد انصراف رئيس لجنة الشراء، وجدت نفسها بحالة اضطراب شديدة، لدرجة تسارعت أنفاسها، وأحسّت بضيق وحالة من نفاذ صبر غريبة، جلست على كرسيها الدوّار الجديد من الجلد الاصطناعي البني، وأخذت تدوّره يميناً وشمالاً، محاولة أن تهدّئ مشاعرها، كانت تفكّر بأن الرشوة حتمية في هذا البلد، ولا مفرّ منها، بل إنها مصيرها المؤكد... كيف ستعيش إن لم تقم بهذه الممارسات، بل إنها محظوظة حين سلّموها منصب رئيسة قسم العمليات، كثيرات من الممرضات لا تسمح لهن ظروفهن بالسرقة، أما هي، فكل أدوات العمليات تحت تصرّفها، ويمكنها سحب أداة من هذه العلبة، وأخرى من العلبة الأخرى، ولن يشعر أحد بفقدانها، فالطاسة ضايعة في هذه المشفى البائسة... تذكّرت كم صارت مبدعة في تقمص شخصيتها كمرنشية، فذات يوم، وكانت غرف العمليات الأربعة مشغولة بعمليات متنوعة والجناح يعجّ بالأطباء والممرضات والإداريين، أسقطت عمداً مقصاً في سلة النفايات في إحدى غرف العمليات، ثم تظاهرت بعد ساعة أنها تقوم بجولة على الغرف بعد أن وضعت قبعة قماشية على رأسها وكمّامة على فمها، ولبست خفاً قماشياً في قدميها، تجوّلت في الغرف، وتظاهرت أنها تتفقّد الأدوات، وسير العمل وكم أحسّت بمتعة ونشوة

حين صرخت وهي تخرج المقص من علبة النفايات، ما هذا ما هذا الإهمال، كيف ترمون هذا المقص الثمين في سلة النفايات...

كانت مُقنعة ومتقنة لدورها، لدرجة كادت تنسى كذبتها وتصدق أن ثمة إهمالاً ما وبالفعل ظلّت إيمان حديث المشفى لأيام عن هوسها بعملها ودقتها في عدّ الأدوات الجراحية...

تدور على كرسيها يميناً ويساراً محاولة تهدئة اضطرابها... أتراها خائفة، هل يمكن أن تقع في الفخ وتكتشف أنها تسرق الأدوات الجراحية؟! لكنها واحدة من عصابة، بل إنها أصغر طرف في هذه العصابة، فهناك أطباء مشهورون، وإداريون ولجان شراء، وسماسرة لا تعرفهم، لكنها شعرت في تلك اللحظة أن حياتها أشبه بدَرَج عليها أن تصعده درجة درجة، وفي نهاية الدرج هاوية ستسقط فيها... إن روحها التي لم تتعوّد التلوث بعد، تشعر بالسّم، ويؤلمها كيف أن إيمان تزجّ نفسها في الفساد ونهب المال العام... حاولت تهدئة روحها المضطربة، بأن تتخيّل اللحظة التي ستقبض فيها المال، الكثير من المال أضعاف أضعاف راتبها، وسيمكنها أن تشتري أشياء رائعة لها ولابنها، وسيكون بإمكانها أن تشترك في الجمعية السكنية للمعلمين وتدفع الأقساط شهراً بعد شهر، وبعد سنوات ستكون مالكة لبيت صغير جميل، يمكنها أن تعيش فيه مع ابنها... يا سلام، وحدها هذه الصورة تجعل أعصابها تسترخي، صورتها مع ابنها يعيشان في بيت أنيق.

لكن ثمة شعور غامض يعكّر روحها، ويفند كل الحجج التي تحشدها لإقناع نفسها أنها لا تقوم بجريمة، وأن اختفاء عدّة أدوات من هذه العلب لن يعيق العمل لأن كل أداة لها ثلاثة أو أربعة أمثال مطابقة لها تماماً، إذاً لا داعي للخوف يا إيمان فأنت لا تؤذين المصلحة العامة، والعمليات ستستمر، ثم إنك مظلومة، وراتبك حقير وتافه ولا

يكفي لعيش بوفر الحدّ الأدنى من الكرامة، فأي ضير أن تسحبي عدة أدوات من هذه العلب وتقبضين الثمن؟...

منطق سليم بل إنساني وعادل، لكن ما بها متعكّرة؟ لماذا هي كئيبة إلى هذا الحدّ؟ تلك الكآبة التي تغلّفها ككفن، وتمنعها من الابتسام... إنها تعرف أعماقها جيداً، فحين تفقد القدرة على الابتسام هذا يعني أن هناك خللاً ما في حياتها...

لكنها من النوع الذي يعجز عن خداع نفسه، ورغم كل الحجج التي ساقتها لإقناع ضميرها أنها مضطرة لهذا السلوك كي تحسّن حياتها وحياة ابنها، ففي أعماقها إحساس جريء متحدّ بأنها تحتقر ذاتها، أنها لا تحترم تلك الإنسانة التي تصيرها وتقارن نفسها بزميلاتها نظيفات اليد فتشعر بالدونية والخجل.

أكثر ما يؤلمها ليس الخوف من أن تكشف وتسقط في الفخ، بل لإحساسها أنها عَبدة لهذا الزمن، وأنه أقوى منها، وقادر أن يكسر إرادتها، ويحشرها في زاوية ضيقة حيث تعجز عن المقاومة، وبأنه قادر على تحويلها إلى لصة ومرتشية، لأن الإنسان في هذا البلد أمامه خياران لا ثالث لهما إما أن يكون سارقاً أو مسروقاً، ظالماً أو مظلوماً... لصاً أو متسولاً...

احتاجت لزمن كي تعوّد على شخصية المرتشية واللصة التي تحوّل إليها في كل عملية سرقة أدوات جراحية أو خيوط أو أدوية تقوم بها، لم تتوقّع أن السلوك يبدّل الشخصية ذلك التبدّل الكبير، ففي اليوم التي تحشو فيه حقيبتها بالمسروقات تعجز عن الاختلاط بالناس، تنزوي وتنخمص في قوقعة معتمة، كما لو أنها تعود جنيناً... ويستحيل أن تجبر نفسها أن تنظر إلى وجهها في المرآة... ذات مرة وبعد أن أعطت خمسين خيطاً جراحياً لقاسم، وقبضت رزمة من المال، وأسرعت إلى

محل الألبسة لتشتري الجاكيت الخمرية الرائعة، وما أن ارتدت الجاكيت واقتربت من المرآة لتفحص أناقتها حتى أحست بذعر، وشعرت أن سرباً من النحل المتوحش العملاق يغزو جسدها وينهش لحمها، كان مجرد النظر إلى وجهها أمراً لا يطاق وتعجز عن احتماله... اشترت الجاكيت غير مبالية بنصائح صاحبة محل الألبسة التي نصحتها أن تأخذ القياس الأكبر... وتظل لأيامٍ بعد قبض المال الحرام عاجزة عن النوم إلّا بتناول جرعة كبيرة من المهدئات مدعومة بكأسين أو ثلاثة من النبيذ... ولكن أكثر ما يؤلمها صغيرها، تفور أشواقها نحوه، ولا تدخل البيت إلّا وتحمل له هدية، وحين تضمّه بين ذراعيها وتتشمّم رائحته التي تسكرها، وتندفع دموع الوجد إلى عينيها تشعر كل مرة أنها تهمس في أذنه الماما لصة، الماما لصة... وتظلّ لأيام طويلة تكرّس نفسها لإضاعة الوقت، يصير الوقت شيئاً صلباً عليها تفتيته، عليها سحقه وإلّا سحقها، تصير نظرتها للحياة إما قاتلة أو مقتولة... وتتفنّن في حشد طاقاتها لتبدّد إحساسها بالنبذ... وتستعجب من مشاعرها، فلا أحد ينبذها، إنها بنظرهم الممرضة الذكية الفذّة ولهذا سلموها رئاسة قسم العمليات، لكنها هي التي تنبذ نفسها...

لكن إحساسها أنها تخدع الجميع كان يؤلمها، أينما نظرت، ومع كل الناس الذين تلتقيهم وتتحدث إليهم، تشعر أنها تخدعهم، وتشعر كأنها تقول لهم: اسمعوا أنا لستُ أنا، أنا لستُ مجرد ممرضة أترأس قسم العمليات، والكل يعاملني باحترام، وأدير العمل بذكاء وخبرة، لكن خلف وجهي الجميل المبتسم هذا، هناك إنسانة مرتشية بلا ضمير، تتسلّل في أروقة غرف العمليات تسرق الخيوط الجراحية والأدوات...

لطالما تساءلت ترى هل يشعر الفاسدون والمرتشون بذلك الانقسام في شخصيتهم؟ هل يتصارعون مع صوت عنيد مدوٍ اسمه صوت الضمير؟

كم هو غريب سلطان الصوت أحياناً أنها تسمع صوت الضمير، تسمعه، وهو يشبه إلى حدٍّ بعيد صوت رجل الدين الذي كانت تتلو في حضرته اعترافاتها وهي مراهقة... كان يضع يده الدائفة على رأسها ويقول لها: مغفورة لك خطاياك... لماذا تتذكّره في كل مرة تقبض المال الحرام... كم تتوق لرؤيته والتحدث إليه لكنه سافر إلى اليونان ليحصل على دكتوراه في اللاهوت...

بعد أن غدت مرتشية صارت تفزع من الليل، ولا تتحمّل الظلام الدامس، بل تحسّ العتمة تفترسها، وترى في قلبها عيوناً جاحظة حمراء تحدّق فيها بكره... عليها أن تدفع ضريبة شخصيتها الجديدة وأن تعتاد على مخاوفها وقلقها، ونوب الذعر التي تنتابها، والكوابيس التي توقظها من عزّ النوم وهي تصوّر لها أشكالاً مختلفة للقبض عليها وزجّها في السجن.

انتفضت مجفلة شاعرة أن قلبها ينخلع من مكانه حين ارتجّ الموبايل في جيبها حبست أنفاسها وقد جفّ حلقها حين رأت على الشاشة الصغيرة لهاتفها رقم قاسم... أغمضت عينيها عساها تهرب من صورته المرتسمة أمام ناظرها دوماً، لكن وجهه محفور في عتمة عينيها.

سألها ببرود: هل استلمتِ؟

لا تفهم التعالي المستمر في تعامله معها، بالكاد يكلمها، متقصّداً الإيجاز.

ردّت: نعم...

قال: أتزورينني غداً...

بل أفضّل بعد أيام، على الأقل ليصير هناك استلام وتسليم بين الممرضات...

ضحك وهو يقول: معك حق، "علّمناك الشطارة، سبقتينا على

الأبواب*.

كم تكرهه، وتتمنّى له الموت، لماذا يتعمّد إذلالها، إنهما متساويان، بنهبان المشفى الحكومي، كلاهما مرتشيان، ومتواطئان مع شلّة تستغل عملها وتتاجر بالأدوات والأجهزة الجراحية... فكّرت بحياتها كما لو أنها تتفرّج على حياة إنسانة أخرى غزاها إحساس طاغ برداءة عيشها، يا لهذه المدينة الأشبه بمقبرة، مدينة يكفّنها الإحباط، مدينة تشعرها طوال الوقت بالاشمئزاز من حياتها، بالخجل لأنها مجبرة على العيش فيها، ولأنها اضطرّت رغماً عنها لتصير فاسدة ولصة... لكن أكثر ما يستفزّها أن الزمن في هذه المدينة أبدي، ليس فيه ذبذبات تغيير ولا نبض حياة زمن يشبه حركة أبدية لا معنى لها تتكرّر إلى ما لانهاية، أشبه بصنبور مياه ينقّط نقطة إثر نقطة، أشبه بحبات مسبحة متماثلة ومتطابقة... أليست أيامها حبات مسبحة؟

ماذا قدّمت لها هذه المدينة سوى فراغ موحش أبدي أشبه بفم غول عملاق يهمّ بابتلاعها، الناس يعيشون في بيوتهم كما تعيش الدجاجات في قفص، مصلوبين أمام شاشة التلفاز، أو مزروعين في المقاهي يدخنون الأركيلة ويمارسون الفعالية الوحيدة التي تشعرهم بوجودهم: الثرثرة... كلام ثم كلام ثم كلام، كلام لا يتمخّض عنه فكرة، ولا يثمر نمواً روحياً، وتوهجاً ذهنياً... مجرد ثرثرة تتكاثر، وتفرقع كحبات البوشار الهشّة...

قامت عن كرسيها وتمشت في رواق العمليات، عليها أن تسلّم الأدوات لممرضة الدوام الليلي، من حسن الحظ أنها ممرضة ساذجة ولديها شيء من بلاهة، غزتها رائحة بشعة في آخر الرواق، كانت حدود الرواق اليسرى تطلّ على سطح واسع لقسم النسائية والتوليد وقد فرش السطح بكوم من القمامة المتنوعة، من فوط نسائية متّسخة بالدم، إلى

بقايا أطعمة وحفاضات للرضع، وعلب أدوية فارغة، وعلب بلاستيكية ومعدنية لمشروبات غازية... غزتها رائحة العفن وأثارت غضبها أكثر من قرفها... كزّت على أسنانها وهي تردّد عبارة مشفى القذارة، توقّفت أمام الواجهة الزجاجية المريضة للرواق، ونظرها يتفحّص تلّة القمامة ببرود واشمئزاز همست لنفسها: مشفى القذارة ليست سوى عيّنة مصغّرة من وطن مريض، من وطن مُنتهك ومنهوب من قبل شلّة تدّعي بناءه وتحديثه... ياه كيف يمكن لها أن تتأقلم مع هذا المشفى الذي تفوح منه رائحة مجرور دوماً؟! هل يمكن لإنسان سوي أن يتأقلم مع هذا الواقع؟ بأي وهم كاذب عليها أن تقنع نفسها أنها ممرضة في مشفى؟ أهذا البناء القذر الفوضوي مشفى؟! وجدت نفسها تتذكّر جنان... غريبة تلك المرأة... كيف طوّرت آلية دفاع ذاتية للتعامل مع الواقع حولها، وذلك بتعطيل إحساسها بما يجري مهما كان مُستفزاً... طالما أثارت جنان غضبها وسخطها وكانت تتّهمها بقلة الإحساس والبرود، وتبلد المشاعر، لكن جنان تضحك ولا تردّ على اتهاماتها، بل تكتفي بضحكة سخرية قصيرة.

تذكّرت ذلك اليوم حين كانت وجنان مفروزتين للعمل في العيادة العينية، إحداهما تساعد الطبيب لفحص المرضى بأن تقيس درجة الرؤية لديهم، والأخرى تسجّل اسم المريض ومرضه، والدواء الذي وُصف له.. حين دخلتا العيادة بوغتتا ببركة ماء على الأرض، وتبيّن أن الماء يرشح من السقف وعبر شق واسع بجانب ضوء النيون مباشرة... وفي الوقت الذي انفجرت إيمان بغضب كاسح، وصرخت تنادي الآذن ليمسح الأرض، وتسرع لتصل بالمدير الإداري للمشفى لتخبره عن الشق في السقف الذي يرشح ماء، وتنبّهه لخطر الحريق لأن الشق بجانب أسلاك الكهرباء... ومما ضاعف جنون إيمان أن الهاتف معطّل... ولم

تستطع الاتصال بالمدير، وجنّ جنونها حين تفرّجت على ردّ فعل جنان، ببرود أحضرت وعاءً بلاستيكياً وضعته أرضاً تحت الشق ليستقبل الماء، وجلست وراء مكتبها تستقبل المرضى، وتسجّل أسماءهم، وتردّ على أسئلتهم بأن الطبيب سيأتي بعد قليل.

- جنان أنت غير طبيعية...

انفلتت هذه العبارة من إيمان وهي تحدّق بها مذهولة من برودها...

سألت جنان بسخرية: ولماذا؟

- ألا ترين المأساة، الماء ترشح قرب أسلاك الكهرباء... وأرض العيادة بركة و...

قاطعتها: ليكن... ماذا يفيد غضبك.

- ماذا يفيد؟ أهذا وضع معقول...

- تجاهليه... قومي بعملك وتجاهلي الواقع حولك...

لم تنجح إيمان أبداً في قراءة أفكار جنان، أتراها حقاً متبلّدة المشاعر، أم أن شيئاً جوهرياً قتل في روحها، لعلها أذكى مما تعتقد إيمان، فهي تعرف أن الغضب والصراخ والشكاوى لن تتمخّض عن شيء، فلتقم بعملها مهما كان الوضع بائساً ولا إنسانياً...

حين دخل الطبيب العيادة العيّنة، انفجر بغضب مجنون ما إن سقط نظره على الوعاء البلاستيكي الذي وضعته جنان على الأرض والماء ينقّط فيه، مصدراً صوتاً رتيباً... فرحت إيمان لغضبه خاصة وهو يشير لخطر الصعق الكهربائي... وصبّ جام غضبه على جنان المستمرة في تسجيل أسماء المرضى... وقال لها وهو يصرخ:

- كيف تقبلين المرضى، كيف، ألا ترين وضع العيادة؟

ودون أن ترفع جنان عينيها إليه ردّت ببرود: ارفضهم أنت، ألست الطبيب.

لم يخفَ على الطبيب السخرية العميقة في جوابها، فصرخ: حسناً، والله لن أفحص مريضاً في هذه الظروف الحقيرة... وخرج كمّن هم من نار من العيادة قاصداً مدير المشفى...

فكّرت إيمان بأن جنان قد طوّرت آلية دفاع ذاتية في نفسها للتعامل مع الواقع الفاسد والبائس حولها، وذلك بتعطيل إحساسها بما يجري مهما كان مستفزاً... وقد عرفت فيما بعد أن جنان فور عودتها إلى المنزل، تتناول طعامها، وتجلو الصحون ثم تنام لساعات، تجلس مع أمها تتناولان العشاء وتعود للنوم حتى الصباح... كانت تهرب من الواقع بالنوم... ماذا ستفعل بيومها، تعيش مع أم عجوز، وليس لديها صداقات، وراتبها بالكاد يكفي ثمن طعام فقير لها ولأمها... وماذا ستفعل في مدينة لا تقدّم لك سوى الضجر والخواء، فلتهرب إلى النوم... من مثله يعفينا من ذلّ الصحو...

تبتسم إيمان، وهي تتذكّر كيف انتهى ذلك النهار المضطرب، لم ينصرف المرضى لأن جنان قالت لهم: على الأغلب سيعود الطبيب ويفحصكم...

وفعلاً عاد الطبيب بعد ساعة، بدا مسموم الملامح، متعكّراً ولكنه مضطر لكبت انفعالاته، وأخذ يفحص المرضى كيفما اتفق وبفظاظة واحتقار، وهو يبرطم بشتائم فاحشة، فيما جنان تكتب تشخيص المرض ببرود، وتفرغ وعاء الماء الممتلئ وتعيده إلى مكانه تحت الشق في السقف...

استدارت إيمان وعادت إلى طاولة مكتبها تتلمّس العلب الجراحية الجديدة التي وقّعت على استلامها، صدمتها برودة المعدن وسرت قشعريرة رعب في جسدها أحسّت بلذعة ذعر غير متوقّعة، وبدا لها سلوكها شائناً ودنيئاً، كيف كيف تسرقين أدواتاً جراحية وتبيعينها، أهله

هي أمانة العمل وشرفه؟ وقبل أن تكتمل هذه العبارة استفزّت قوى ساخطة في أعماقها وقالت: طظ، طظ في العمل وقيمه! كيف سأحترم عملي إن كنتُ أقبض راتباً يذلّني ويحقّرني؟... فكّرت في ذلك الزمن الخشن الحزين، كيف كانت تتألم دوماً وهي تمشي ويداها مندستان في جيوبها الخاوية، تتأمّل الواجهات بقهر عارفة أنها لا تملك المال لتشتري، وأكثر ما كان يؤلمها واجهات لعب الأطفال، كم تتمنّى لو تهدي ابنها دمى، لكن العين بصيرة واليد قصيرة... في ذلك الزمن المُجدب، تشعر أن لا قيمة لها... وكم عذّبها هذا الشعور، الذي يترجمه خيالها بصور عديدة، كأن تتخيّل أنها مجرد هيكل بشري أو أنها قربة مثقوبة، أو تتخيّل أنها أشبه بفزّاعة العصافير... إحساسها بانعدام القيمة لا يفارقها لدرجة كادت تؤمن أن الواقع يعني القهر والرداءة دوماً، وأن غاية الحياة أن تعاني، ورغبت مراراً أن توهم نفسها بالأهمية عن طريق إضفاء قيمة على معاناتها، كما لو أن الفرح والإحساس بالسلام الداخلي تفاهة، وترف لا يلزمها فقيمتها الإنسانية تتجلّى بمقدار ألمها وصبرها وتحملها...

فتحت أغطية العلب، ولمست الأدوات المعدنية الجديدة اللمّاعة، كانت تعرف طبيب الجراحة العصبية الذي سيأخذ هذه الأدوات، لكنها لم تعرف لمن ستؤول أدوات الجراحة العظمية... أخرجت الأدوات المطلوبة منها، وتأمّلت العلب، لم يتغيّر المنظر... تنهّدت وهي تهمس لروحها: يا رب ساعدني أن تمر هذه العملية بسلام...

كشّرت بابتسامة ألم وخزي، أغمضت عينيها خجلة من طلبها، أتطلب من الله أن يساعدها في السرقة!

انتفضت حين سمعت وقع خطوات الممرضة التي ستستلم العلب في الفترة المسائية، رحّبت بها، وعصف بها شعور حار برغبتها أن تبكي

على كتفها، كم تحتاج للعطف والحنان، كم تحتاج أن تعترف بما يعذّب روحها ويثقل عليها، أهملت شعورها، وشرحت للممرضة عن الأدوات الجديدة وواجب الحفاظ عليها وصيانتها... ثم نقلت العلب إلى الخزانة الخشبية في زاوية رواق جناح العمليات، قفلت بابها، وأعطت المفتاح لممرضة الدوام الليلي... نزعت الروب الأبيض، أتاها إحساس أنها ذات يوم قريب ستحلم أن ترتدي هذا الروب لكنها لن تتمكّن من ذلك... أسرعت خارج المشفى حابسة أنفاسها، لأن رائحة المجرور بدت أكثف وأشدّ مما تحتمل!!

بعد ثلاثة أسابيع من استلام إيمان لعلب الجراحة العصبية والعظمية الجديدة نفّذت المهمة المطلوبة منها، سحبت ستة أدوات من العلب، وسلّمتها للوسيط وقبضت ثلاثين ألف ليرة... شعرت وهي تحمل كيس المسروقات وتتّجه إلى مكتبه أنها كمن يسير إلى الهاوية دون أن يبالي بالعواقب، كان قلبها يدقّ بقوة كمن يذكّرها أنه لم يتعوّد على الشر والفساد اللذين تزرعهما فيه، أما عيناها فعكستا جموداً غريباً كما لو أنهما عينان زجاجيتان...

تهاوت على المقعد في مكتبه مهدودة القوى روحياً وجسدياً، سلّمته الأدوات فأعطاها رزمة المال، دسّت المال في حقيبتها، فهي لا تجرؤ أن تعدّه أمامه، قالت كأنها تخاطب نفسها: الله يجعل العواقب سليمة.

لم يرد، بدا منهمكاً بتفحص الأدوات، ثم علّق بكلمة واحدة: عظيم.

لم تسمح هذه المرة لضميرها أن يسوطها بسياط نزاهته، أسرعت إلى الجمعية السكنية للمعلمين، كانت جارتها بانتظارها فستنتقل ملكية البيت من الجارة إلى إيمان كان المشروع السكني في بدايته، وستدفع إيمان مبلغ مئة ألف، ثم خمسة آلاف كل شهر حتى الانتهاء من كلفة المنزل...

كانت قد سحبت قرضاً على راتبها، واشتركت في عدة جمعيات مع زميلاتها النساء الصابرات، الممرضات بلا حدود كما يحلو لها أن تسمّيهن... دفعت المال ووقعت أوراقاً بأنها صارت مالكة للبيت الذي سينفذ خلال ثلاث سنوات على الأكثر... شكرت جارتها من كل قلبها، وقالت لها ودموع الفرح تنهمر من عينيها: لن أنسى معروفك مدى الحياة...

ضمّتها جارتها إلى صدرها وقالت: لا تنفوهي بهذا الكلام يا إيمان، أنت جارة العمر، هل نسيت سنوات الدراسة...

لا لم أنسَ، لكن لو تدركين مدى سعادتي بأنك ساعدتني لأحقق حلماً مستحيلاً، ضحكت جارتها: وهل امتلاك بيت صغير حلم مستحيل؟

- بالتأكيد، بالتأكيد حلم مستحيل، أتستطيع موظفة تعتمد على راتبها أن تملك بيتاً... طبعاً هذا مستحيل... ثم أسرعت تستدرك، لولا عملي الخاص في المشافي الخاصة، وخدماتي للمرضى في بيوتهم، والجمعيات التي أزجّ نفسي بها لما تمكّنتُ من تحقيق حلمي...

كانت جارتها زوجة مهندس، قدّم طلباً للهجرة إلى كندا، وبعد سنتين وافقوا على طلبه، قال إنه يريد أن يعيش في كندا من أجل أولاده، لأن لا مستقبل للشباب في هذا البلد...

دسّت الأوراق في حقيبتها، شعرت أنها تحلّق في فضاء بلا حدود، كانت مشاعرها مختلطة ومضطربة إلى حدٍّ كبير، لم تستطع المشي، أوقفت تاكسي وطلبت من السائق أن يوصلها إلى المقهى البحري البسيط الذي اعتادت اللجوء إليه ليخفّف اختناق مشاعرها...

هيمن عليها شعور طاغ بأنها مالكة، بل شعرت أنها ثرية، يا إلهي هل ستملك بيتاً بعد ثلاث سنوات، بيت صغير جميل، تتصرّف فيه

بحرية، تستقبل مَن تشاء، تفرشه بالأثاث الذي تريد، تطبخ ما تشاء، وتأكل ساعة تشاء... يا سلام، كم هي جميلة الحياة، ما أحلى الحرية، ما أحلى الحرية... جلست في زاويتها المعتادة ومن خلال نظارتها الشمسية تأملت أشعة الشمس المتراقصة بدلال على سطح البحر وخزها الجمال... أحسّت بحزن وحسرة كون الغضب المستمر الذي صار طبيعة فيها يمنعها من تأمل الجمال، بل قتل الحس الجمالي فيها، فحين يشعر الإنسان بالقهر والظلم والغضب، يعجز عن الإحساس بالجمال... تذكّرت أن الفقر عزلها عن سماع الموسيقى، وشوّه أحاسيسها، طلبت من النادل أن يحضر لها أركيلة لاحقت الدخان المعطّر برائحة العنب، وفكّرت أن الغضب يعني الإحساس بالخسارة الدائمة... إنها تعيش سنوات حياتها وشبابها يُهدر في عيش يمسخ إنسانيتها، كل المفاهيم سُفهت، ولم يعد من قيمة للعمل والشرف، والأخلاق، بل صارت هذه القيم تثير السخرية، كما لو أن المتمسك بها دقّة قديمة، خارج القوانين التي تحكم هذا العصر، نحن في عصر الشاطر، والسمسرة، والسطو... فكّرت كم كانت متجهّمة وساخطة دوماً، ولديها قلق شرس من الجوع، تخاف أن تصل إلى يوم تعجز عن تأمين الطعام لابنها! فالقيمة الشرائية لليرة في هبوط، والأسعار في تزايد مستمر والراتب كسيح! أنّت على نفسها لأنها تشاطر، ولولا بيع مواد من المشفى الحكومي لما أمكنها أبداً أن تملك بيتاً... إنها ليست لصة، بل تأخذ حقها بطريقة أخرى، أليس من حق كل مواطن أن يملك بيتاً، وحين يُهان وُتمسخ إنسانيته ويُعطى راتباً تافهاً لا يمكنه من امتلاك بيت صغير، فمن حقه أن يحصل على ما يستحقه بطرق أخرى... كي يكون راتبها معقولاً يجب أن يكون عشرة أضعاف ما تقبضه كل شهر... ويحقّ لها أن تحصل على تسعة الأضعاف المسروقة منها...

أحسّت بكيانها، وبثقة بالمستقبل لأنها مالكة، وتعجّبت كيف يتحمّل الناس أن يملكوا أشياء كثيرة... فهي لم تعرف يوماً شعور الملكية، يا سلام ما أروع هذا الشعور، بل هو ذاته الشعور بالكيان والشخصية... إنها مالكة إذاً هي موجودة...

فكّرت أنها عاشت دوماً مهدّدة أبداً بوحش اسمه المستقبل لا ضمانات لها، تخشى أن تمرض أو تحتاج لعملية، تخشى أن يمرض ابنها...

لا خصوصية لها في أسرتها، تعيش مع والديها، لا تملك الحق أن تغيّر مكان كرسي... غرفتها التي تنام فيها تغصّ بأغراضهم... أصوات التلفاز والمذياع تجرحها وتخرجها عن طورها، ما ذنبهما أن نقص سمعهما مع الزمن!

استعادت بحنان صورها في البيجاما، متربّعة في سريرها تقرأ، ووحيدها نائم بجانبها "كم أنا مسكينة، كم أنا مسكينة" كرّرت هذه العبارة لنفسها وهي تتمعّن بالصور التي يفرزها خيالها، محاطة بالكتب دوماً... لماذا تثقّف نفسها إلى هذا الحدّ؟ لماذا تغذّي عقلها وتطوّر أفكارها؟... هل لتعطي قيمة ومعنى لحياتها أم لرغبتها أن تختلف عن القطيع. تذكّرت كم مرة أوشكت على الانكسار، وصارت تخشى ألا تقاوم الانهيار، وتفاقم إحساسها بالضيق وانعدام الأمل والإحساس بالأمان لدرجة صارت تستيقظ مذعورة متسائلة: ماذا يخبّئ لها المستقبل؟ وكثيراً ما كانت تخرج من غرفتها، وتسير في الظلام إلى الصالون، أو تتوقّف عند باب غرفة نوم والديها، تحدّق بجسديهما في الظلام وتنصت لشخيرهما البطيء، وصدرها يمتلئ برائحة الشيخوخة، كانت تحبّهما بعطف شديد، لكنها تكره أن تعيش معهما، لأنهما يؤكدان لها كل لحظة فشلها، فشلها في الاستقلال، وعجز راتبها عن استئجار

بيت صغير، وتأمين مستلزمات المعيشة لها ولابنها... إنهما يؤكدان لها كل لحظة أنها ليست سوى دودة تدبّ على الأرض، ولن تتحوّل يوماً ما إلى فراشة تحلّق في السماء.

تذكّرت كيف يدفعها التوتر الشديد إلى التهام كميات كبيرة من الطعام، ثم تشرب نصف كوب من الحليب الساخن، وبعدها تدخل الحمام وتضع سبابتها في حلقها، وتتقيأ كل ما التهمته، وكثيراً ما يعاندها الطعام ولا يخرج بسهولة من معدتها فتغضب وتصرّ على التقيؤ، وتشعر أن عينيها تكادان تسقطان من محجريهما... تشعر أنها تتقيأ أيامها الذليلة... ثم تغسل وجهها وتنظّف أسنانها وتتفرّج على وجهها المحتقن بالقهر في المرآة...

تحسّست حقيبتها، إنها الآن تملك مشروع بيت، وسيكون بإمكانها تسديد ثمنه... فكّرت أن الاكتئاب المديد الذي عانت منه يشبه دوار البحر، دوامة تشفطها إلى الداخل لتظل حبيسة مشاعر سلبية من القهر والإحساس بانعدام القيمة...

أعطتها أوراق ملكية البيت إحساساً بالأهمية والقيمة، والثقل أيضاً، شعرت بجسدها بوزنه الذي هو ذاته وزن قيمتها الإنسانية، شعرت بأعضائها، عضواً عضواً... استرخت ملامحها التي اعتادت التجهم منذ سنوات، وتخيّلت بيتاً أنيقاً صغيراً جديداً، بأثاث أنيق جديد يفرشه، ستكون فيه غرفة خاصة بها، وأخرى بابنها، ستشتري مزهرية وتضع فيها زهوراً، إنها تعشق الزهور، وستشتري سجاداً وستائر، غاص قلبها وهي تتذكّر السجادة البديعة التي ظلّت تدفع أقساطها لسنتين، ثم باعتها بعد ست سنوات، لأن والدتها رفضت أن تفرشها في أرض الصالون...

لكن... ما بها تتعكّر فجأة، كما لو أن شعور الرضى والسعادة بالملكية مبطّن بشعور آخر، خلف صور البيت الجميل عفن كريه الرائحة... إنها

مالكة بالمال الحرام... أوف، لعنت هذه الأفكار التي تشوّشها، وقالت لنفسها: كفّي عن مضايقتي أيتها الساذجة الغبية، قلتُ لك هذا ليس مالاً حراماً، إنه حقي، إنه المال المسروق من راتبي كل شهر...

لأول مرة تشعر أنها مزروعة في أرض صلبة، لها جذور... خاطبت البحر الذي أحبّته دافئاً وحنوناً: ألا تعتقد أنه من أبسط حقوق الإنسان أن يملك بيتاً خاصاً به؟...

وشوّشها البحر «أن نعم» استرخت وهي تدخّن الأركيلة، وانحرف تفكيرها إليهن النساء الصابرات كما تسمّيهن، الممرضات المسكينات اللطيفات الفقيرات، تحب أن تستحضر وجوههن دوماً إلى فضاء عزلتها، تتأمّل ابتساماتهن المتعبة، وعيونهن المُسهدة، وفي قاع نظراتهن حزن شفاف، حزن يرشح من ضحكاتهن ويبطّن جلودهن، لم تكن تفكّر بكل واحدة بشكل مستقل، بل تتأمّلهن ككتلة متجانسة حفنة من نساء صامتات صبورات، يسحقهن الحرمان وذل الراتب، ويجعل أعماقهن ناعمة ملساء، بلا ذرة تمرد واحدة، لأن الظروف القاسية شذّبت كل نتوءات التمرد في أعماقهن... أرواحهن أشبه بعجينة طيّعة صماء لا يصدر عنها شيء... إذعان تام لسلطة تهرس إنسانيتهن وأحلامهن... وهن لا يملكن سوى الخضوع، وسوى الحلم بمستقبل أفضل لأولادهن... لا يعرفن كيف سيكون... كل أحلامهن تختزل في حلم وحيد أن يزيد الراتب...

إحداهن لديها وسواس هو الراتب، كل صباح تسأل: ألن يزيد الراتب؟

أو تقول بحماسة: والله سمعتُ من مصادر موثوقة أن الراتب سيزيد 30٪؟

سمّيناها الراتب، وكنا نسخر منها ونقول، أكيد وأنت تضاجعين

زوجك تفكّرين بالراتب...

يومها انطوت على نفسها من الضحك، واعترفت لنا أن كلامنا صحيح.

طالما تساءلت إيمان إن كانت تلك النسوة يملكن روح نضال كامنة في أعماقهن أو بذرة تمرّد؟ هل فعلاً صرن عبدات للقمة العيش، ثقافتهن ضحلة، مستقاة كلها من برامج التلفاز، والمجلات النسائية السخيفة... لكن أليست العملية التربوية أساساً تعتمد على سحق بذرة التمرد، وعلى تدجين البشر لتكون أهم صفة لديهم الخنوع.

تذكّرت العبارات التي يكرّرنها دوماً: العين لا تقاوم المخرز، الحيط الحيط ويا رب السترة، واليد التي لا تقدر على كسرها، قبّلها وادع عليها بالكسر...

كن ينظرن لحياتهن كقدر لا يمكن تغيره، يتقبّلن وضعهن باستسلام تام، وقد فقدن كل إمكانية لتغييره، لكنهن من وقت لآخر يتوهجن بالأحلام، فتشرق نظرتهن بنور غريب ويحلمن أن الراتب سيزيد أضعافاً، وبأن حياتهن سوف تنقلب بضربة سحر، وسوف يلبس أطفالهن ثياباً جميلة جديدة لا تفوح منها رائحة الألبسة المستعملة، وسيتمكّن ذات يوم أن يسكن بيتاً جميلاً يتعمّد كل صباح بنور الشمس وسيتمكّن أن يدخلن من وقت لآخر المطاعم، ويتأمّلن نظرات الفرح المشرقة من عيون أطفالهن...

كلما شردت في تأمل مشاعر النساء الصابرات ومحاولة الغوص في تفاصيل حياتهن ينسكب في حلقها طعم مرارة لاذع، يعقبه إحساس عميق بفظاعة الظلم... بدت لها حياتهن لاإنسانية وقاسية لدرجة غير مقبولة... باه كيف يُهدر العمر هكذا وتموت أبسط الرغبات والأحلام... إلى هذا الحدّ يتأقلم الإنسان، كيف يرضى أن يُدَجّن

ويتحوّل إلى حيوان في قفص...

آلمها ظهرها المتيبّس من الجلوس بالوضعية ذاتها لساعتين، انتفضت واقفة وصفقت للنادل كي يحضر الفاتورة، تفجّر جسدها بسؤال مدوٍ: هل يعقل أن يمر العمر بالوتيرة ذاتها من الإحساس بالانسحاق والذل والقهر والتحمّل... هل ستتعاقب السنوات والنساء الصابرات يعشن أيامهن الشاحبة الفقيرة يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة على أمل التغيير!

• • •

خسرت إيمان ما خافت أن تخسره دوماً، احترامها لنفسها وشرفها، تتذكّر بشيء من الذهول، وأحياناً الهذيان تلك المراهقة الرقيقة التي كانتها، الصبية الحلوة التي تتأبّط دوماً الكتب وتشعّ عيناها ببريق الأمل، وتتّسم حركاتها بالرشاقة والرقة... كانت مثالاً للنقاء والاستقامة، كيف تحوّلت تلك الصبية الطاهرة الشفافة إلى إنسانة تزوّر وترتشي وتنهب المال العام، وتضع يدها بأيدي شلّة من اللصوص والفاسدين لسرقة المشفى!!

تحاول إيمان أن تعدّد العديد من الأسباب لتفسّر هذا التحوّل في شخصها، لكن محاولاتها تفشل كل مرة، إذ تحسّ بمنطقة معتمة وكتيمة بين تلك الشابة التي كانتها والمرأة التي غدتها. بين المرأتين ظلام لزج أشبه بالإسفلت السائل لا يمكن أن يخترقه شعاع الحقيقة...

يستطيع عقل إيمان أن يبرّر سلوكها ويبرّأها، إنها ليست مسؤولة عن تفاهة الراتب... ولا يمكن أن ترى الحرمان في عيون ابنها وتبقى مكتوفة اليدين، كيف ستحترم عملاً لا يحترمها ويذلّها؟! لكنها تدرك بأعماقها أن جوابها ناقص، إذ إن شيئاً أكثر عمقاً وتأثيراً جرفها في

طريق الفساد، ترى ما هو؟! كان عليها أن تغوص بهدوء في أعماقها لتعرف الحقيقة المُقنعة... وبالفعل نجحت في الغوص بأعماقها بحذر ورفق، تخشى أن تمزّق مشاعر أو تخدش أفكاراً، كان عليها أن تفك شربكة أعماقها بصبر وحذر كي تعيد ترميم الصورة، كي تخترق تلك المساحة المعتمة بين المراهقة النقية التي كانتها، والإنسانة الفاسدة التي صارتها...

اكتشفت أن عملية التحوّل أعقد مما تصوّرت، فلبس شحّ الراتب وإحساسها بالظلم دفعاها لبيع الأدوات الجراحية للمشفى، إنه سبب هام، لكنه مبطّن بسبب أكثر أهمية... وهي حاجتها أن تقلّص شعورها بالنبذ والتهميش في هذا المجتمع. أحسّت بفرح ورضى حين اكتشفت هذا السبب، إنها تلمس تلك الحقيقة الهامة كما لو أنها تكشف جرحاً نازفاً مهملاً تراكم فوقه نسيج ميت وحجبه، لكن الجرح سيظل ملتهباً ومؤلماً ونازفاً حتى كشفه ومعالجته... اعترفت لنفسها بعد جهد كبير لفهم أعماقها أنها آمنت حين دشّنت عصر الفساد في حياتها أنها تدشّن ولادة إنسانة ناجحة وعملية وذكية تستحق وسام الانتماء إلى هذا العصر... أليس الشعار الصريح لتكون إنسانة ناجحة ومحترمة ومتواجدة بقوة في أسرتها ومحيطها هو أن تتعلّم كيف تؤكل الكتف... أن تنجح في حفر قنوات اتصال سرية مع شبكة تتقن النهب وترسم خططاً مثالية لنهب المال العام؟ تتذكّر إيمان تلك السنوات الطويلة الكئيبة حين كانت مُجرد متفرجة... تتفرّج بعيون حزينة ويائسة على هؤلاء الناجحين الذين أثروا ثراءً فاحشاً بسنوات قليلة... ثراء بلا حياء يتباهون به أمام الجميع، هازئين من العيون الخرساء الصامتة تسأل: من أين لكم هذا؟!

أليس الناجحون الحقيقيون في هذا البلد هم اللصوص والسماسرة... المدراء الأنيقون الذين يجلسون على مكاتب فخمة

وأمامهم عدّة أجهزة هاتف، ومكيّف هواء وسكرتيرات جميلات عاهرات، ومن وقت لآخر يجمعون العاملين عندهم ويجلدونهم بمحاضرة عن الشرف واحترام العمل، ومن وقت لآخر يلحقون عقوبات بموظف مسكين حلم أن يقلّدهم وينهش القليل من كتف الوطن، أو ينحني لالتقاط الفُتات المتساقط عن موائد شلّة اللصوص... وهؤلاء اللصوص فاحشو الثراء يتحوّلون لحلم لكل الفتيات، محظوظة من تتزوّج لصاً، اعتقدت إيمان أنها محظوظة حين سلّموها منصب رئيسة قسم العمليات، ياه يا إيمان ستقبرين الفقر، انفتح لك باب القدر، كم خاطبت نفسها بهذه العبارة وهي تقبض المال وتشتري، وتدفع أقساطاً للجمعية السكنية، وحين صار البيت على الهيكل، لم تصدّق، كانت تلمس الجدران وتتنشّق رائحة الحجارة الرطبة، وتقبّلها، وتنظر إلى المكان نظرات وَلَه وهي تهمس لنفسها بصوتٍ لاهث من السعادة: أنا مالكة، مالكة، أملك بيتاً... كيف كانت لتملك بيتاً لو لم تنهب المشفى...

لكن ما بالها متعكّرة دوماً، إنها تعرف أن خراب الروح لا يعادله خراب وتدرك أن سبب تورطها الرئيسي في حلقة الفساد هو خوفها من المستقبل، إحساسها المتعاظم بانعدام الأمان والاستقرار... في السنين السابقتين لتورطها في نهب المشفى، كانت تعيش بحالة ذعر مستمرة من أن يمر العمر بسرعة، والأسعار في تزايد، والراتب يزداد شللاً ماذا تفعل؟ كيف ستؤمّن حياة كريمة لابنها؟ تذكّرت النوبة العصبية التي انتابتها حين قال لها طبيب الأسنان، إن كلفة تقويم أسنان ابنها أربعون ألفا! ولأن وحدة القياس للموظف هي راتبه فقد حسبت أن كلفة تقويم أسنان ابنها يعادل راتبها عن ستة أشهر! يومها جنّ جنونها، وأخذت تصرخ كحيوان مذبوح، وتلطم صدرها، وتشدّ شعرها، وهي تلعن الزمن

والحياة، كانت وقتها منجماً للكره والأحقاد والقهر... بل أحسّت بحقد حتى على حبيبها الذي تعبده الصغير والبريء... ابنها.

لكنها في الحقيقة لم تشعر أبداً بالانتماء لهؤلاء الفاسدين، صحيح أنها متواطئة معهم لكنها ليست منهم... تتميّز عنهم بذلك الحزن الشفيف المستمر الذي يشفّ من ابتساماتها، ولم تستطع رغم محاولاتها أن تضحك مثلهم ذلك الضحك الوقح الذي يميّزهم، بل ظلّ ضحكها خافتاً قصيراً خجولاً... تختلف عنهم لحاجتها المستمرة للتأمل، وللتفرج على حياة الناس حولها مذهولة من فظاعة أمراضها، متعجّبة كيف يعيش هؤلاء الظالمون والمظلومون، الراشون والمرتشون، المتهكون والمتهكون كيف تتدحرج هذه الكتلة غير المتجانسة يوماً بعد يوم، دون أن تنهار وتتفتت لأن النخر يتعاظم في قلبها.

بلدٌ منهوب مُستباح من قبل شلّة من اللصوص يتحكّمون بمفاصله، وهي وكثيرون معها يقفون خلف هؤلاء الفاسدين صنف أول، يلتقطون الفُتات، ويوهمون أنفسهم أنهم حقّقوا نجاحاً بانتمائهم لهذا العصر، عصر القنص والشطارة، ونهش الكتف... وكل منهم يحاول إقناع نفسه أنه لا يمكن أن يكون كبش الفداء، وأنه سيتمكّن من الانسحاب دون أي دليل إدانة، كما تسحب الشعرة من العجين.

تستيقظ إيمان مع إحساس طاغٍ بالتعب، تتعجّب من هذا الشعور فقد نامت بعمق ولساعات طويلة... تعرف أنه تعب الروح، بتعبير أدق وجع الضمير... ترى ما تعريف الضمير؟ تتساءل إيمان بصدق وجدية محاولة التقاط تعريف دقيق للضمير لكنها تشعر كما لو أنها ستلتقط كرة زئبق تفلت منها دوماً... تغمض عينيها محاولة أن تركّز أفكارها وأحاسيسها في بؤرة معينة لتتمكّن من تعريف الضمير، لكن الكلمات لا تسعفها بل يفرز خيالها صوراً جامدة، لوحات صامتة متتابعة... صورتها تقف عند

عتبة بابه الموصد شاعرة كيف يتحوّل كيانها إلى قلب ينبض بحب ابنها، لا تخجل من الاعتراف أنها تتلصّص عليه من ثقب الباب، فلا ترى إلّا طرفاً من سريره، وتسترق السمع لمكالماته الهاتفية ليس لفضولها بالتقاط أسراره البريئة بل لتستلذ بصوته. . .

تقف عند عتبة بابه الموصد، فاتحة مصراعي روحها حتى آخرهما، كمصلوبة حباً كممسوسة برغبة طاغية أن تبوح له حقيقتها ومن أين تحضر المال، لكنها حين تواجهه يتبدّد كلامها إلى ابتسامات شوق تحاول ضبطها. . .

منقوعة في أحزانها، متدثّرة بكآبتها، تقف عند عتبة الطفولة تشحذ الصفح. . . وحده وحده، تحتاج أن يسامحها، أن يعذرها، ويفهم دوافعها، ويفهم أنها اضطرّت رغماً عنها أن تنهب وتغشّ وتتواطأ مع اللصوص. . . لكن، لكن ما معنى هذه الدموع الحارقة الغزيرة. . . لماذا تتدفّق بتلك الغزارة فيما عقلها يبرّرها، إنها تعرف بأعماقها أنها لا تستحقّ شرف أن تكون أمّاً لهذا الصغير الذي تعبده. . . تجاهد لتكون أمّاً. . . الجنة تحت أقدام الأمهات، الجنة تحت أقدام الأمهات، تتكوّم من الألم الذي تحدثه في روحها هذه العبارة، وتحدث نفسها بقهر: تفو عليك يا إيمان تفو عليك.

• • •

سقطت إيمان في إدمان تأمل حياتها في هذا البلد، غريب كيف تتفرّج على أيامها كما لو أنها تحضر فيلماً سينمائياً! ترى هل أصابها تبلّد في المشاعر! أم أنها أنهكت لشدّة الانفعالات العديدة والعاصفة التي مرّت بها. . . في الواقع صارت تكره الانفعال والتأثر لأنهما لم يقدّما لها أية فائدة، بل على العكس استنزفا قواها، وتركاها ضحية اكتئاب عنيد،

يحلو لها أن تتخيّل أيامها كحبات مسبحة متماثلة ومتطابقة... لا تجد تشبيهاً أكثر دقة من حبات المسبحة لأيامها الشاحبة المملة المتشابهة... وأحياناً يحلو لها تخيل يومها كعدو يتربّص بها تصارعه كل يوم كي يمر، آخذاً معه كل أحاسيس الملل واليأس واللاجدوى والفراغ، وليقدّمها لها ما إن تفتح عينيها صباح يوم جديد...

لم تعد تملك سوى متعة الأفكار أو الخيال في هذا البلد الفقير المُجدب، تتخيّل أن كل الناس عبيد، وبأنهم مربوطون برسن من رقابهم، كم تثلج قلبها تلك الصورة أنها تحتقرهم وتكرههم وتقرف من طريقة تفكيرهم، وتتعجّب من وحشيتهم وقسوتهم... ياه كم عانت من ثرثرتهم واحتقارهم لها... حوّلوها لعاهرة لأنها كانت حرّة، ولأنها آمنت أن من حقها أن تعيش حريتها، وحين كانت تقرأ وجوههم المتشابهة لحدّ التماثل، تعرف أنهم يذكرونها ويحتقرونها لأنها تضاجع رجلاً خارج حظيرة الزواج المقدّسة... صار لقبها في المدينة: المرأة التي تضاجع رجلاً... المرأة التي يعرف الجميع أن لديها عشيقاً!

أدمنت إيمان على تأمل لقطات من حياتها، تستحضر صورتها وسط أسرتها بين أمها وأبيها وصغيرها الذي لم يكمل الرابعة من عمره... شابة متفجّرة بالعواطف والرغبات في عيش الحياة بعمق وبهجة، تنوس بين عالمين، عالم الكهولة وعالم الطفولة... امرأة تنوس بين موت وحياة، وأحياناً تجد نفسها أقرب للموت وأحياناً أقرب للحياة...

لم تكن تشعر بالانتماء لأي من العالمين، فهي تتوق لعالم آخر، في قلبه رجل يضمّها ويحتضنها، وتذوب بين أحضانه حباً ونشوة... قدرها أنها تزوّجت الرجل الخطأ... الذي هجرها بعد عام من زواجهما، وصغيرها رضيع مسكين، إلى أميركا، لاحقاً الحلم الأميركي في الثراء... لص ملع وذاب... مرّت أربع سنوات على غربته، لم يكن

يتصل إلّا نادراً ولا يرسل لها مالاً... وبعد أشهر من سفره اضطرّت للعودة إلى بيت أهلها لأنها لا تملك المال لدفع إيجار الشقة... كان زوجها نذلاً، لأنه أجبرها أن تطلّقه، عارفاً سلفاً أنه سيدفعها للانهيار وطلب الطلاق بإهماله لها سنوات... أكثر ما يؤلمها ليس طلاقه بل لأنه حوّلها - رغماً عنها - إلى بركان من الحقد والغضب، فكانت تنظر لصغيرها الذي تعبده، كيف يبتسم وتبزغ أسنانه وكيف يصفّق مبتهجاً حين تحمله وتقبّله، وكيف يغفو كملاك، وكل صورة تحرّك في أعماقها عاصفة من الحقد والاحتقار لزوجها الحقير...

ولم تتوقّع أنها ستنتقل من تحت الدلف إلى تحت المزراب، لذا فحين قادها الحرمان العاطفي المديد إلى أحضان رجل، لم تقدّر وقتها أية نتائج كارثية ستنجم عن ذلك!! كان تصرّفها يبدو عفوياً وطبيعياً، شابة في الثامنة والعشرين، زوجة مهجورة لم يلمس جسدها منذ أربع سنوات، تؤمن أن من حقها أن تحب وتُحب...

أين العهر في الحب؟! لماذا تتساوى العاشقة مع العاهرة؟! ولماذا تدمّر المرأة العاشقة وتوصم بالعهر والانحلال، وعدم الحفاظ على العفّة والشرف والأخلاق! بينما الرجل الذي يضاجعها لا يُرمى بوردة! بل على العكس هناك إعجاب مبطّن بسلوكه، كما لو أن رجولته وفحولته تتوهّجان حين يضاجع! وهناك نوع من التباهي، فالتجارب الجنسية ضرورية للرجل... ألا يجب أن يخزّن خبرة جنسية تفيده لإنجاح زواجه، حين يختار العذراء التي سيكون عبد الرحمن الفاتح لجسدها وحيائها!

تستعيد وجه والدها المتجهّم دوماً، كيف يتأمّلها - معتقداً أنها لا تلحظ نظراته - بطرف عينه باحتقار، نظرة تقيس حرارة عواطفها الجنسية، تشعر أنه يتمنّى لو يختنها كي لا تشعر بحاجة لعشيق، إنه

يعرف أنها مكبوتة، وتعاني من حرمان عاطفي لاإنساني ومديد... لكنه يحسّ بالقرف والعار حين يتخيّل أن ابنته تضاجع رجلاً لديها عشيق... أي عار هذا...

مسكين حقاً، بل إنها تعذره تماماً، خاصة حين تتذكّر المكالمات الليلية التي يتلقّاها لتخبره أن ابنته قحبة وبأنها تضاجع عشيقها في شقته الفخمة... لم يعد يجرؤ أن يقصد المقهى الذي اعتاد أن يلعب الورق مع أصدقائه، يحسّ أنهم يتغامزون عليه ويهمسون: المسكين ابنته تضاجع رجلاً... تفتح فخذيها ليلجها رجل ليس زوجها...

الله يعينه على هذه الكارثة... لو لم يكن متحضّراً لذبحها، والله جرائم الشرف يجب أن تكون مُباحة.

تتذكّر إيمان ذلك اليوم الذي التقت فيه جارتها في دكان لبيع الخضار... تأمّلتها الجارة بشفقة أقرب للاحتقار، كانت امرأة في عقدها السادس، لا تفوّت قدّاساً إلهياً قالت لها متظاهرة أنها تتعاطف معها: الله يكون بعونك يا ابنتي، حظك قليل في هذه الحياة...

ابتسمت إيمان بوجهها ابتسامة احتقار... ولم ترد.

تابعت المرأة: احمدي ربك لأن لديك ابناً وليس بنتاً...

سألت إيمان بسخرية: وما الفرق...

- آه يا إيمان، أهذا سؤال، من سيتزوّج فتاة، أمها - لا تؤاخذيني - لديها عشيق...

انفجرت إيمان بغضب عاصف على وقاحة المرأة، المتظاهرة أنها قدّيسة وقالت لها:

- اسمعي أنا أحتقر هذه العقلية... وكل أفكاركم وصرمايتي سوا...

رسمت المرأة علامة الصليب وفرّت من أمامها، في الواقع ارتعبت

من الشرر المتطاير من عيني إيمان الساحرتين...

لكن بعد أشهر من هذه الحادثة، وحين تزوّج العشيق من فتاة في عمر أولاده موجّهاً طعنة الغدر لإيمان... التقت إيمان المرأة ذاتها، واقتربت المرأة منها وقبّلتها وقالت لها: لا يهمّك يا إيمان، الله غفور رحيم... الله يكون بعونك يا حبيتي حظك مع الرجال قليل... مسكينة يا حلوتي، فعلاً إذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها...

أبعدتها إيمان عنها، وحدّقت بوجهها بقرف وقالت لها بصوت جامد: لكني لستُ بقرة.

لم تهتمّ إيمان يوماً أن تحلّل الأسباب والدوافع التي جعلتها تشتبك مع عشيقها بعلاقة، يكفي أن تتذكّر أنها زوجة مهجورة لسنوات، وأن الحرمان لعب الدور الرئيسي ليجعلها ترتمي بين ذراعي رجل... كانت تحسّ بالحزن والأسى حين توقظها من عز نومها نوب الحرمان العاطفي والجنسي، وتطالبها بصوت كالفحيح بأنها تريد أن تشبع... وبأنها إنسانة لها متطلباتها، ولها حاجات إنسانية وليست حيوانية... ما كانت تقبل أبداً أن تنظر لحاجات الجسد أنها حاجات حيوانية، أي تخلّف، بل أية مغالطة هذه الأفكار... ما الجسد، وما الروح... كان هوى الحياة والحب يحتاجان لمجرد شرارة بسيطة كي ينفلت البركان المحتبس في روحها، وحين تبادلت القبلات مع الرجل الذي أحبته - أو اعتقدت أنها أحبته - أغمضت عينيها ليس من النشوة، بل لإحساسها العميق بفظاعة الحرمان الذي عاشته لسنوات، بدا لها هذا الحرمان جريمة حقيقية... ولم تتردّد لحظة في تدشين حريتها... لم تتردّد أن تزور الحبيب في شقته، وفي التعري بين ذراعيه معطية جسدها وروحها للحب... ما كان يذهلها أنها تحسّ بالسمو والرقي والامتلاء وهي تهب جسدها بحب لحبيبها، وتتخيّل في الوقت ذاته أن ما تقوم به يوصم بالعهر وبأنها

ساقطة وعاهرة!

في الحقيقة لم يكن رجلاً محترماً، سُمْعتُه كنصّاب تتردّد في المدينة، كان تاجراً جمع ثروة ضخمة من الغش والتحايل على القانون والناس، لكنها تعاطفت معه لسبب وحيد وهو كره الناس لهما، كما لو أن كره الناس، وخدعهما، وصهرهما في بوتقة واحدة، الناس تكرهك لأنك تطوحين بالشرف كما يفهمونه، ويكرهونه لأنه نصّاب...

ما كان يحيّرها أنها رغم كونها تهبه جسدها بحب وبكامل رغبتها وإرادتها، فانه ينظر إليها دوماً نظرة جائعة، نظرة ذئب يتأمّل فريسته بشهوة قبل أن يلتهمها، في قاع نظرته شيء يقلقها ويحيرّها... نظرة بدوي يعتبر أن جسد المرأة مَكسباً وغنيمة... لم يكونا وجودين حرّين متساويين في فعل الحب، كان الحب أشبه بمأدبة شهية بالنسبة له، جسدها شهي عليه التهامه والاستمتاع به... وجسده مكمّل لها ليعزفا معاً أنشودة السعادة والنشوة والوصال...

بعد أشهر من علاقتها معه، بدأت تعي كم هما مختلفان، كان يحتقر الثقافة ويسخر من ولعها بالشعر، وينصحها ألا تقرأ، لأن القراءة تؤدي إلى الجنون... كان رجلاً بلا أخلاق، ولم يجد حرجاً حين حكى لها كيف تحايل على زوجته وجعلها بالحيلة توقّع على أوراق، تنتقل ملكية البيت الفخم منها إليه...

تحسّ إيمان بالقرف من اعترافاته وتقول له: حرام عليك، البيت ملكها، كيف تسلبها البيت...

فيقول: إنها لا تستحقه، امرأة مجنونة، تنتابها نوب اكتئاب، تظل تبكي وتبكي لأيام الحمد لله ارتحت منها...

تحدّثت المدينة عن خداعه لزوجته، نهبها وطلّقها...

وذات يوم حدّثها عن براعته في البيع، وكيف أنه يدرّب الموظفين

عنده أن يحاولوا ألا يعيدوا المتبقي من سعر البضائع للزبون تماماً... احتفظوا ولو بمبلغ بسيط وقولوا للزبون: آسفين لا يوجد فكّة كافية...

ضحك بوقاحة وقال: أتعرفين كم أجمع مالاً خلال سنة من وراء لطش بضعة ليرات من كل زبون...؟

سألت باحتقار: كم؟

قال: مئة ألف في السنة...

حسبت أن مئة ألف تعادل راتب موظف عتيق عن أكثر من سنة ونصف!!

كان جانباً من روحها يحتقره، ليس لممارساته المهنية اللاأخلاقية، بل لأنه شديد الفخر بهذه الممارسات...

ثم صارت تقرف من تفاهة حديثه، ومن ولعه بأفلام البورنو، وكان يطلب إليها أن يمارسا الحب بعد أن يشاهدا فيلماً مثيراً - لكنها ترفض - ومع الأيام بدأت تشعر كم أن أساس حبه لها رغبة حيوانية...

لم تستطع أن تقطع علاقتها معه، رغم احتقارها له ولمسها لمس اليد لسفالته، بل أحسّت أنه يستغلّها ويستخفّ بها، ففي بداية علاقتهما كان مبتهجاً ومثاراً لدرجة كان يهمس لها دوماً بأنها نعمة في حياته، ووعدها أنه سيعطيها مليون ليرة وسيضع المبلغ باسمها في المصرف... لكنه بعد أن تعوّد أنها مُباحة وسهلة ويمكنه أن يضاجعها وقتما يشاء، تراجع، لِمَ يعطيها المال إذا كانت مباحة، ولم يخطر لها أن تتمنّع لتستغله مادياً، كانت على درجة مضحكة من السذاجة والنقاء مؤمنة حتى نخاع عظامها أنها تمارس إنسانيتها وحريتها حين تعيش علاقة حب حرّة!!

لماذا لم تقطع علاقتها معه رغم اكتشافها لحقارته؟! سؤال طالما عذّبها، ولم تجد جواباً مقنعاً سوى نظرة الناس لها، لقد صُنّفت، ودخلت خانة المنبوذات بجدارة، شعرت بعزلة روحها، العزلة الحقيقية

الأشبه ببئر مظلم بلا قاع تهوي فيه أرواحنا المتألمة... ربما خافت أن تقطع علاقتها به لأن إحساسها بذاتها تحطم ولأنها شعرت أن رائحة النبذ والاحتقار ستحوم حولها أينما تحرّكت، المسكينة لم تقدّر وقتها أي أذى يحلّ بروحها، كانت مبلبلة ومشوّشة لدرجة لم يعد لديها أي تصوّر كيف ستكون حياتها إذا بترت علاقتها مع الرجل الذي وصمها بالعار إلى الأبد...

كم من الليالي قضتها مُسهدة، محاصرة باحتقار والدها الصامت من جهة، وبورطة علاقتها مع رجل منحط، تفكّر بدهشة أليمة أن لا احد يمكنه أن يكون نفسه في هذا البلد، وأن من تفكّر أن تعيش بحرية وتفعل كل ما تمليه عليها عواطفها وأفكارها، تتحوّل إلى مسخ منبوذ مشوّه...

كانت تتأمّل تلك الوجوه حولها، والتي تلتقيها في الشارع وفي العمل، وجوه تنظر إليها باحتقار، تجلدها وتقيّمها كعاهرة... فيزداد إحساسها بالذهول وهي تقارن بين وحشية الناس حولها، وفرحها الشفاف كونها إنسانة آمنت بحريتها...

ليتها ولدت في بلد متحضر، بلد يمكن للمرأة أن تظل محترمة رغم اتخاذها عشيقاً... ياه كيف تعيش النساء هناك، كم تحسدهن... كم تتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعها، لتجد نفسها في بلاد الحرية والمساواة...

لم يفاجئها زواجه من فتاة في عمر أولاده، بل بدا زواجه بهذه الطريقة مُكملاً مثالياً لسفالته، الزوجة الفقيرة قبلت بالصفقة، تهديه شبابها مقابل ماله الحرام، في قرارة نفسها شعرت براحة كونها تخلّصت من "حبيبها الذي تحتقره" هكذا كانت تسمّيه في سرّها، إنها تحتقره حقاً، لكنها تخاف أن تتركه، إذ لم يعد لها مكان في خانة المحترمين! لكن ما شوّهها من الألم، ويلبل أحاسيسها كونها دخلت التاريخ

وصارت نموذجاً لامرأة طوّحت بالأعراف والتقاليد، وعاشت عهراً علنياً وضاجعت رجلاً غير زوجها... صحيح أنها مطلّقة ومهجورة وشابة، لكن هذا لا يبرّر لها أن تعاشر رجلاً.. لكنها نالت عقابها، فالرجل الذي عاشرها لا يرضاها زوجة وأمّاً لأولاده، تزوّج من أخرى شريفة، عذراء، لا يهمّ هل عذريتها زائفة أم حقيقية لا يهمّ إن مارست الجنس مع عدد لا يحصى من الرجال، حذرة دوماً أن تحافظ على عذريتها...

تحوّلت بعد زواج حبيبها من أخرى إلى أسطورة حية إلى قصاص، فكل الأهل المدجّجين بالأخلاق، يعظون بناتهم بأنهن لو عشن حريتهن سيكون مصيرهن مثل إيمان... إيمان المختلة الغبية التي لا تحسبها صح، والتي كان عليها أن تتعلّم أبسط قواعد لعبة الزواج... اجعلي الرجل يلهث وراءك ككلب، تظاهري بالتعفف ولا تسمحي له بلمسك، عندها يلهث ليتزوّجك...

وحده ابنها جعلها تتماسك ولا تستسلم لليأس والاحتقار الذي تحسّه كيفما تحرّكت لكن أكثر ما كان يؤلمها إحساسها بالقرف والاشمئزاز من ذكرياتها معه، كيف قبلت أن تعاشر رجلاً سفيهاً ولا أخلاقياً مثله... كيف سمحت له أن يمتلكها، ترى أية حالة نفسية متأزمة دفعتها لترتمي بين ذراعي ذئب... بعد زواجه، التقته مراراً يقود سيارته، وحين كان يلمحها كان يقوم بإيماءات جنسية خسيسة ليذكّرها أنه استباحها وامتلكها... كان قرفها منه أقوى من ألمها... أكثر من احتقر إيمان هو عمها الذي منع بناته من التحدث إليها، فكنَّ يتجاهلنها حين يصادفنها في الشارع... عمها الذي كان يبالغ في إدانتها كي يخفي علاقاته الجنسية المتعددة مع النساء...

لم تتخيّل إيمان أن الخلاص كامن في نفسها، وبأنها مدعومة بطاقة حب هائلة تشعّ من قلب طفل صغير، ظل يحبها ويحترمها ويرتمي بين

ذراعيها مستمتعاً بقبلاتها...

كانت تخاطب نفسها بحنان: ابنك يا إيمان هو الوحيد في هذه المدينة الذي لا يحتقرك تكفي ضحكته وسعادته حين تشتري له أشياء رخيصة لكنها قادرة على جعله سعيداً، تكفي ضحكته لتحسّ أنها تبرّأ من دنس الماضي، وتستخف بهؤلاء الذين يقيّمونها ويبتلونها، بل صارت مع الوقت تسخر من مأساتها، وتخاطب الوجوه المتصلبة بالحقد بسخرية وتسألهم بخيالها: ترى كم ستة نبذ واحتقار حكمتم عليّ؟!

ومن قاع فضيحتها اهتدت للحقيقة، حقيقة حياة الناس وأفكارهم في هذا البلد، بل أدركت أنه لا يمكن للمرء أن يصل إلى الحكمة إن لم يقبع في الحضيض، فالحضيض يعطينا المعرفة الحقة. فكّرت بعشرات المسلسلات والمقالات، والحوارات التي تدور كلها عن الرجل الشرقي.

الرجل الشرقي، كم تحرّض في نفسها هذه العبارة مشاعر القرف والاحتقار الرجل الشرقي المتباهي أنه شرقي، والذي يفتخر أن أهم صفاته كونه عاجزاً عن التخلي عن شرقيته، لأنها شيء محفور في روحه كوشم، الرجل الشرقي هو الذي يبيح لنفسه أن يعيش حريته الفكرية والعاطفية والجنسية، ويحجب هذا الحق عن المرأة... خاصة حقها في التصرف بجسدها، الرجل الشرقي يكره جسد المرأة الحر يريده سجيناً دوماً مقموعاً، مكبوتاً، مُدججاً بأفكار وأخلاق يسنّها هو، يقدس العذرية ويؤمن أنها علامة الشرف الوحيدة، يربط شرف أخته وأمه وزوجته بشرفه... والويل لمن تعصى الأوامر، تصير ساقطة ومنبوذة وعاهرة... الرجل الشرقي مخادع، يتظاهر بالشرف والتمسك بالأخلاق، ويعيش في الأقبية المظلمة شهواته الحمراء المتأججة... شعاره في الحياة، لا تتزوّج المرأة التي تسلّمك نفسها قبل الزواج... وإياك أن تتزوّج امرأة عرفت غيرك... عيب أن تتزوّج فضلة رجل آخر...

وفي أحسن الأحوال حين يكون هذا الرجل الشرقي متنوراً وإنسانياً، فإنه يعترف أن المرأة كائن حي مثله، ولها نفس الرغبات والمشاعر، ومن حقها أن تعيش حريتها وإنسانيتها، لكنه يسارع للتأكيد أن كونه رجلاً شرقياً لا يسمح له بذلك... إن شرقيته تلبسه كجلده، فهل يستطيع الإنسان سلخ جلده!!

وحده ابنها الصغير جعل كفة الأمل ترجح، ولولا حبه الصافي القوي لغرقت في اكتئاب طويل ولاختارت راحة الهزيمة، لكن حين كانت تمسك يده الصغيرة البضّة وتمشي على إيقاع خطواته، ويقف عند بائع السكاكر أو الذرة، ويراها كيف تشتري له تلك الأشياء البسيطة التي تفرحه، مُشعراً إياها أن الماما قادرة على كل شيء وأنها مستقبله وأمانه... وحين تجلسه في حضنها في الحديقة البائسة الكئيبة، وتُبدع له قصصاً من روحها المتألمة، قصصاً فرحة، بهيجة كما لو أن الحزن والفرح وجهان لعملة واحدة... تشعر بسعادته، سعادته تقويها، وتشدّ عزيمتها وُتشعرها أنها أقوى من هؤلاء الذين ينبذونها...

ساعدها النبذ كي تتأمّل أخلاق الناس الحقيقية... أن تدخلهم واحداً واحداً إلى مشرحة وعيها، وكان عمّها أول من استدعته إلى مشرحتها... كيف لم يخطر لها من قبل أن تحلّل هاتفه اليومي الصباحي لوالدها! هاتف السم كما فهمته فيما بعد ولولا تربّعها في خانة المنبوذات لما فهمت حقيقة الاتصال الهاتفي اليومي بين عمها ووالدها، ففي كل صباح يهدي الأخ أخاه جرعة السم اللازمة لتسميم حياته وإقلاق راحته وإشعاره بالدونية... كان عمها يتصل بوالدها ليطمئن على صحته ويسأله عن ضغط دمه، يا سلام أي أخ محب هذا؟! ثم يبدأ يخبره بمباهاة وسعادة عن صفقاته الناجحة والفاحشة الأرباح في تجارة العقارات، وكان والدها يعيش ضيقاً مادياً قاهراً وليس لديه ما يعتمد

عليه سوى راتبه التقاعدي الهزيل لدرجة لا يكفي ثمناً لأدويته كان يسمع لأخيه ويقول له بصوتٍ منكسر: مبروك، مبروك... ثم يبدأ عمها يحدّث أخاه عن العرسان الأثرياء المتقدمين لبناته، كانت تتنصّت كل صباح على المكالمات الهاتفية بين الأخين، وتعجب من حقارة عمها وتلذّذه بمصاب أخيه، ففي الوقت الذي يغتابها الناس ويلوكون فضيحتها وبأنها عاشرت رجلاً رفض أن يتزوّجها واختار أخرى، وفي قمة أزمة والدها المسكين وهو يتفرّج على الناس كيف يلوكون سمعة ابنته شرفه... يتباهى أخاه بسمعة بناته العطرة وشرفهن، والعرسان الأثرياء من العائلات العريقة المتقدمين للزواج منهن؟!

كانت قد اشترت هاتفاً صغيراً للتنصّت على مكالمات الأخين، قايين وهابيل كما سمّتهما، وكل صباح تنزوي في زاوية نبضها تتصت لحديث الأخين، شاعرة أنها تتركّز في سماعة الهاتف، ساعدها على ذلك حالة الخرَس التام التي حلّت بينها وبين أهلها بعد تلوث سمعتها في المدينة، والجرح البليغ الذي تسبّبت به لوالديها كانت تحتاج أن تظل على تواصل مع ما يجري حولها، تحتاج لصوتٍ إنساني مهما كان فظاً وجارحاً، كانت كلمات عمّها تسوطها بلا رحمة، وكم من المرات كادت تفقد سيطرتها على أعصابها وتتمنّى لو تصرخ بعمها: كفاك تبجحاً بثروتك وعرسان بناتك يا قليل الذوق، ويا معدوم الأخلاق... أنت حقير وسافل، لا تحب أخاك، تهينه كل صباح وتسمّم يومه.

ترى كيف يتحمّل والدها هذا الذل الصباحي اليومي؟! لماذا لا يصرخ بأخيه الذي يصغره بسنوات: كفى، كفاك تباهياً وأنتَ تراني فقير، وقد تحوّلت ابنتي إلى جرح في قلبي... صرت أباً لامرأة سيئة السمعة، وما عدتُ قادراً على مواجهة الناس، كيف تدّعي أنك أخي وتحبني

وترغب بالاطمئنان على صحتي، وأنت لم تعرض يوماً مساعدتك لي. . . ولا يهمك أثاث بيتي العتيق المخلع. . .

وحين زوّج عمها في ليلة واحدة اثنتين من بناته، وأقام عرساً فخماً في أرقى فنادق المدينة، لم تدعُ، أسعدها أنهم لم يدعونها، لكن آلمها أن والدها أحسّ بقهر كبير لأن أخاه لم يَدعُ ابنته إلى العرس. . .

في غرش نبذها المثالي بدأت تتوصّل بروية إلى القوانين التي تحكم حياة الناس هنا، النفاق، والزيف، والادعاء، هي القيم التي تربط الناس مع بعضهم. . .

القانون الأول الذي توصلت إليه أنه يستحيل أن تحب أحداً وتحترمه بسبب رابطة الدم.

بدأت سام ذاكرتها تتفتّح واحدة بعد الأخرى، استعادت ذكريات غارقة في الإهمال لسبب وحيد كونها تخاف مواجهتها، تذكّرت أستاذ التربية القومية الذي كان يدرّس في ثانوية البنات، كانت في الصف العاشر مع مجموعة من المراهقات المتفتحات على الحياة، البريئات لدرجة أن أغنية عاطفية تدفع الدماء إلى وجناتهن. . . كان الأستاذ شاباً في الأربعينات من عمره، مولعاً بلبس بنطال أبيض ضيق وكان يتعمّد أن يجعل عضوه منتصباً، ومن وقت لآخر يلمسه بيطء كما لو أنه يدلّكه. . . لم تستطع أية من الطالبات التفوّه بكلمة، كنّ يصارعن مشاعر شرسة بالخجل والأذى، وهنّ عاجزات عن فهم ما يحصل. . . لدرجة أن المغبيات اعتقدن أن الأستاذ لا يعرف ماذا يحدث له. . . أو ربما يكون هذا هو شكله العادي. . .

مكّنتها سنوات النبذ أن تنزع القشرة الملساء والهشّة التي يختبئ الناس خلفها وتعجّبت كيف تمرّ السنوات مع هذا القدر الكبير من النفاق والخداع والإجرام المغلف بعبارة مطاطة: عادي. . .

كل شيء عادي... الرجل الشرقي عادي، الأستاذ العاهر: عادي... مفهومنا عن الشرف عادي قمع المرأة عادي... استبداد الرجل عادي... العمر المهدور في الكبت والقهر والاكتئاب عادي... راتب الاحتقار عادي... الحرمان والفقر عادي...

لم تملك وسيلة لتخفيف ألم روحها سوى تحليل حياة الناس حولها... أن تفكّ تلك اللوحة التي تشكّل حياتها، قطعة قطعة وتعيد بناءها...

هل يعقل أن يمرّ عمرها بين عجوزين... منقلين بحضورهما، خاصة بعد خسارتها لسمعتها وشرفها، وإلحاقها العار بهما...

لفترة طويلة ظلّت مستعبدة بفكرة أنها يجب أن تنال رضاهما وتقديرهما، كان يجب أن تختن نفسها، وتوئد حيويتها العاطفية كي تعيش معهما... لتحصل على رضاهما كإنسانة غدت ميتة روحياً وجسدياً...

باه، كم عذّبها ذلك الأرق اللعين مع تباشير الفجر، تجد نفسها مبحلقة في ظلال أثاث قديم والفجر على وشك الطلوع، شاعرة أنها تقرف من اللهاث وراء تقديرهما بل يحلو لها أن تسخر من وضعها وتقول: أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الذل والقهر... وتحسّ أن استماتتها للحصول على رضاهما ليس سوى نوع من الاستجداء...

كم عذّبها إحساسها الصباحي بالعقم، عقم الحياة في هذه البلد، افتقارها للحدّ الأدنى من احترام الحرية والاستقلالية، والأهم من ذلك انعدام إمكانية التغيير، لأن الكل استكان لطراوة العفن المتجذّر في الأفكار والنفوس...

كانت تتأمّل شخصيات الناس الذين تعيش بينهم، لعدم وجود شيء آخر تفعله فمنذ أن ضجّت فضيحتها في المدينة بأن عشيقها تزوّج امرأة

أخرى، حتى هبَّ الجميع لمحاكمتها بالنبذ والثرثرة والسخرية، في قاع ألمها تحسّ بنشوة، لم تفهم سرّ هذه النشوة، لكن التأمل والصمت الطويل جعلاها تهتدي لسبب نشوتها، لقد عرفت الحقيقة، حقيقة هؤلاء الناس، وحقيقة نفسها. . . من مثل الحقيقة يُشعرنا بالرضى. . .

ولم تتوقّع أن يحلّ داء الخَرس بينها وبين أهلها، فلم يعودا قادرين على تبادل أي كلام، صحيح أن علاقتها بهما مرّت بتخبطات كثيرة، لكن لم تتوقّع أن ينتهوا إلى داء الخرس، فظاعة داء الخرس لا تكمن في عدم القدرة على التحدث مع الآخرين بل لأنه نبّهها كم تمقت عيشها، أي ذل أن يعيش الإنسان عمره تابعاً لأهله، مضطراً أن يشاركهم السكن لأنه عاجز عن الاستقلال!!

نسبة كبيرة من زميلاتها في العمل قاطعنها، وصرن يتهرّبن منها، فسمعتهن العطرة قد تتلوث بسبب تلك المرأة الجامحة التي طوّحت بقوانين الأخلاق، وضربت عرض الحائط بالعادات والتقاليد. نبّهها داء الخرس لحقيقة حياتها، إحساسها الدائم بالإنهاك والعجز اللذين يثيرهما فيها والداها، تحسّ أن وجودهما تهديد لوجودها وأن هناك استحالة أن تقبلهما ويقبلانها، ثمة صراخ خفي مستتر في الجو، كما لو أن الهواء تكهرب، فهمت في فضاء عزلتها كيف لم تكن قادرة أبداً أن تجلس بجوار والدها، لأن كهرباء النفور تهزّها هزاً. . . وفهمت كم كانت مسكينة حين تبذل جهوداً جبارة لإقناع نفسها أن حياتها طبيعية وأن والديها رائعان ويجب أن تكون سعيدة معهما. . . كانت تنتابها نوب من فرط النشاط، فتكوي كومة من قمصان والدها وتمسح البيت، وتحضّر حلويات، وتقدّم لهما القهوة وهما مسترخيين في سرير شيخوختهما، خانقة إحساسها كم تمقت ما تقوم به، مرغمة نفسها على الإحساس بغبطة زائفة، مقحمة نفسها في استقبال ضيوفهم العجائز وسماع

الأحاديث ذاتها التي يكرّرونها كل مرة... لكن نوب النشاط المتفائل الزائفة سرعان ما تنطفئ، فتعود لتجهمها ونقمتها على طريقة عيشها مكبّلة بشيخوخة والليبن، ومفلولة براتب تافه يمنعها من الاستقلال بعيشها... لم تنجح أبداً في تشذيب نتوءات روحها المتمردة كما يشذب النجار قطعة خشب ويجعلها ملساء ناعمة...

توصّلت إيمان لحقيقة مهمة هي أنه من الخطأ الاعتقاد أن المصيبة تغيّر الإنسان في الحال، الحقيقة أن الهزّات القوية في حياتنا تبدّلنا بعمق لكنها تحتاج لزمن كي تنجز مهمتها... في الشهر الأول من دوي الفضيحة بأن الرجل الذي يفترض أن يتزوّجها قد تزوّج أخرى، وبأنها المطلّقة اللامبالية التي فقدت احترام الناس، عاشت مبلبلة على حافة البكاء دوماً، كانت عاجزة عن ضبط دموعها، تبكي دائماً، في الطريق، وهي تنزل من الباص، وهي تتحدّث إلى ابنها، وكانت تتعجّب من قدرة غددها الدمعية في فرز الدموع...

كان عقلها في الشهر الأول من الفضيحة مرضوضاً وعاجزاً عن خلق فكرة ومناقشتها، روحها ملتهبة بغضب أليم... ثم سقطت ضحية تساؤل يتردّد دوماً في عقلها: لماذا سارت حياتي بهذه الطريقة؟

كانت لا تملّ من طرح هذا السؤال عارفة أنها لن تجد له جواباً... مدركة أن هذه الأسئلة لا جواب لها أصلاً. تمشي في الأزقة محاذرة أن تلتقي بالناس، شاعرة أنها تجرجر وراءها أذيال حزن جاف، مجرد حزن كثيف نقي يفرد نسيجه على مساحة روحها، بدت حياتها أشبه بكيان كبير أجوف، ففي أعماقها خراب... وبعد أن تجاوزت طور الذهول وقبلت بالواقع القاسي، انتبهت للمرحلة الجديدة فقد جفّت دموعها تماماً، وانتبهت أن آلية إحساسها بجسدها وذاتها وشخصيتها قد تعطلت تماماً فما عادت تشعر أبداً بتميّزها الخاص وكينونتها، بل صارت تحسّ أنها

ليست سوى عضو في جسم كبير هو الأسرة، ما هي سوى نتوء ملحق بكيانين عملاقين هما أم وأب يؤويانها...

أدركت أن شيئاً جوهرياً في كيانها قد عُطب، واعترفت بهزيمتها وقرّرت الاستسلام، فليمر الزمن كما يحلو له، لن أعانده بعد الآن، لم يعد لي أحلام ولا مطالب ولا أهداف... لم أعد أحسّ بتأنيب ضمير ولا حسرة ولا أمل، ولم أعد أتساءل لماذا سارت حياتي بهذا الشكل المُهين والمؤلم.

هكذا تحدّث إلى روحها، بل أحسّت بالامتنان أخيراً كون الحياة حرّرتها من التعلق، وقتلت رغبتها بالرجل والحب، بل بدا شعور الحب بغيضاً ويحرّض في روحها الاشمئزاز... وآمنت أنه مَرض.

تماهت مع الجسدين العملاقين - كما تحسّهما - وقدّمت لهما ولاء الطاعة فانتشيا غروراً ورضى، كانت تجلس معهما إلى مائدة الغداء تحسّهما يمضغان اللقمة عنها، ويبلعانها ببطء، فتحسّ بحركة الطعام في بلعومها... وصارا يتبادلان حديثاً باهتاً، وابتسامات شاحبة... اعتقدا أنها نادمة على تجاربها، وأنها لن تسيء إلى سمعتهما بعد الآن... لكنها ظلت تشك إن كانا يدركان أي حزن وحشي ينهش أعماقها...

تحوّلت من ابنة إلى خادمة، تخدمهما بآلية وتهذيب، وتجلس خلفهما كل مساء بانتظار النعاس، تتابع بملل برامجهما التي يحبانها، لم تعد تتشاجر معهما مطالبة بالبرامج التي تحبها... ذلك أنها فقدت كل اهتمام ورغبة وخصوصية، وتساوت لديها كل الأمور... ولم تعد تغتاظ من جشاءاتهما وتثاؤبهما اللزج البطيء المتكرّر... وكانت تندسّ في فراشها الضيق دون أحلام تقبّل صغيرها وتغرق في النوم دون أرق، ودون دعم المنومات.

ورغم تأكدها أن إحساسها بالطمأنينة زائف، وأن الراحة التي تشعر

أنها مقيمة داخلها أشبه براحة الموتى، إلّا أنها كانت راضية كلياً عن وضعها الجديد كإنسانة عاثرة الحظ وفاقدة للاحترام ومنبوذة... ولم يعد شيئاً يجرحها أو يؤذيها... فمحاولات بعض الأطباء والمعارف التقرب منها كامرأة سهلة وبهدف مضاجعتها لا تجرحها، ولم تكن تعنّف هؤلاء الطامعين الوقحين، ولا تبذل جهداً لتوضح لهم أنها ليست كما يتصوّرون، وبأنها امرأة حرّة وليست سهلة... كانت تتجاهل تلميحاتهم وإيماءاتهم، ولا تردّ بكلمة... بل يحلو لها أن تتخيّل أنها امرأة من رخام فيملّون ويبتعدون، لكن أحدهم قال لها مُغتاظاً: من تظنين نفسك أتمثّلين علينا دور الشريفة!

لم تجرحها عبارته، بل على العكس أيقظت فيها شهية التأمل والتفكير، إذاً إنهم يعتقدون أنها تمثّل الشرف، بينما هي امرأة سهلة، تسلّم جسدها ببساطة لأي رجل!

تتذكّر عبارات لن تنساها مدى حياتها:

- احمدي ربك أن لديك صبياً وليس بنتاً... فمن يرغب بالارتباط بفتاة أمها سيئة السمعة.

- إذا وقعت البقرة، كثرت سكاكينها...

تحوّلت مع الأيام إلى عينين لاقطتين للصور، تخزّن وتخزّن صوراً ومواقف ثم تحلّل هذه الصور وتغوص بخطوطها، أذهلها العفن المختبئ خلف الصور، عفن الأفكار والأخلاق السطحية... ومن أعماق قلبها المختنق بسواد الحزن، ولد بصيص أمل خافت، فقد امتلكت موهبة الرؤية الكاشفة، تلك الموهبة التي لا يتمتّع بها إلّا المنبوذون، وبدأت شيئاً فشيئاً تشعر بسعادة أن صديقاتها انفضضن عنها...

لكن ما كان يقلقها حقاً إحساسها أن ما تعيشه ليس سوى سراب وجودها الحقيقي الذي ضيّعته، وأنها ليست سوى ظل باهت للإنسانة

ذات الطاقات الجبارة والغنى النفسي الهائل، تلك الإنسانة التي توارت لأن الواقع رديء والناس وحوش.

رغبة وحيدة لم تقتل داخلها وهي ولعها بحضور الأفلام الأجنبية خاصة تلك التي تصوّر حياة نساء مستقلات يعشن في بيت مستقل، يستقبلن الأصدقاء، ولديهن حبيب يعشن معه حرية كاملة، يقدن سيارة، ويتعشين في مطاعم فخمة ويشربن الكحول... كانت تتابع هذه الأفلام بافتتان كبير، وحسرة أكبر، وتجد نفسها رغماً عنها تقارن بين حياتها وحياة أولئك النسوة... فتضحك ضحكة اليأس الجافة وتستسلم للإحساس بالعبث المطلق، لأنها عارفة أن العبث وحده يقلّل ويبدد إحساسها بفداحة خسائرها، وأنه يقودها بسلاسة ورقّة إلى مواجهة النهاية... النهاية المؤكدة لكل البشر: الموت.

قبل أن تصبح منوذة كانت تخشى الموت وتؤمن أنه قهار ومؤلم... لكنه صار الأكثر رحمة في حياتها... إنه ينتقم لها من هؤلاء الذين يحتقرونها، سيأتي الموت ويخرسهم إلى الأبد، ويرميهم في حفرة تحت الأرض... رغماً عنهم سيتساوون معها... كلنا بشر، كلنا أموات.

صارت تجد تسلية في الفكرة ونقيضها، فيحلو لها أن تتخيّل أنها كان يمكن أن تنبع، وتفتل لو أنها ابنة أسرة متعصبة، تؤمن بجرائم الشرف، ويفرز خيالها للتو الفكرة المناقضة، بأنها كان يمكن أن تعيش بحرية ويكون لديها عشيق، وسواء استمرت معه أو استبدلته بآخر، فإنها تظل مُحترمة ومُقدرة، لو أنها كانت تعيش في مجتمع متحرر... كانت تبتسم بمرارة وهي تستحضر الأفكار ونقيضها إلى فضاء تأملها الموحش... ومن خلال تأملاتها الطويلة تحسّ بنكهة الحياة الحقيقية، تلك الحياة التي يُصر هؤلاء المتخلفون على سحقها، لأنها تهدّد وجودهم، وتفضح عفن أفكارهم وزيف أخلاقهم.

وذات مساء، وهي متربّعة على فراش وحدتها، تقرأ شعراً صوفياً، أحسّت برغبة بالكتابة... أخذت شهيقاً عميقاً وكتبت: لم أعد أعيش داخل نفسي... بل هم يعيشون داخلي... يجب أن أتحرّر من هذا الاحتلال.

في الحقيقة انتبهت أن وعيها لذاتها قد تلازم مع وعيها بمرور الزمن، كما لو أنه لا يمكن فهم أحدهما دون فهم الآخر، فكلما تعاقبت الأيام فهمت أكثر التحولات التي تطرأ عليها، وتحسب الأشهر التي مرّت وهي منبوذة ومُحتقرة، وكيف ذوت رغباتها فلم تعد تحلم بالحب، ولا بالتسلية التي تولدها الهوايات واللقاء مع الناس، تنبّهت أنها كادت تقتنع أن من واجبها الإحساس بالإثم والذنب، وأن ما قامت به رهيب، معاشرة رجل على الملأ وهي مطلّقة، لم تراع أهلها والعقلية الاجتماعية ولم تحترم صغيرها... اللعنة على شهية الحب والجنس والحياة، إنها لا تؤدّي إلّا إلى المصائب وخسارة أهم ما تملكه المرأة: سمعتها.

كانت تملك كل الفراغ والزمن لتتأمّل حياة الناس، فقرها المخجل بكل ما يغذّي العقل والروح، بساطتهم الأقرب للسذاجة، تلذذهم بمصاب الآخرين، ولعهم بأحكام القيمة تحديداً بإدانة النساء... كانت تسترخي وتبتسم وهي تغوص أكثر فأكثر في عقلية الناس ونمط حياتهم، لكنها سرعان ما تتشنّج وتغضب حين تتسلّل إلى رأسها فكرة تذكّرها أنها تنتمي إليهم... لم تكن تطيق هذا الشعور، وتحاربه بشراسة، إنها لا تطيق الانتماء لهؤلاء الناس، لأنها بأعماقها تحتقرهم أيضاً، ما حاجتها للانتماء إلى بشر ليس فيهم ذرّة تعاطف وتفهم ورحمة، ما حاجتها للانتماء لقطيع يؤمن أن شرف المرأة يكمن بين فخذيها، وأن شرفهم متعلق بما بين فخذي امرأة!!

أعطاها قحط الحياة اللامحدود حولها كل الوقت لتأمل حياتها

وحياة الناس حولها، وفي كل مرة تشعر أنها في كفة، وهم جميعاً في كفة أخرى... صارت تستمتع بتلقي نظراتهم الشامتة وتعليقاتهم الوقحة المبطنة... كأن تقول إحدى الممرضات لزميلتها:

- انتبهي على زوجك، خطف الأزواج دارج هذه الأيام...

تنغرس الكلمات المسمومة كمسامير في قلبها، لكنها لا ترد... لماذا يجدون لذّة في تجريحها، لماذا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الإحساس بشرفهم إن لم يجرحوا الآخرين، إن لم يكن هناك كبش فداء جاهز دوماً ليحمل خطاياهم... ليحمل دنس روحهم الأفظع بما لا يقاس من دنس الجسد.

لكن صمت الشماتة يجرحها أكثر من كل التعليقات، ففي الصمت تزداد رهافة الإصغاء وتسمع أدق ذبذبات المشاعر...

استسلمت للخمول، الشكل المثالي للحياة في مدينة البلادة، ومن وقت لآخر تحسّ بهدير البراكين المستترة والصراعات الكامنة خلف لوحة الخمول... سهم من نار يعبر اللوحة الجامدة أحياناً، وتشعر أنها تفوز بومضات وضاءة أشبه برؤى تنبؤية عن المستقبل، فتحسّ بتوق عميق وحاجة لإحداث تغيّرات عميقة ومؤثرة في حياتها... لكن تعرف أن الخمول هو المنتصر دوماً...

الخمول! كيف تصفه، هو أن تستيقظ مقطبة الوجه، عاجزة عن الابتسام في وجه يومها، تحتسي القهوة دون أن تسمع نشرة الأخبار أو أغاني فيروز، متحمّلة انتهاك صباحها بجعير مذياع أو تلفاز الجيران، متجاهلة تجهّم وجه أبيها الذي يشعرها كل لحظة أنها أفقدته شرفه...

يتقمّصها الخمول بشكل مكثّف في مشفى القذارة، مشفى قذر فوضوي مقرف تشعر أن الأحاديث أشبه بماء آسن، تنصت لأحاديثهن عن شحّ الراتب وفساد التعليم وغلاء الأسعار... يستمر الكلام حتى

انتهاء الدوام... تحسّ بالسأم حين تخدم مَرضى يتنافسون في تخلفهم وفقرهم، وبعدها تعود إلى حظيرة الأسرة، وما إن تدخل بيتهما حتى تتحفّز لمهام أبدية تكرّرها كل يوم، كوم من الصحون المتّسخة بشخوختهم، ثيابهم الفوضوية المتناثرة فوق كراسٍ عمرها قرن، طقم أسنان والدتها الذي تنساه كل مرة في مكان، نور المرحاض الذي ينسى والدها إطفاءه دوماً السجادة المتّسخة ببقايا قشر ثوم أو ليمون، إلى ما هنالك من تفاصيل تزهق روحها.

ما إن تضع المفتاح في الباب حتى تشعر أنها في الثمانين، يتساوى عمرها بعمرهم يتفجّر في قلبها مشاعر رفض عنيفة، تعصف للحظات كعاصفة في فنجان، ثم تُجهض من تلقاء ذاتها، تدرك كل مرة ذل التبعية... وتزجّ نفسها في دوامة عمل آلية شاعرة أنها خادمة وليست ابنة على الإطلاق...

تلتهم طعام الغذاء بآلية وهي واقفة دون شهية، يفرز خيالها صورة حيوان يأكل...

وقبل موعد عودته، تشفى، تغيب كل المشاعر السلبية من روحها، وتدندن بصوت خافت بأغانٍ عاطفية، إنها تعبده، هذا الصغير الذي يبقيها وحده متشبّثة بالأمل والحياة، تفتح له الباب قبل أن يقرعه، تميّز وقع أقدامه على الدرج، كل يوم تستقبله باللهفة ذاتها، والحب المرتعش كشرارة دافئة تحت جلدها، تحب تأمل وجهه المضاء بالعرفان والحب للماما، تحسّ بنظرته الطفولية أنه يشكرها على حبها ووجودها في حياته... وجودها الذي يعوّضه عن أب غائب... تتأمّله يأكل بشهية وتسأله عن المدرسة والدروس... تحب إصراره أن ينزع ثيابه لوحده، وتحب حين يأخذ شهيقاً عميقاً مبدياً إعجابه برائحة بيجامته العطرة... وحين تحمّمه في الحمام العتيق يزقزق فرحاً وهي تدعك جسده بالليفة

الطرية والصابون الخاص بالأطفال تنتشي بضحكاته، وتقبّله حين يرشقها بالماء، أو حين يصرخ: ماما، انظري ثمة صراصير في البلوعة...

لا بأس، أتعرف كل يوم أرش دواءً قاتلاً للصراصير، لكنها تقاوم...

تحب أن تقول له تقاوم مثلي...

تفكّر وهي تجفّف جسده وتلبسه ثيابه، أنه معجزة حياتها، وتهدهد روحها الوحيدة وهي تكرّر كل مرة بمتعة أكبر: ابني سعيد هذه معجزة حياتي الحقيقية...

شهر بعد شهر، سنة تلو أخرى... والسؤال ذاته يطلع من روحها كل يوم: إلى متى، إلى متى؟! إلى متى سأتفرّج على عمري هارباً مني... إلى متى سأعيش عمري لاطئة على عتبة شيخوخة أهل يصلبني وجودهم، ويصلبهم وجودي...

ثم ما معنى أن تستيقظ أحياناً مع شعور مؤكد أن التغيير لا بدّ حاصل... أتنتظر معجزة، لكن هل التغيير ممكن في هذا البلد دون معجزة!!

• • •

صار البيت على الهيكل، تكسوه بخيالها، تتخيّل غرفة ابنها الزرقاء، إنه يحب اللون الأزرق، ستطلب من المتعهد أن يدهن جدران غرفته باللون الأزرق الفاهي وستشتري له أثاثاً أنيقاً من اللونين الأبيض والأزرق، أية سعادة تغمرها، وهي تتخيّل ابنها جالساً في غرفته أمام شاشة الكمبيوتر، أو يحلّ وظائفه، لكنها في كل مرة تحسّ بمرارة تسكب في حلقها وقلبها، مرارة تعرف سببها ولا تستطيع تجاهله. فهذا البيت هو بيت الرشوة، بيت شيّدته من المال الحرام، من بيع الأدوات

الجراحية... تكاد تنفجر من حالتها، لماذا تعجز أن تتأقلم مع شخصيتها الجديدة لماذا تظل متوترة وقلقة، وتشعر بالخزي في أعماق كيانها؟! يا إلهي كيف يعيش هؤلاء المرتشون؟! كيف يتأقلمون مع ذاتهم؟! كيف السبيل لتجعل هذا الزمن أقل وطأة؟! ولماذا صارت تخاف وجهها! وجهها الذي غدا أجمل لأنها تمكّنت من شراء الكريمات الباهظة الثمن والمكياجات الشهيرة... لكنها تخشى أن تقرأ التعابير التي يعكسها وجهها الجديد كمرتشية ولصة! كانت تجلس لساعات في مقهى بحري أو مقهى رصيف، تدخّن الأركيلة وتشرب البيرة بشراهة لتخدّر أحاسيسها لتوصل كل مرة إلى النتيجة ذاتها، إنه لا يمكن للإنسان أن يكون نفسه في هذا البلد وأنه - رغماً عنه - سيدفع خارج ذاته ليصير إنساناً آخر... ألم تجبر أن تغدو مرتشية، وأن تدخل حلقة الفساد... كيف بإمكان ممرضة راتبها بالكاد يكفي لسدّ جوع المعدة أن تؤمن حاجاتها وحاجات ابنها وتحصل على بيت! أليس من أبسط حقوق الإنسان في الحياة أن يكون له مأوى... بيت صغير يعيش فيه... أكان باستطاعتها الحصول على بيت لولا الشاطر، أي نهب المشفى؟!

تتعمّد أن تزور البيت الجميل على الهيكل كل فترة، تتجوّل في ساحته الصغيرة تدخل غرفة ابنها، وغرفتها، ثم تقف وسط المطبخ تكسوه بخيالها، تحسّ أنها راسخة لأنها مالكة، تحسّ بوجودها وكيانها... مع أهلها تشعر أنها تابعة دوماً مجرد ظل لهما، أو قطعة مكملة لوجودهما، قطعة ثانوية يمكن الاستغناء عنها بسهولة دون أن يتأثر الهيكل الأساسي...

ثم تخرج إلى الشرفة، لترى من خلال صف العمارات المتجاورة، شريط البحر في آخر المشهد، تبتسم، وحده البحر قادر على انتزاع ابتسامة صادقة تشعّ من روحها... تكفيها تلك البقعة الزرقاء، إنه البحر

صديقها الوحيد، جارها في سكنها الجديد... عليها الآن أن تتشاطر لتؤمّن المال اللازم لإكساء الشقة...

يا لعجائب الصدف، ففي الوقت الذي كانت تفكّر فيه كيف السبيل لتأمين المال الوفير لإكساء الشقة، علا رنين هاتفها الخليوي، أظلم وجهها وأخذ قلبها يطرق بقوة وهي تقرأ رقم قاسم، طوال سنوات لم يتغيّر رد فعلها حين يتصل بها، طلب أن يلتقيها في الحال، وبدا صوته لطيفاً على غير العادة.

واقفة في مكتبه متلهفة لمعرفة السبب الملحّ لرؤيتها... كان لطيفاً، لم تحتمل لطفه، إنها تفضّل وقاحته وفظاظته، لأول مرة يجلس مقابلها ويترك مقعد مكتبه الفخم... قال وابتسامة مصطنعة مرتسمة على شفتيه:

- اسمعي يمكنك أن تعتبري أن خبطة العمر قد ارتمت تحت قدميك، وستمكّنين خلال شهر من إكساء بيتك وشراء الأثاث أيضاً...

تسرّع قلبها، وجفّ حلقها، ففغرت فاها محاولة التكلم، لكنها عجزت، شعرت أنها قربة مثقوبة، وأن كيانها يتداعى تماماً في حضرته... في كل مرة تتحدّث إليه تتخيّل أنها مثل قنديل البحر سرعان ما يذوب ويتلاشى على الشاطئ تحت سياط الشمس.

أشعل سيجارة، وقدّم لها سيجارة، فسحبتها بيد مرتعشة، ضحك من رجفان يدها وقال: أراك متوترة.

لم تعلّق بكلمة، بل أخذت تنفث الدخان، شاعرة أن كل كيانها يحتاج تلك السيجارة السحرية، ودون أن تستأذنه، سحبت سيجارة أخرى وأخذت تنفث الدخان بنهم... قال بصوت حاد:

- اسمعيني دون أن تسألي أو تقاطعي، خلال أيام سنستبدل جهاز التخدير في غرفة العمليات الثالثة، بجهاز مطابق له تماماً لكنه معطوب...

لم تستطع أن تمنع شهقة ذعر من الانفلات، فزجرها قائلاً: قلتُ لك اسمعيني حتى النهاية دون أن تعلّقي بكلمة...

- لا تخافي، قلتُ لك الجهاز المطلوب مطابق للجهاز الموجود في العمليات، لا يمكن لإنسان أن يميّز بينهما... وقد رسمنا الخطة، فثمة باب لا يعرف بوجوده أحد في قبو المشفى، سيقوم عاملان بإنزال جهاز التخدير بالمصعد حتى القبو، وسيحضران بدلاً منه الجهاز المطلوب، وأنت مهمتك فتح الأبواب الموصدة...

أطرقت شاعرة أنها تغوص شيئاً فشيئاً في حفرة معتمة مملوءة بمادة لزجة كريهة الرائحة، انفلت سؤال عفوي منها: لكن أطباء التخدير سيعرفون أن هذا...

قاطعها: لن يعرفوا، الأجهزة تتعطّل كما تعرفين، بل كوني على ثقة، سيفرحون لأن العمل قد توقّف، عندها سيمكنهم تركيز جهودهم في المشافي الخاصة...

تجرّأت ونظرت في عينيه، هالها تعبير القسوة في نظرته، إنها تحسده وتخاف منه ترى ما طينة هذا الرجل، كيف يحصّن روحه ضد الخوف؟! لِمَ هو واثق أن كل شيء سيسير كما يشتهي ويخطط، من يدعمه بقوة ويحميه؟! لا تجرؤ على سؤاله...

تمنّت أن تسأله عن عمولتها وكما لو أنه قرأ أفكارها، ضحك وهو يقول: ستكون عمولتك مرتفعة جداً، مئة ألف ليرة، أي ما يعادل رواتبك عن سنة ونصف.

- لكن جهاز التخدير ضخم وله وصلات عديدة، قد يرى الحارس الليلي العمال يجرّونه أو...

قاطعها: يا إلهي، قلتُ لك كل شيء مُحكم بدقة.

قدّم لها مجموعة متنوعة من علب السجائر الفاخرة، قال وابتسامته

المصطنعة ترتسم على وجهه الرخامي: هذا حلوان العملية.

فكّرت وهي تمشي في الشارع أن ضبط انفعالاتها أمر في غاية الصعوبة كيف عليها أن تسيطر على تخبطات روحها وأفكارها الأشبه بأمواج عاتية، هل توافق؟

لكن هل باستطاعتها ألا توافق؟! لقد انجرفت في الطريق، هل تستطيع قشّة أن تعاكس مجرى الماء المتدفق! فرز خيالها صوراً لبيتها وقد تمّ إكساؤه... عليها أن تنتقي البلاط الذي أعجبها في الفيلم العربي الذي شاهدته مراراً... بلاط بديع أبيض مزيّن بمربعات سوداء صغيرة في زواياه...

أحسّت بدوار خفيف وهي تمشي، ربما لأنها دخنت بشراهة، شعرت أن شيئاً يمسك بها، وأن كل كيانها في دوّامة، مرّت أيام وهي تعيش في تخبط لا يرحمها عارفة بقرارة نفسها أنها ستوافق، وستفتح باب غرفة العمليات للعمال ليحملوا جهاز التخدير ويحضروا الآخر المعطوب...

عاشت أياماً تتعذّب فوق نيران الوجوه، وجه ابنها ووجه والديها المسكينين حتى وجوه صديقاتها في المشفى تكويها، كم تحسّ بالخجل والخزي وهي تجلس وسط الممرضات الشريفات اللاتي لم يتورّطن بالفساد مثلها... لم تعد تشعر أنها تنتمي لهن، فقد تأكلت خيوط الألفة التي تربطها بهن، تشعر أنها تنتمي إلى مكان غريب موحش بارد ومظلم، لا تسمع فيه سوى صدى أنفاسها الخائفة.

وكلما اقترب موعد تنفيذ العملية تحسّ أن مرارة روحها تتكثّف أكثر وأكثر، تنظر بحذر وبطء إلى وجه صغيرها فتشعر أنها لا تراه، فثمة غشاوة على عينيها، قلبها ثقيل ثقيل كما لو أنه من حجر...

ترى هل يتحجّر القلب مع الزمن؟ أم أن قلب اللصوص وحده

يتحجّر؟ تبلبلت أحاسيسها واختلطت، فشعرت أن الزمن كيان يمكن لمسه، أو شيء مرئي... وأحياناً تحسّه أقرب إلى شبح، وأحياناً يشبه طريقاً أو مجرى نهر...

تدهشها قدرتها على التمثيل، إذ تبدو مسيطرة على نفسها، عارفة وحدها مدى هشاشة أعماقها واضطراب روحها، إنها تعاني من أكبر مصيبة في العالم وهي أنها تشعر كل لحظة أن عدوها داخل نفسها، تحشر نفسها وسط الناس، وسط زميلاتها في العمل، ووسط أسرتها، محاولة أن تهدّئ روحها، لكن عبثاً، فلا شيء يمكن أن يخفّف جنون اضطرابها... تفكّر في زميلاتها العابرات، تشعر أن روعتهن تكمن أنهن لا يشعرن أنهن فقراء...

تسكّع في الشوارع والأزقة، تجد عزاءً في رائحة القمامة، تحب أن تتخيّل أنها رائحة روحها المتعفنة، تشعر أنها ظل لإنسانة كانتها ذات يوم، تتباطأ خطواتها وتتوقف عن المشي كما لو أنها تزن ثقل مصيبتها، بعد يومين التنفيذ، مساكين هؤلاء المرضى الموعودين بإجراء عمليات جراحية في الغرفة رقم 3 من قسم العمليات، سيقولون لهم جهاز التخدير تعطّل... ولن يعرف أحد أن الجهاز سُرق... تتخيّل أنها ستقبض مئة ألف، يا سلام، أليس ملمس المال كفيلاً أن يشفي كل تخبطات روحها...

لكن أي قلق يفترس روحها، هل ستتمّ العملية بنجاح؟! وماذا لو سقطت في الفخ!... تستنجد بوجه قاسم، تحسده على ثقته بنفسه واطمئنانه أن كل شيء سيسير كما يشتهي... تحاول أن تهدّئ روحها بأنها مضطرة لسلوكها هذا من أجل تأمين مستقبل ابنها، ستهديه البيت الجميل حين يصير شاباً... لكن في أعماقها خوف فظيع لم تعرف مثله في حياتها، إنها تخاف على وحيدها من المال الحرام، ماذا لو عرف أن

أمه أعدته هذا البيت من نهب المشفى؟! أية طعنة ألم وغدر ستوجّهها للابن الطاهر؟!

لكن، كيف سيشعر وهو يقتحم الحياة بلا سند، شاب فقير محبط، يلهث وراء وظيفة، بالكاد تطعمه خبزاً... ألن يكون ألمه أكبر ويأسه قاتلاً... ألن يشعر بالأمان والثقة بالنفس وبالحياة حين تؤمّن له منزلاً جميلاً، وتدعمه بمبلغ من المال يساعده في حياته في مجتمع يتفنّن ويتلذّذ بتعذيب الشباب وإذلالهم...

في كل مرة، وفي آخر جولاتها وتخبطاتها الفكرية، تتوصل لقناعة راسخة أنها تلوث يديها عوضاً عن ابنها، تحميه من التورط في سلسلة الفساد وتعهير الذات... ترتكب المعصية بدلاً عنه... فإن تعيش في هذا المجتمع يعني حتماً أن تتهر روحك وتلوث يديك...

تمّت العملية بنجاح مذهل، شعرت كأنها تحضر لقطة من فيلم سينمائي، الرابعة فجراً، فتحت باب غرفة العمليات دون أن ترتعش يدها، تحفّ بها صور تدفّقت من ثقب في ذاكرتها، صور نساء مجرمات متواطئات مع رجال مجرمين، ولصوص محترفين، أنزلوا الجهاز في المصعد إلى القبو، وأخرج من باب خشبي عتيق في آخر رواق القبو، ثم أحضروا الجهاز المعطوب ووصلوه بالوصلات الرئيسية... قبضت المئة ألف ليرة ملفوفة بورقة جريدة، لم تتّسع حقيبتها للرزمة، فأحضرت كيساً من خزانتها في قسم العمليات، وعادت فجراً إلى البيت يلحقها صوت ساخر لا يكفّ عن تكرار عبارة: مبروك المئة ألف.

وجدت أمها جالسة على مقعدها المعتاد في الصالون، تقطع الفاصوليا، أحسّت أنها تنهار، وتمنّت لو تركع بجانب تلك المرأة النقية وتبوح لها بكل شيء كل شيء... ابتسمت لها أمها وقالت: تبدين مرهقة، كيف حال صديقتك.

قالت: بخير، لقد أعطيتها إبرة مسكّنة.

- الله يعطيك العافية...

جعلتها تلك العبارة تسبح للحظات في سماء وردية دافئة... ياه أية روعة أن يرحمنا الله، أن يعطينا الراحة والعافية... تظاهرت أنها تبحث عن شيء في المكتبة فيما لم تكف عن تأمل يدي أمها المعروقتين تقطعان الفاصوليا، انسابت دموعها حارقة وهي تردّد لروحها الملتهبة بالألم: "أحتاج يديك الطاهرتين يا أمي تمسحان على رأسي" لكنها ادركت باعماقها أنها لم تعد تنتمي لأمها، وتساءلت بيأس واحتقار لذاتها: ترى هل تتوقّع إنسانة نقية طاهرة مثل أمها أن تسلك ابنتها هذا السلوك المشين؟!

تسلّلت إلى غرفتها، الملاك نائم ركعت بجانبه وحاولت أن تحزر أحلامه، إنها تعبده تعبده، لكنها لم تستطع أن تلمسه ولا أن تقبّله لأنها لا تستحقّه، يداها ملوثتان بالإثم، روحها أيضاً...

منذ أن دخلت حلقة الفساد صارت تنتابها نوب ذعر من أن يتمكّن الناس في الحياة الثانية بعد الموت أن يروا سلوك بعضهم البعض... وأن يتفرّجوا على سلوكياتهم الخفية...

يفترسها الذعر حين تسيطر عليها هذه الفكرة، وتتخيّل حشداً من الناس، ابنها وأهلها وزميلاتها في العمل، وجيرانها ومعارفها يتفرّجون على ممارساتها المشينة في اختلاس الخيوط والأدوات الجراحية... ياه أية مصيبة هذه...

لم يعد بإمكانها تحمّل المزيد من آلام روحها، دسّت رزمة المال في قاع الخزانة بين كنزاتها الصوفية، أخرجت من حقيبتها إبرة فاليوم، وزرقت نفسها بالمخدر ليبتلعها في غيبوبة رحيمة... ابتسمت للمخدر القوي الأقرب للشلل الذي غزا أطرافها أحسّت أنها نسمة خجولة تهبّ

في يوم قائظ وسرعان ما تنطفئ... غطاها النوم برحمته، الرحمة الوحيدة التي تطمع بها...

• • •

أسرعت إيمان تشتري البلاط والسيراميك لشقتها، وكلّفت متعهداً يعمل بالإكساء عرّفتها به صديقتها، لم تكن لهفتها لإسراع الإكساء سوى رغبة دفينة بالتخلص من لعنة المئة ألف ليرة، إذ تقمّصها شعور قوي أن ثمة لعنة مختبئة في المئة ألف... منذ تورطها في سلسلة الفساد صارت تشعر أنها تأوي إنسانة أخرى في داخلها، إنسانة غريبة عنها، تبلبلها، والأسوأ من ذلك أنها تشاركها عيشها، تقاسمها كل شيء، فإذا جلست مساء لتقرأ، تشعر بتلك الإنسانة الغريبة في داخلها، تشرئب برأسها لتتلصص على قراءاتها، تحاول أن تطردها فتعجز، حتى وهي تستحمّ تشعر بنظرات تلك الغريبة تتفحّصها، وأحياناً تستيقظ من نومها شاعرة بثقل حضور لشخص ما، لم تستطع أن تتعرّف على صفات تلك الغريبة القابعة في روحها، لكنها متأكدة أنها لا تملك ذرّة مشاعر، وأن أحاسيسها متصلّبة مثل الإسمنت... وبدأت إيمان تقلق من تغيّرات شخصيتها، فلم تعد قادرة على الشعور بأية حيوية ومَرح، شيء جوهري عُطِبَ في روحها، ثم بدأت تشكّ بكل مَن حولها، عجباً كيف اقتنع والداها أنها حصلت على تلك الشقة عن طريق قروض سحبتها على راتبها، وعن طريق إيهامهما أنها تعمل في مشافي خاصة...

ألا يخطر ببالهما أن يحسبا كم من المال تجني مجرد ممرضة مهما كانت نشيطة؟!

بل صارت تفكّر في لحظات عديدة أنهما متواطئان ضمنياً معها ويشجّعانها بتغاضيهما وصمتهما على المضي فيما تقوم به من مخالفات

قانونية، المهم أن تحصل على شقة، المهم أن يسيل المال بين يديها، ألم يقدّم لهما هذا الزمن دروساً لا نهاية لها أنه يستحيل على إنسان شريف أن يمتلك بيتاً أو أي شيء... وأن الراتب الهزيل بالكاد يسدّ جوع المعدة؟! وتحوّلت شكوكها بوالديها لشبه يقين حين بدأت تقارن بين فضولهما الكبير لمعرفة أصغر تفصيل في حياتها، مع مَن تتكلّم؟ لماذا تأخرت؟! مَن تعاشر؟... وبين صمتهما التام حول موضوع الشقة، لا يسألان من أين تتدبّرين أمورك؟ كم كلّف البلاط؟ وكم ثمن السيراميك؟! أليس الصمت أكبر تواطؤ...

بعد ثلاثة أشهر من تبديل جهاز التخدير، تمكّنت إيمان من سرقة مجموعة هامة من الأدوية الإسعافية، خاصة الدواء الذي يحلّ الخثرات الدموية، وقبضت عمولتها في كل مرة تقبض عمولة تحسّ أنها بلا قلب، وتتخيّل نظرة حزن عميقة في عيني ابنها، فتسارع لرشوة ما تبقّى من ضميرها وتشتري له هدية... ترى هل سيعرف ذات يوم أن الهدايا التي تمطره بها والدته هي محاولات لإسكات عذاب ضميرها ولاسترضائه بطريقة ما، عساه يصفح عنها ذات يوم، حين يكتشف أن الماما التي اعتقدها نزيهة وأخلاقية... إنسانة باعت ضميرها ووجدانها، وخانت عملها الإنساني...

عرفت إيمان أن جهاز التخدير الذي تمّ استبداله قد انتقل إلى مشفى خاص دُشّن حديثاً، وأن ثلاثة من الأطباء الموظفين في المشفى الحكومي يملكون أكبر أسهم في المشفى الخاص... إذاً ثمة تواطؤ صريح وواضح بين هؤلاء الذين تراهم كل يوم متأنقين، مهذّبين منتفخين كطواويس من الغرور... هؤلاء الأطباء الموظفين في مشفى حكومي يقومون بسرقة أجهزتها ونقلها لمشفاهم الخاص... وهي تسهّل الأمور وتقبض العمولة... لكنها لم تستطع أبداً إسكات ضميرها وهي ترى كل

يوم غرفة العمليات رقم 3 وقد أُغلقت، وقدّمت عدة طلبات لإصلاح جهاز التخدير، وقدم العديد من المهندسين الذين فحصوا الجهاز ولم يعرفوا سبب عطبه...

كانت تجتمع بهؤلاء الأطباء كل صباح في جناح العمليات، تتأمّلهم خفية، تحسّ بقرف من مظاهر الاحترام الأقرب للتبجيل التي يعاملهم بها من حولهم... تتمنّى لو تقف وسط استراحة العمليات وتصرخ: هؤلاء لصوص لصوص لصوص أنيقون... عليكم أن تبصقوا عليهم وتحتقروهم... لكنها ترشف معهم القهوة وتشاركهم الأحاديث اليومية المملّة ذاتها، صارت مشغولة حتى الهوس بفكرة هل يعرفون أنها متواطئة معهم، ترى هل أخبرهم قاسم أن التي تفتح لهم أبواب النهب هي فلانة رئيسة قسم العمليات... ولم تهمّها هذه الفكرة. ماذا يتغيّر إن عرفوا أم لا؟! فهي تقف معهم في الخانة ذاتها، وإذا احتقروها ستحتقرهم... لكن من يتحدّث عن الاحتقار والاحترام... ثمة مصلحة جشعة أنانية تتحقّق على حساب بشر مساكين ينتظرون العطف والاهتمام في مشفى مُنتهك ومسلوب...

وكم كانت صدمتها مروعة حين عُيِّن أحد هؤلاء الأطباء اللصوص مديراً للمشفى واختنق مكتبه بباقات الزهور الأنيقة، الملفوفة بشرائط كُتب عليها كلمات التبجيل والاحترام... أحسّت إيمان بالقرف والسخرية، يا سلام اللص يكافأ بأن يصير مديراً!

لم يتوقّع أحد أنه سيكون بهذه القسوة، فمن الأيام الأولى لاستلامه إدارة المشفى الحكومي أصدر أربع عقوبات قاسية بحق أربعة ممرضات نقلهن إلى مستوصفات بعيدة، ووقّع على ستة عقوبات بحسم 10% من الراتب لمدة ستة أشهر لإداريين متّهمين بالتقصير بواجبهم... ثم عقد اجتماعاً عاماً لكل العاملين في المشفى، خاصة الممرضات والأطباء تكلّم

فيه بلهجة تهديد صريحة بأن أي تقصير مصيره العقاب، وأن الانضباط واحترام العمل أساس النجاح وحب الوطن... بدا متجهّماً ومتكّبراً وهو يتكلّم، وبدا أنه اتّخذ قراراً الا يبتسم أبداً مهما حاول من حوله التودّد له ومجاملته... كانت إيمان تتأمله عارفة وحدها أنه سرق جهاز التخدير ووضعه في مشفاه الخاص... أفرز خيالها العديد من السيناريوهات تصوّرها واقفة في وسط قاعة الاجتماعات، تقول له أمام الجميع بسخرية واحتقار أنت لص يا حضرة المدير، وتحاضر بالشرف والأخلاق...

بعد أقل من شهر من استلام أحد الأطباء اللصوص إدارة المشفى الحكومي طلب منها قاسم أن تعطيه أحد أجهزة التعقيم في المستودع، وحين رفضت مذعورة وأكّدت له أن كل غرض وجهاز في المستودع مسجّل في سجلات المشفى، أكدّ لها أن العملية سليمة، فسألته هل الجهاز سينتقل إلى المشفى الخاص للمدير... فلم يرد بل رشقها بنظرة غاضبة وهو يقول لها إن الأسئلة ممنوعة وذكّرها أن عليها أن تحترم الشرط الرئيسي للعمل معه وهو عدم السؤال مهما بلغ بها الفضول... لكنها أصرّت ووعدته بالكتمان، فاعترف لها "أن نعم" وبأن لا خوف عليهما أبداً، لأن المدير نفسه يريد الجهاز، وأنهما سيتمكّنان بعد مدة من تقديم طلب شراء لأجهزة تعقيم جديدة، ولن ينتبه أحد أن أحد الأجهزة قد اختفى...

أطرقت متأمّلة السلسلة الذهبية الثخينة التي تطوّق معصم قاسم، حاولت تقدير ثمنها، سمعته يقهقه وهو يقول لها: بإمكانك شراء مثلها من عمولتك حين تسلّمينا جهاز التعقيم... رفعت إليه عينين مذعورتين وقالت بصوت واهن: لا أستطيع.

فحدّق بها بقسوة وقال: ما بك، قلتُ لك مئة مرة إننا نحميك ولا خوف عليك ثم... سكت قليلاً وثقبها بنظرة حادة وتابع: ألم يحن

الوقت لتسكني شقتك الجميلة؟

إنه يعرف دائماً كيف يكسرها، تحسّ دوماً أنها في قبضته وتحت رحمته... لكن إلى أية هاوية تقود نفسها؟! ثم ما سرّ ولعها بالشعر، لماذا بعد كل عملية نصب واحتيال، تشتري عدة دواوين وتغرق بقراءة الشعر، هاربة إلى فضاءاته الرحبة... أي عزاء تجده في الصور الساحرة والمعاني العذبة... حيرّها ولعها الشديد بالشعر لكنها عرفت أنه وحده يعيدها لذلك النقاء الذي كانت تسكنه قبل أن تتورّط بحلقة الفساد... الشعر يعيدها للماضي النظيف وينجح بتبديد أحاسيسها باحتقار الذات ومشاعر الإثم خاصة تجاه ابنها.

يا للسهولة والسلاسة التي صارت تنفّذ بها عمليات السطو كما تحب أن تسمّيها كي تهين نفسها، وقد نفّذت تماماً ما رسمه قاسم، إذ نزلت إلى المستودع بعد انتهاء الدوام، ووضعت جهاز التعقيم في علبة معدنية كبيرة أفرغتها من لباس العمليات الأخضر، ولم يعرف الأذن أن العلبة التي سينقلها إلى قسم العمليات لا تضمّ ثياب العمليات المعقّمة بل جهازاً طبياً...

وفي قسم العمليات فتحت العلبة بحذر، وأخرجت بمشقة الجهاز، ولفّته بشرشف أزرق كبير، ثم اتصلت بقاسم ولم تتفوّه بأية كلمة، كما عوّدها، سألها: كيف الحال؟

قالت: تمام.

خلال دقائق، قدم عاملان، وضعا الجهاز في علبة كرتونية لجهاز تلفزيون سوني ولم ينتبه إليهما أحد، وحين قبضت عمولتها أسرعت تعطيها للمتعهد كي يباشر بتركيب خشب النوافذ والأبواب، لكنها هذه المرة كانت مضطربة بشدّة وعاجزة عن فهم أعماقها المتعكّرة بمشاعر عاصفة متناقضة، لدرجة نسيت عيد ميلاد ابنها وحين ذكّرتها أمها أن

ابنها بلغ العاشرة، انهارت ببكاء يقطع القلب، وأحسّت أن تلك الهفوة دليل انهيارها الداخلي الحقيقي، ضمّته إلى صدرها ورجته أن يسامحها ثم أسرعت إلى السوق لتشتري أفخم قالب كاتو، واشترت له قميصاً وبنطالاً وحذاءً رياضياً... كانت تبتلع دموعها وهي تقطع قالب الحلوى، وتقدّم الحلوى لوالديها وابنها وبعض أصدقاء ابنها، ثم استأذنها أنه سيدعو ثلاثة من أصدقائه إلى العشاء في مطعم يقصده المراهقون، فأثنت على فكرته وأعطته الكثير من المال... فطوّقها بذراعيه وأمطرها بقبلاته العذبة الخجولة، أتاها إحساس مؤكد وهو يشدّها إلى جذعه النحيل القوي أن تلك اللقطة ستنحفر في ذاكرتها إلى الأبد... وأنها ستستعيدها مراراً في زمن قادم لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه سيكون مظلماً...

بعد سبع سنوات من ترأس إيمان قسم العمليات تمكّنت من إكساء بيتها وأغرقت نفسها في قروض من المصرف، واشتركت في عدد من الجمعيات الشهرية مع زميلاتها الممرضات، صحيح أنها لم تتصالح أبداً مع شخصيتها الفاسدة والتي تنهب المال العام، لكن تعاقب السنوات أعطاها إحساساً بالأمان الزائف، فها قد مرّت سبع سنوات ونفّذت العديد من العمليات غير القانونية، ولم ينتبه أحد، ثم إن قاسم يزداد قوة، وأخذت نشاطاته تتّسع وتتنوّع، إذ لا تلتحق ممرضة بعملها إلّا بوساطته، ولا يتوظّف طبيب أو طبيبة في المشفى إلا عن طريقه... الأتاوات أو الرشاوى تُدفع له ويقوم هو بإيصالها للرجال المهمّين، للمدراء والوزراء، أو للشبكة المقنّعة التي يقدّم لها الناس ولاء الطاعة والخضوع، ويرجونها أن ترأف بأبنائهم وتوظفهم...

الأمان الأكبر الذي أحسّته كون مدير المشفى الحكومي هو رأس شبكة الفساد، فكل عمليات سرقة الأجهزة والأدوات والخيوط الجراحية تتمّ بمباركته وتنتقل إلى مشفاه الخاص... تلك الحقيقة أعطت إيمان

شيئاً من الأمان، إنها تخدمه وتسهّل أموره فكيف سيؤذيها، بل يستحيل أن يؤذيها...

لكن مع بداية عامها الثامن في رئاسة قسم العمليات، فوجئت ذات صباح بالآذن يسلّمها ورقة مطوية، وحين قرأتها تجمّدت كما لو أنها استحالت بومضة إلى تمثال من ثلج... تجمّدت على كرسيها مكبّلة بالورطة المريعة... سطران أنيقان يطلبانها للتحقيق... التفتيش المركزي يستدعيها للتحقيق. ما معنى ذلك؟! ما معنى ذلك...

فكّرت أنها دوماً كانت ضحية شعور أن لعنة غامضة تغلّف روحها... تلاحقت أنفاسها، وبدا في هواء الغرفة شيء يبعث على الاختناق، لم يعد الهواء يصل حتى نهاية قصباتها، إنها تختنق... وحين همّت بالبحث عن جهازها الخلوي في حقيبتها لتسارع للاتصال بقاسم، انهارت، لم تستطع مسك الجهاز لأن ارتعاشاً قوياً هزّها بقوة، وبلحظة شعرت أنها تحطّمت تماماً... امرأة ظاهرياً متماسكة، تجلس على كرسي عملها لكنها مجرد حطام... بل أحسّت أنها تتذوّق انهيارها وأتاها يقين أن نهايتها قد بدأت...

لم تعرف كم مرّ زمن على ذهولها، لكن حركة زميلاتها الممرضات نبّهتها أن ساعة الانصراف قد حلّت... قامت عن مقعدها شاعرة أنها مجرد شبح، وبدا البشر حولها كأشباح أيضاً، تخيّلت فأراً في مصيدة، وتحوّل كل شيء حولها إلى لغز عصيّ عن الحل، تشوّش ذهنها لدرجة ما عادت قادرة على طرح فكرة، وحين وصلت الشارع بدا لها العالم حولها أشد إبهاراً... فكّرت أن المصائب تجعل كل شيء يتوهج، فكّرت بابنها فأحسّت بطعنة ألم في قلبها وعصف ألم حارق بأحشائها، رغبت أن تتقيّأ، لكنها بصقت مرتين بصاقاً شديد اللزوجة ومُراً... ثم تهاوت في مقعد التاكسي، وأخرجت جهازها الخلوي من حقيبتها لتتّصل

بقاسم... لم يرد، ومن المرة الأولى أتاها يقين أنه يتهرّب منها... حدسها لا يخيب، بل لم يخب أبداً، كرّرت المحاولات، فلم يرد... الحقير يتخلّى عنها، إنه يعرف أنها متورطة ويتخلّى عنها... لكن لعله متورّط هو أيضاً... لعل ورقة مماثلة وصلت إليه... وقد يكون الآن مع لجنة التحقيق في الانتهاكات وسرقات المشفى الحكومي طوال سنوات... هل أنا في كابوس... أكيد ما أحسّه مجرد كابوس، سأصحو منه لكن... ماذا عساها تقول... أي خلاص لفأر واقع بين فكي مصيدة؟!

• • •

هناك لحظات يتوقّف فيها الزمن فيصبح الحاضر أبدياً، تجمّدت إيمان من الذعر المتمثل في الورقة التي تستدعيها للتحقيق... وزاد من قلقها أن قاسم لا يردّ على هاتفه الخليوي... وجدت نفسها تنطلق كالسهم إلى مكتبه، فوجدته مغلقاً، وأخذت ترنّ الجرس بإلحاح، ثم بدأت تقرع الباب بنفاذ صبر وعصبية حتى آلمتها يداها وسمعت صوتاً محتجّاً يسأل مَن يصدر كل هذا الضجيج... عادت إلى البيت وابتلعت عدة حبوب من ال؟اليوم، كانت تحدّق بابنها ووالديها بذهول، وتردّ على تساؤلاتهم حول غرابة حالتها بأن صداعاً يفجّر رأسها، وحين اقترب ابنها ليقبّل رأسها قبلاته البلسمية كما تسمّيها ودّت لو تدفعه بعيداً، فقد ترسّخ لديها شعور أنها لا تستحقه وأنها ستلوّثه إذا لمسها... شربت الماء بكثرة كما لو أنها تلطف حريق أعماقها وخافت الا يأتي الغد، ستّصل برئيسة التمريض وتقدّم إجازة، ثم ستّجه إلى مبنى التفتيش ليحقّقوا معها... يا إلهي أية كارثة هذه، ليتهم ذكروا المواضيع التي يتهمونها بها...

ورغم غرقها في خبل الفاليوم فإنها ظلّت واعية لرعبها وللمصيبة المتربصة بها استلقت على سريرها وعيناها متجمّدتان على نور واهٍ يدخل من شق النافذة، أحسّت أن شعاع النور يتحوّل إلى سلك من رصاص يقترب منها حتى يلتفّ على رقبتها أحسّت بثقل الذعر يتراكم في فراغ الغرفة كطبقات من رمل تزداد كثافة... ثم تفجّر الندم كنزيف صاعق في أعماقها، وتفتّق من مساماتها كشلالات من دم... ليتها قنعت بالفقر، ليتها لم تتورّط بحلقة الفساد... فكّرت رغم بلادة ذهنها الغارق في سبات المنوّمات أنها لم تعرف أبداً ماذا تريد من حياتها، آمنت أن امتلاك بيت هو الاستقرار والأمان والحماية من غدر الزمن، وسعت بكل طاقتها لتحقّق حلمها بأن تصير مالكة... الكل ينهش في جسد الوطن، فلِمَ لا يكون لها حصة... مدير المشفى وشلّة من المتنفّذين هم اللصوص الحقيقيون... وهي مجرد أداة... يلقون لها الفتات... ترى هل سيتمّ استدعاؤهم للتحقيق؟!

هيئ لها أنها أغفت، لأنها حين فتحت عينيها كان الفجر قد تسلّل إلى الغرفة وغطّى ابنها الغافي بسلام بوشاح من حرير مزرق... تأمّلت وحيدها بانبهار، كما لو أنها تعي معجزة الخلق، إنها أم أم، فكيف عهّرت روحها، ليت الزمن يعود للوراء كي أصون نفسي لأجلك، لأجلك وحدك يا روح الماما... كم تحب أن تناديه روح الماما... وتحب ضحكه السعيد الساخر من تلك العبارة... رشفت القهوة فعصف الغثيان بأحشائها، بصقت القهوة الممزوجة بمرارة روحها، حاولت أن تتماسك، مشّطت شعرها بصعوبة لأن وهناً شديداً يشلّ ساعديها، أوقفت التاكسي وحين طلبت من السائق أن يوصلها إلى العنوان المطلوب لم تتعرّف صوتها، كانت غريبة تماماً، تائهة، مذعورة، وفكّرت لو أن حادث سير يقتلها سيكون نهاية عادلة ومنصفة لقصتها، تأمّلت وجه

السائق المتجهم في المرآة الأمامية، وتساءلت هل ستتذكر وجهه إلى الأبد، رغبت بقوة لو تتبادل معه عدة كلمات، مجرد كلمات لا تنقل شيئاً ولا تنم عن شيء... وحين امتدت يد السائق لتضغط زر المسجلة وطغى صوت عذب بآيات قرآنية، انهمرت دمعة حارقة من عينيها وهي تعي كيف ولدت بذرة رجاء من حريق روحها الذي حوّلها إلى ساحة خراب.

أخبرها الآذن أنها قدمت قبل موعدها بنصف ساعة، وأن المحقق لم يأتِ بعد... نظرت في ساعتها الثامنة والنصف، أمامها نصف ساعة من عذاب جحيم الأفكار اخذ فكرها المخبول من تأثير الصدمة وال؟اليوم يفرز صوراً غريبة ومقززة ولا منطقية في آن، تخيلت أنها ما إن تدخل غرفة المحقق، ستتعرّى، وترجوه أن يضاجعها كما يشاء، وبالوضعية التي يرغب، ستهبه جسدها الطري الرشيق اللدن مقابل براءتها، وبدت صور مخيلتها من الوضوح والدقة لدرجة آمنت أن هذا ما سيحصل حتماً.. ثم تخيّلت أن قاسم والمدير وشركاءهم سيدخلون تباعاً غرفة المحقق... وإذا اضطرّت ستعترف بكل شيء! عليّ وعلى أعدائي.. استقرّ خيالها أخيراً على وجه قاسم... وجه غريب يدهشها، وجه لا يشفّ عن عاطفة إنسانية نظرته ميتة باردة، وابتسامته النادرة متشنّجة... رجل ميت ميت، أدركت في تلك اللحظات بما يشبه النبوءة، أنه رجل ميت، ماتت روحه منذ زمن، ولم تعد كلمات مثل ضمير، حب، صداقة، مودة، تعني له شيئاً.. فكّرت به مذ التقته وتعاونها معه طوال سنوات، غريب هذا الرجل، لم تستطع أن تفهمه يوماً، كيف ينظر للعالم كيف يتعامل معه، لِمَ لم يتزوّج رغم ثرائه الفاحش وشبابه... وبدا لها أن قاسم تنقصه الدموع... تذكّرت أنه ذات مرّة زلّ لسانه وقال لها إنه لم يبكِ أبداً في حياته حتى حين كان

طفلاً... رجل بلا دموع... يا للمصيبة، الإنسان هو الكائن الحي القادر على ذرف الدموع، الدموع هي بخار الروح، ومن لا يبكي لا روح له...

تبّهها تعرّق راحتيها المفاجئ والغزير إلى أي حدّ هي خائفة... أصدرت أسنانها صوت اصطكاك خفيف، ليتها تموت قبل أن تختلي بالمحقق... لكن فجأة فتح الباب وطلب إليها الأذن المثول في حضرة المفتش... حاولت السيطرة على قسمات وجهها لكنها فشلت، أحسّت أن خطوط وجهها تذوب كما لو أنها من حبر...

استنجدت بكل طاقة يأسها بالوجه الحبيب الذي تعبده، ارتسمت صورة ابنها ضبابية موغلة في البعد ومتعكّرة بضباب كثيف يغلّفها... اقتحمت الغرفة كما لو أنها ترمي نفسها من شفير الهاوية إلى العدم...

• • •

من اللحظات الأولى شعرت أن المحقق يسحقها باحتقاره، بل أشعرها أنه يحتاج أن يحتقرها كي يحسّ بتميّزه وتفوّقه عليها، أحسّت أنها تغدو إنسانة أخرى بسبب احتقاره لها... ورغم ورطتها، انقادت لإغواء تلك الفكرة: هل نصير ونتحوّل حسب نظرة الناس لنا؟!

لو أن هذا المحقق الخمسيني الضئيل نظر إليها بمودة وصافحها وقال لها صباح الخير، أما كانت تشعر بإنسانيتها وباحترامها لنفسها... أما الطريقة التي استقبلها بها كما لو أنه لا يراها، ولم يرد على تحيتها، ولم يطلب إليها أن تجلس، فقد أشعرتها بالضآلة والدونية، وبأنها بالتأكيد إنسانة منحطّة وسافلة وإلّا لما عاملها بتلك الطريقة... قبل أن يتوجّه إليها بكلمة، قلّب أوراقاً أمامه، ورفع سماعة الهاتف وأدار رقماً، وتحدّث بصوت هامس فلم تفهم كلمة مما قال، وجدت نفسها تجلس

على طرف المقعد متقمّصة شخصية المُدان، لا يحق لها أن تملأ مقعدها وتسترخي في جلوسها، كتفاها مقوّسان وركبتاها متلاصقتان، تنتظر أن يبدأ السيد المتعالي بالتحدث إليها...

قدّم له الآذن القهوة، فاحت الرائحة الشهية في الغرفة، ورغبت بقوة لو تطلب قهوة، تساءلت: أإلى هذا الحدّ يحتقرني هذا المحقق حتى لا يقدِّم لي قهوة!... بدا الزمن دهراً، ووجدت نفسها تردّد كالببغاء تلك العبارة: أنا شخص آخر، أنا شخص آخر... لم تفهم سبب إحساسها أنها إنسانة أخرى، كما لو أن ثمة انقطاع تام بين شخصيتها الحالية، وما كانته... كانت تشعر بكتلة الذعر في أعماقها كظلمة عميقة كثيفة قوامها إسفنجي، بل للحظة أحسّت أن كل جسدها من إسفنج داكن مرصوص... وتساءلت إن كان من الممكن أن يتوقّف قلبها عن الخفقان من شدّة الذعر... ثم بدأ صراخ هستيري يتفجّر داخلها، صراخ تحسّ بدويه في أذنيها... تكاد تنهار وتصرخ هيا تكلّم، لا يحق لك احتقاري بتلك الطريقة... أنا إنسانة، إنسانة... تململت في جلستها كما لو أنها تدفعه للتحدث إليها، رشف القهوة على مهل، وحكّ صلعته وقد ارتسم في قبة رأسه وحمة بشعة بشكل شبكة عنكبوت...

قال لها ببرود: أظنك تعرفين لِمَ أنتِ هنا...

فلم تجب...

ويبدو أنه لا ينتظر جوابها فتابع: خسارة أنك استلمت منصباً لا تستحقّينه، رئيسة قسم العمليات منصب رفيع، ما كان على لمة مثلك استلامه.

ثبّتها الذعر في مكانها، فأحسّت أنها التصقت بالمقعد، ورغم أنها لا ترى وجهها، فقد أحسّت بملامحها كيف ترسم لوحة الموت، رأت وجهها بعين خيالها مثل قعر فارغ، صامت وميت، وعجبت كيف

استطاعت أن تفر مما تسمع وتلاحق خيالات تصوّر لها ابنها في كل مراحل عمره، من طفولته قبل بزوغ أسنانه حتى خطواته الأولى، إلى يوم دخوله المدرسة، إلى ضحكه وولعه بالاستحمام...

زجرت نفسها على خيالاتها اللامنطقية وكزّت على أسنانها توبّخ ذاتها: أهذا وقت هذه الخيالات... فكّري في مصيبتك... لكنها لم تعلّق بكلمة، لزمت الصمت حتى يستمر في الكلام...

رشف القهوة بصوت مستفز، كان يتكلّم دون أن ينظر إليها، مركّزاً نظرته على قطاعة ورق معدنية بلون الذهب، تخيّلت تلك الأداة الحادة مغروسة في عنقها... تابع كلامه بلهجة تهديد: كل سلوكك المشين انكشف، بيع الخيوط الجراحية، والأدوات، والأجهزة... أي عار هذا... ألا تستحين... أحسّت أن من واجبها أن تقول شيئاً، تشكّلت عبارة سخيفة في حنجرتها فقالت: أنا بريئة.

كم بدت بنظر نفسها مضحكة، بل كادت ضحكتها تنفلت من فمها...

ردّ بشماتة: حاولي إقناع القاضي ببراءتك...

حدّقت بوجهه منحولة: القاضي... هل قال القاضي! يعني أن التهم الموجّهة ضدها ستكون بين يدي القضاء... المحكمة، المحكمة، يا للمصيبة...

راودتها رغبة عنيفة أن تعترف بكل شيء، أن تحكي عن قاسم، وشركائه، عن مدير المشفى، ملك اللصوص - كما تسمّيه بسرّها - لكنها آثرت الصمت، إذ خافت أن تتورّط أكثر فأكثر...

رفع المحقق ملفاً أصفر وقال: في هذا الملف كل ممارساتك الدنيئة، لا تظنّي أن عين العدالة غافلة عمّا يحدث... إن جرائمك كثيرة، وستحالين إلى المحكمة الاقتصادية، بتهمة نهب المال العام...

كانت تسمع كلماته وهي تشعر كم تحتاج للغيبوبة، كلماته تنهمر كالرصاص فوقها وسنوات حياتها تنهمر كأوراق ورود ميتة أمامها... وبين انهمار سنوات عمرها المُنتهكة بالقهر والذل والكبت، وانهمار كلمات المحقق كطلقات من رصاص تخترق جسدها محدثة فيه ثقوباً كبيرة... تهاوت، أمرت عقلها أن يتوقّف... لم يعد باستطاعتها أن تتألّم أكثر، أن تخاف أكثر، لم يعد باستطاعتها أن تعي حقيقة ما يجري، أمرت جهازها العصبي أن يتعطّل، وتهاوت على الأرض، وآخر ما وعته صوت ارتطام ساعتها بالبلاط...

• • •

السجن

لم تكن هناك من قوة قادرة على إخراج إيمان من مذلّتها، فقد صدر الحكم بالسجن عليها، أما قاسم، ومدير المشفى والشركاء، فقد تمّ التحقيق معهم وتبرئتهم... وحدها الممرضة رئيسة شعبة العمليات هي اللصة والفاسدة... بعد ستة أشهر من التحقيق ومن مواجهتها للوجوه التي تغلي باحتقارها، وبعد أشهر من محاولة محاميها الدفاع عنها، لبستها القضية كما يُقال، وصدر الحكم بالسجن عليها...

في قاعة المحكمة بدت مذهولة، ولم يجد الغضب الكامن في نفسها طريقة للتنفس سوى أن يتحوّل إلى إحساس دائم بالمرارة والضيق من الوجود، أحسّت فجأة أن ثيابها ضيقة عليها، وأن حمّالة نهديها تمنع الهواء من الوصول إلى رئتيها رغبت بقوة أن تمدّ يديها إلى ظهرها لتفكّ قفل حمّالة النهدين... لكن النظرات حولها جمّدتها، في الواقع فإن المشهد أفظع من أن تستوعبه، قاعة المحكمة القذرة القاضي والمحامون، والشهود... يا إلهي أي كابوس هذا... كان ألمها كلياً ونقياً وشعرت أن أعصابها عارية، يكفي ضوء النهار كي يحرقها... كانت تحدّق في الوجوه حولها تحديقاً طويلاً دون أن تراها، شيء ما عُطب في إدراكها... القاضي الذي أصدر الحكم بسجنها كان ينظر إليها نظرة شماتة، نظرة تحمل ازدراءً واضحاً وسخرية مبطّنة كما لو أنه يقول لها: مسكينة وقعتِ في الفخ، جعلوك كبش فداء عنهم، وأحياناً تحسّ بنظرته تصرخ بها: يا غبية لم تعرفي أن تلعبي اللعبة صح وتخرجين مثل

الشعرة من العجين، مثلهم، شركائك الأذكياء.

كانت بحالة من الضياع التام، وتساءلت إن كانت قادرة فعلاً على تحمّل الحكم... لم تعد تستوعب ما يدور حولها، إذ كانت روحها تكتوي بجمرات الخزي والقهر، وتضرّج وجهها من الإحساس بالعار، أخذت تتلفّت حولها كأنها تبحث عن شيء، ولمحت وجهها غرضاً مرتسماً على زجاج النافذة البالغة القذارة والتي سمحت طبقة السخام الملتصقة بالزجاج أن تعكس تعبير الفزع في وجهها... أدهشها تعبير الفزع الصريح في وجهها، وبدا لها متناقضاً مع حالتها النفسية الذاهلة للحظة أحسّت بدوار وأنها على وشك السقوط.

تفجّر السؤال في أعماقها: هل خطر لكِ يوماً أن تدخلي السجن؟! انتابتها رغبة عارمة أن تملأ قاعة المحكمة القذرة صراخاً وشتائماً... لكن فمها أخذ يختلج باسمه تتهجّى حروفه، لكن لا تجرؤ أن تلفظ الاسم كاملاً وصحيحاً... لا يحق لها أن تتفوّه باسمه، أي عارٍ ستلحق به؟! باه، كيف سيتلقّى الخبر؟ سيتصل به المحامي بعد لحظات ويقول له: أمك في السجن. حاولت تخيّل الوجه الجميل الذي تحبه، وكيف سيتغيّر بعد سماعه بالخبر الكارثي.

تذكّرت أنها طبخت في الصباح الباكر البازيلاء مع الجزر واللحم، من عادته أن ينتظرها ليتناولا الغداء معاً، هل سيتمكّن من ابتلاع طعامه اليوم، والأيام التالية تخيّلت أنه سينهار وسيرمي ما طبخته في القمامة، أخذت تكرّر لنفسها كلمة وحيدة تكويها بنار حارقة: أنا أم، أنا أم، فكيف ارتكبت كل تلك المعاصي، لكن اللعنة على الفقر والقهر... وهؤلاء السفلة لِمَ لا يُسجنوا مثلها...

ظل فمها يرتعش بلفظة أم، حتى أحسّت أن ألمها صار كُلياً، ولم تعد تملك القدرة على احتماله، تذكّرت أن حَدساً غريباً دفعها لدسّ

بضعة إبر من ال؟اليوم في حقيبتها قبل أن تلحق المحامي إلى قاعة المحكمة، أصرّ القاضي أن تحضر الجلسة هذا اليوم، في السابق كان المحامي يقوم بمواجهة القاضي عوضاً عنها، وما إن وجدت نفسها في جوف الزنزانة القذرة، حتى سارعت لتزرق وريدها بال؟اليوم وهي تحدّث نفسها بسخرية أليمة:

الميزة الوحيدة لكونك ممرضة هو أن تحقني نفسك بال؟ اليوم...

وقبل أن تستسلم كلياً لغيبوبة المُخدّر، طمأنت نفسها أنها تملك حفنة لا بأس بها من الإبر، كانت قد سرقتها من صيدلية المشفى عن طريق كتابتها في أضابير المرضى... تثاءبت وهي تتوصل لحقيقة هامة بأن الحياة في هذا البلد مستحيلة بدون تخدير، لأن الجنون هو الشيء الوحيد المؤكد الذي ينتظرنا.

استلقت على سرير تفوح منه رائحة مقززة هي مزيج من عرق بشري وعطن، عصف غثيان حاد بأحشائها وربما من التأثير الجانبي لل؟اليوم، أو بسبب تلك الرائحة المقززة... تذكرت أنها لم تأكل شيئاً هذا الصباح، ولم تشرب سوى فنجان واحد من القهوة، بدأت تطفو في فراغ بنفسجي باهت ولمّاع، لكن ذاكرتها توهّجت فجأة وهي تستعيد حوارها مساء البارحة مع المحامي:

- اسمعي، لا تيأسي، من حسن حظك أن الدعوى استقرّت في يد قاضٍ يأكل.

- ماذا تعني؟

- قصدي واضح، كل شيء له ثمن، يمكنه أن يبرّئك إذا دفعت له.

- ألهذا السبب برأ قاسم وشركاءه؟

- أظن ذلك، لأنهم مدانون أكثر منك بكثير، ومع ذلك لم يُجرموا بشيء، بل خرجوا مثل الشعرة من العجين...

- لكني لا أملك المال اللازم للقاضي.

- حاولي أن تتدبّري أمرك.

- كيف؟

- أنتِ أدرى.

انتبهت أن ثمة صحن معدني فيه قطعة حلاوة وبجانبه رغيف خبز على طاولة صغيرة عتيقة ووسخة، أحسّت أنها مشلولة تماماً، فأغمضت عينيها إعياءً فارتسمت سماء زرقاء مضيئة تحت أجفانها، تمسّكت بالسماء المترقرقة بالضوء فشعرت للتو بتدفق أشواق هائلة من صدرها لأشياء مبهمة وغامضة ضيّعتها مع الزمن... أشواق تغرق جسدها وروحها كما لو أنها تتدفّق من خزّان طافح بالحب.

امتلأت الزنزانة بالأشواق لدرجة شعرت بكثافة الهواء، وتمكّن عقلها المُختثر أن يئنّ متألماً بأن أكثر ما يؤلمه هو عجزه عن إيصال حبه العظيم لابنها... سيعيّره رفاقه ومعارفه بأنه ابن الممرضة المرتشية المرمية في السجن... أدركت أن لا قيمة لشيء في العالم إلّا هو، هو حبيها وروح روحها...

غرقت في نوم متقطع، وأعادها ألم ظهرها المُمض إلى صحوها، فجلست وشربت القليل من الماء، أحسّت بغثيان من رائحة الزجاجة الزنخة، وجدت نفسها تبحث في حقيبتها عن صورته، وما إن لمست الصورة وقبل أن تنظر إليها، انفجرت بنحيب حار، جعل جسدها الضئيل يرتجف من الوجد والندم...

أطبق عليها إحساس بالانسحاق من كل الجهات، وأطبقت جدران الزنزانة على روحها مشعرة إياها بضيق لا يمكنها احتماله، انهمرت وجوه في فضاء الزنزانة وجوه تعرفها تهرب منها وإليها، تحبها وتكرهها، وجوه متشابهة بعيون واسعة محدقة بها بثبات تحتقرها وتنبذها، وجوه

تسحقها باحتقارها... أدهشها اكتشافها كم تتشابه الوجوه، ما الذي يجعل الوجوه متشابهة لحدّ التطابق؟! كما لو أن هناك رابطاً خفياً بينها... الروح وحدها تجعل الوجوه متطابقة، روحهم المتعالية المتكبرة التي لا تعرف المحبة والتسامح، أحسّت أنها لم تعد تنتمي لهؤلاء... ياه ما أصعب النبذ، ما أصعب أن يعيش الإنسان دون تماس بشري إنساني، حاولت أن تخطو بضعة خطوات لكن وهناً شديداً شلّ ساقيها، فانطرحت على الفراش ورائحة العفن تخنقها.

ومن قلب المأساة، وعت ماذا يعني أن تكون وحدها كبش الفداء، أن تتحمّل خطاياهم وانتهاكاتهم... لكن خلف كتلة مشاعرها المتورمة والمتناقضة خلف تشابك مشاعر الإثم والندم والغضب والإحساس بالظلم والغدر، شعرت براحة شفافة باغتتها، راحة كما لو أنها نهاية رحلة شاقة، كما لو أنها نهاية المطاف... راحة تشبه إحساسنا بالوصول إلى المحطة الأخيرة... راحة تشبه الموت، أليس الموت هو المحطة الأخيرة للحياة مهما كانت رائعة أو بائسة... من أين غمرتها تلك الراحة الشفافة، وسرت بجسدها مثل قشعريرة.

تأملت صورة ابنها بانبهار، عصف بها الندم، كيف لم تصن نفسها لأجله؟ لكن أكانت تستطيع أن تشتري له الثياب والدمى والكتب لولا الرشاوى... ومن أعمق نقطة من كيانها تململت رغبة بالشفاء... كيف يمكنها أن تشفى من دنس الروح...

غرقت مجدداً في النوم، لأن منظر السماء المترقرقة بالضوء عاد يدغدغ أجفانها ويُشعرها بالخفة والتحلل من ثقل الآثام، يبدو أن الزنزانة ترشدها لاكتشاف ذاتها.

ومن قلب عالم الغيبوبة طفى سؤال أشبه بتنهيدة: هل حقاً كنتُ أملك خياراً آخر؟!

هل كانت لديّ فرصة حقيقية للهروب من هذا القدر الساحق؟ أما كنت أعرف طوال الوقت أن ما أقوم به محفوف بالمخاطر، لكني كنتُ أهرع إليه كفراشة تلتصق بالنور عارفة نهايتها... ألم أقنع نفسي أن النجاح الاجتماعي والمهني هو في التفنن في أساليب نهب المال العام، مبرّرة لنفسي كل ما أقوم به بأنه حقي وحق ابني لأن الراتب، يهينني ويسحق كرامتي...

ترى ما مغزى الأخلاق؟ في هذا المجتمع بالذات تتحوّل الأخلاق إلى عقوبة، عقوبة بالنبذ والقهر والذل والفقر... أما الفاسدون الكبار، أصحاب الملايين المكدّسة في البنوك فيكافؤون...

عصفت بها أفكار، وسجنتها وجوه تحدّق بها بعيون من زجاج، نظرات قاسية تحتقرها وتشمت بها، وحدهما عيناه ترنوان إلى وجهها بحب وحزن... تكوّمت كجنين تحتضن ألمها وشوقها، حارت ماذا تفعل، وكيف تهرب من هذا القفص القذر فاختارت البكاء...

• • •

أعطاها البكاء شفافية وراحة، وجدت نفسها تتنقل بين وجوه وأفكار مبتورة لا يزال جسدها مخدّراً من ال؟اليوم، أحسّته كغصن مقطوع مرمي بإهمال على قارعة رصيف الحياة، انفصلت عن المشهد وأخذت تتفرّج على نفسها في الزنزانة، تراقب المشهد كأنها ليست في قلبه، تذكّرت إحساساً قديماً لازمها لفترة طويلة بأن شيئاً هائلاً على وشك الوقوع في حياتها، أكان هذا الإحساس نبوءة! هل الشيء الهائل هو السجن؟

باه كم تشتاق لابنها، كم تتوق أن تضمّه وتتشمّمه، كم تحتاج صوته، بذلت جهداً كبيراً كي تسيطر على أشواقها وكي توصد روحها على صورته فقط، فجأة تذكّرت حادثة في الماضي، اكتشفت معناها

الآن، حادثة اعتقدت وقتها أنها عابرة وتافهة... لكن تلك الحادثة فسّرت لها ما لم تكن قد فهمته بعد... كان دوامها ليلياً في شعبة السكري، الواحدة بعد منتصف الليل، المرضى نائمون، والممرضة التي ترافقها في الدوام تتابع فيلماً عربياً تافهاً من تلفاز صغير، أحسّت بالضجر، وقرّرت الانضمام إلى زميلاتها الممرضات في قسم الإسعاف لتغتال الوقت بالثرثرة، وفيما هي تعبر الرواق الطويل سمعت صراخ امرأة عالقة في المصعد، تخبط الباب بقوة بيديها، بل كانت ترفسه بقدميها أيضاً، توقّفت لتنصت بهدوء إلى صراخ المرأة الهستيري، كان صوت المرأة يتبدّد، ومن سوء حظها أنها عالقة في الطابق الرابع حيث تجرى أعمال صيانة ولا يسمعها أحد... شعرت إيمان بسعادة خبيثة من انهيار المرأة، لم تكلّمها ولم تطمئنها ولم تهب لنجدتها، رغم أنها تعرف كم تحتاج لصوت إنساني يطمئنها، تابعت نزول الدرج ومتعة خبيثة تعربد في صدرها، متعة مبطّنة بشعور حقيقي بالاشمئزاز من نفسها...

فهمت الآن وهي في الزنزانة أبعاد تلك الحادثة، ولماذا لم تهب لنجدة المرأة لأنها كانت مقهورة مثلها، وصراخ قهرها صامت يضيع سدى كصراخ تلك المرأة. أدركت في عتمة سجنها مدى التهميش وانعدام القيمة وانسحاق الكرامة التي عانت منها طوال حياتها، كل شيء يذلّها، شحّ الراتب، قذارة المشفى، الشلل الذي تحسّه - هي وزميلاتها - وهن يتفرّجن بعيون خرساء على اللصوص الذين يتحكّمون بحياتهن، والكل ينحني لهم احتراماً وتقديراً... ونسعد أية سعادة، ونعتبر أنفسنا محظوظين حين يلقون لنا بالفتات... ياه أدركت إلى أي حدّ شوّهها القهر، لأنها أساساً ليست شريرة كي تستمتع وتجد لذّة خبيثة من سماع صراخ امرأة عالقة في مصعد، فكّرت أن تلك المرأة كان يمكن أن تصاب بسكتة قلبية وتموت... كيف استطاعت أن تجلس مع زميلاتها

تقزّز اللب وتشرب الشاي وتتبادل معهن أحاديث لا تغل شيئاً، وتضحك مثلهن ضحكاً يائساً من بؤس الحياة التي فقدن الأمل بتغيرها...

• • •

استيقظت على تقلصات معدتها من الجوع، للوهلة الأولى نسيت أنها في زنزانة ثم هوى قلبها من الإحساس بالخزي والعار وقد أدركت دفعة واحدة مصيبتها، لا يزال الفجر ناعساً، مسحت المكان بنظرها، وفزعت حين رأت الصراصير تنغل فوق قطعة الحلاوة...

فكّرت بابنها، عصرها الشوق، فأخرجت صورته وأمطرتها بقبلات نهمة... وسيل من الأسئلة يغتّق بذهنها، أتراه استطاع أن يغفو وأمه في السجن؟! أهو حزين عليها أم ناقم؟! والمسكينان أمها وأبيها، أي عار الحقته بهما وهما في خريف عمرهما؟!

- يا للورطة، يا للورطة، كيف ستنجو، لكن هل هناك أمل بالنجاة حقاً؟!

زارها المحامي باكراً، حرّضت ذقنه الحليقة وعطره الواخز وأناقته الملفتة نقمتها فكّرت أنه قبض منها الكثير من المال ولم يفلح في جعلها تنجو من السجن، وكأنه قرأ ما يدور بذهنها فارع لإخراج ورقة مطوية من جيبه وفرّدها أمامها مبتسماً وقال: تفاءلي خيراً، لقد استسمحت القاضي ليسمح لي بنقلك إلى سجن المشفى.

بوغتت لأنها لا تحتمل فكرة دخول المشفى ثانية.

قالت وصوتها مشروخ بالأذى: ماذا تقول؟! أتريدني أن أعود إلى المشفى ليشمتوا بي جميعاً.

- أليس أفضل من بقائك في هذا المكان الحقير، ثم يمكنك هناك رفض الزيارات لكن سجن المشفى مكان معقول، ويمكن لأهلك أن

يزوروك كل يوم.

انهارت وهي تسأله: هل عرفوا؟ ماذا قلتَ له...

ربت على كتفها وقال بلهجة موثّة صادقة: لقد زرتهم البارحة، وشرحت لهم المشكلة بطريقة غير مؤذية لمشاعرهم، قلتُ إنك مظلومة، وأنهم ورّطوك واستغلّوا منصبك وإنني سأعمل المستحيل لإبطال حكم السجن، وسنستأنف القضية.

- صفه لي، كيف كان...

احسّت أنها متعلّقة بصوت المحامي، ركّزت كل حواسها في بؤرة صوته، يمكنها أن تحزر إن كان يكذب عليها...

قال: ابنك رائع، صحيح أنه لا يزال مراهقاً صغيراً، لكنه يتصرّف كرجل ناضج تصوّري قبل أن أكمل كلامي، قاطعني قائلاً: الماما بريئة، بريئة...

استسلمت لدموعها تمسح روحها المتعبة ببلسم الشفاء، إنها تعبده، ولا تتمنّى شيئاً في الدنيا سوى أن تعيش بجانبه، ولو تحقّق لها ما تريد، فلن تطمع بشيء أبداً. أحضرت السجانة دورق قهوة وفنجانين، وأخرج المحامي فطائر بالجبنة والزعتر من الكيس، ابتسمت للسجانة البدينة الرثة الهيئة، وشكرتها بحرارة على القهوة فردّت المرأة بصوت جاف: البركة بالأستاذ...

أكلت بشراهة وتلذُّذ أيضاً، فقد عرفت معنى جوع الذل، جوع المعدة بسيط، أما جوع الذل فلا يمكن احتماله...

شكرت المحامي على الإفطار والقهوة، أشعل سيجارة وقال لها بأنه يفكّر جدياً بطريقة يخرجها من السجن... لا يزال بإمكانه أن يطعن بالحكم...

سألته بعتب واضح: كيف نجا قاسم والمدير والشركاء من

الـسجن...

أجاب بثقة: لقد دفعوا مبالغ باهظة.

- لمن...

- للتفتيش وللمحامين وللقضاة.

- المال يشتري البراءة.

- تماماً.

- إذاً أنا وحدي سقطت في الفخ.

- لن يفيدك هذا التفكير.

- إنها الحقيقة.

- تفاءلي، يمكننا أن نجد حلاً، كل مشكلة في هذه الدنيا ولها حل.

من جديد استفزّها عطره، كم غدت تلك الأشياء العادية ذات قيمة، فرشاة الأسنان والصابون والمشط، لحظات الصمت القليلة مشحونة بالتوتر، خرقها المحامي قائلاً:

- هيا بعد قليل سآخذك إلى سجن المشفى، وسوف يأتي ابنك ظهراً لزيارتك.

لم تستطع السيطرة على تدفق دموعها المباغت، كانت بحالة من الوهن والضياع أنها يمكن أن تنتقل من حالة إلى نقيضها بثانية، ورغم إحساسها بمأساوية وضعها فإن شعوراً متحدياً بالأمل أخذ يتماوج في ظلمة روحها، نظرت في ساعتها لتحسب كم عليها أن تنتظر حتى تضمّ حبيبها إلى صدرها.

• • •

جرحها ضوء النهار كما لو أنه يعرّي أعماقها، شعرت أنها تمثل لقطة سينمائية حين صعدت من الباب الخلفي لسيارة الجيب العسكرية

المقرقعة، تخيّلت عيني ابنها ترنوان إليها بعتب وحب، أجل بحب، لا يستطيع أن ينظر إليها إلّا بعينين تلتمعان بالحب... وحين جلست في المقعد ونظرها مثبّت بين قدميها من الإحساس بالخجل بدا لها تطور الأحداث مريعاً، إنها عاجزة تماماً عن استيعاب حقيقة أنها مسجونة. كيف، كيف سارت بها الحياة بتلك الطريقة العجيبة... الإنسانة المولعة بالشعر والفن فأرة الكتب النهمة، التوّاقة للموسيقى، تنتهي إلى السجن وتصير سمعتها في الحضيض؟ ترى ألا توجد قوى خارقة تذلّنا وتتحكّم بحياتنا! هل يوجد إنسان يستطيع تحدّي هذه القوى؟ ما الشرف وما الأخلاق؟! هل الشرف هو أن نتفرّج على عيون الحرمان لأطفالنا؟

رائحة الغبار المتسلل من الباب المخلع لسيارة الجيب أيقظ في روحها حنيناً جارفاً للحياة اليومية للضجر اليومي، للشارع، والضجيج، والناس، وما إن لمحت الباب العريض الحديدي للمشفى حتى غاص قلبها في صدرها منكمشاً من الخزي، لا تريد أن ترى أحداً، تخيّلت أنهم جميعاً، ممرضات وأطباء وموظفون يقفون في طابور يحدّقون بها بنظرات شامتة مُحتقرة.

ترّجلت من السيارة ونظرها لا يفارق حذاءها، شعرت بوطأة النظرات المحدّقة بها... فتجاهلتها، هُيّئ لها أنها سمعت اسمها، ترى مَن تناديها؟!

كان سجن المشفى عبارة عن ثلاث غرف بائسة، ولكنها أفضل بكثير من سجن النساء، استقبلها مدير السجن باحترام ولطف، وطلب لها شاياً، وقال لها بلهجة أثّرت بها لصدقها:

- آمل ألا تطول إقامتك هنا...

شكرته، ودخلت الغرفة شاعرة أنها تدشّن مرحلة جديدة من حياتها. أحسّت أن من واجبها أن تصادق المكان، أول ما استرعتها النافذة

الكبيرة التي تطلّ على ساحة من الإسمنت، والستارة البنية العتيقة المثقبة بعديد من الثقوب تتجمّع عند حافتها، سرير معدني مرتفع مغطّى بمفرش عتيق، طاولة خشبية صغيرة وكرسيان من الخشب، مغسلة صغيرة في زاوية الغرفة... جلست على حافة السرير فاقدة الإحساس بكيانها بجسدها تحديداً، ذهنها مشلول، أحسّت أنها لم تعد كياناً مادياً لعلها تحولت إلى شبح، وبعفوية أخذت تفكّر بالموت، لم يبدُ لها منصفاً ورحيماً كما بدا لها في تلك اللحظات، أليس الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في حياتنا...

نظرت في ساعتها، بعد ساعتين سيأتي حبيبي الصغير، رشحت عيناها بدموع الشوق، كم تفتقده وتشتاق لضمّه إلى صدرها، كما لو أن دهراً فصلها عنه.

فكّرت أنه حال انصرافه، ستحقن نفسها إبرة ؟اليوم وتستسلم لرحمة الغيبوبة والنسيان، ياه ما عادت قادرة على استيعاب كل هذا الألم... من حسن الحظ أنها تمكّنت من تهريب عدّة إبر من ال؟اليوم.

اجبرت نفسها أن تغسل وجهها وتمشّط شعرها، ويحفر تجرّأت وتأمّلت وجهها في مرآة مكسورة مثبّتة فوق المغسلة بمسمار... عكست ملامحها هدوء اليأس، ولم تعرف من أين أتاها يقين أنها ستصاب بداء الخرس، وأنها لن تتمكّن من الكلام بعد الآن، أحسّت أن شفتيها مطبقتين بصمغ الخوف والذل.

نزعت حذاءها، فوخزتها رائحة قدميها البشعة، رغبت أن تغسلهما بالماء والصابون لكن لا توجد إلّا قطعة صابون صغيرة يابسة على حافة المغسلة.

هزّتها رعشة ذل وهي تتمنّى لو يحضر لها صغيرها الصابون والمناشف والثياب...

وقبل موعد زيارته بدقائق، هاجت روحها بسديم من المشاعر المتناقضة الغريبة تمنّت من كل قلبها ألّا يأتي، بل خطر لها لو تطلب من مدير السجن ألّا يسمح له بزيارتها. جمّدها ذعر مباغت أنها عاجزة عن مواجهته، لا تستطيع، لا تستطيع فكّرت أن تكون مذنباً لا يعني أن تسجن وتنال عقابك بالقانون العادل، فهذه أمور تافهة، بل أن تعجز عن النظر في عيني مَن تحب.

أنهكتها مشاعرها الصاخبة، سمعت صريراً معدنياً، فتح الباب ودخل ابنها... من اللحظة الأولى حاولت أن تخفي وجهها خلف ستار من الكبرياء الزائفة... صدمها تعبير وجهه... وجهٌ محب ليس فيه تعبير عن عتب أو لوم أو حتى ألم... شعرت للحال برقّة إحساسه وبساطة قلبه، كان يحمل حقيبة ثقيلة، حاولت أن تتكلّم بصوت يصطنع العذوبة، لكن اليأس أخذ يتفتّق من كلماتها، ولم تشعر بالألم حارقاً وعميقاً في قلبها كما أحسّت تلك اللحظات، كانت تتخمّص داخل نفسها أكثر فأكثر كلما أطال نظرته المطوقة المحبة لوجهها، فكّرت كم تعبد وجهه الجميل المحب رجته أن يجلس على الكرسي، ولم تدر لِمَ ركعت أمامه، وأوسدت رأسها في حضنه، همّت أن تطلب إليه أن يسامحها، وتمنّت لو تملك الجرأة وتعترف له بكل شيء... رجاها أن تقف، بل أجبرها على الوقوف، فضمّته بقوة إلى صدرها وأخذت تقبّل رأسه ووجهه وهي تلهث بكلمات العبادة.

رجته أن يحكي أي شيء، وكل شيء، وحين بدأ الكلام أحسّت أنها تلتقط أنفاسه وحروفه وتخزّنها في غرف روحها الموحشة، صار جسدها مثل العليقة المتوهجة بنار الحب لكنها لا تحترق بل تظل متجلية ببهاء نارها ونورها، وجعلها صوته العذب تشعر أنها راسخة وقوية، وتفجّرت إرادة جبارة في نفسها أن عليها مقاومة اليأس، ومن وقت لآخر

كانت تضمّه بقوة إلى صدرها وتمطره بالقبل، لتشحن نفسها بقوة الأمل، لا تولد الإرادة إلّا من الحب، هذه هي الحكمة العظيمة التي علّمها إياها صغيرها.

ابن الاثني عشرة عاماً أعطاها شعوراً بالأمل، شعوراً حقيقياً يمكنه أن يقلب حياتها رأساً على عقب، استأذنها ليفرغ الحقيبة، جلست على طرف السرير تتأمّله لم ينسَ شيئاً، الشامبو، والصابون، والمناشف، وفرشاة الأسنان، والثياب الداخلية، والجوارب، وحين أخرج كتب الشعر التي تحبها من قاع الحقيبة انهمرت الدموع من عينيها حارقة... لم تكن تبكي قهراً ولا ندماً، بل حباً.

سألته فجأة: هل تعرف كم أحبك.

قال: إن كنت تحبينني فلا تبكي.

- لكني أبكي من شدّة حبي لك.

نظر إليها بعتب: ماما، يجب أن تكوني قوية، هذه شدّة وتزول، أنا واثق مما أقول.

آمنت بكلامه، وتمنّت لو يتحقّق في القريب العاجل، ثم طلبت إليه بحياء أن يناديها مراراً: ماما...

ضحك وهو يقول: ماما، ماذا جرى لك؟

لكنها رجته، أغمضت عينيها وهي تمتصّ صوته يكرّر ماما، ماما، حتى أحسّ بالملل، شعرت كيف تنزلق الكلمات على قروح روحها كزيت مقدّس يشفي... كان قد أحضر لها طعاماً أيضاً، علب جبنة بيكون، وخبز أسمر كما تحب، وملوخية مع اللحم والرز، لم تكن جائعة، لكنها رغبت أن يشاركا الطعام... اعتذر منها وقال إنه تغدّى... أطرقت خائبة، وحين حدّقت في عينيه عرفت أنه يكذب، إنه يريد أن يترك كل الطعام لها... هذا الملاك لا يستطيع الكذب، وفي

اللحظة التي يحيك كذبه ترتعش نظرته.

لم تعد تعرف إن كان عليها أن تفرح أم تحزن، أن تبكي أم تبتسم، اختلطت مشاعرها وأصابها دوار من الحب، تجاه هذا الفتى الرائع، الذي شفاها من اليأس والحقد أيضاً، وعلّمها حكمة رائعة، بأن اليأس لا يتغذّى إلّا من الحقد.

سألته عن جدته وجده فقال إنهما يسلمان عليها ويطمئنانها أنهما سيعملان المستحيل لتخرج من هذه الورطة، وبأنهما سيزورانها غداً.

رجته ألّا يزوراها، وقالت بأنها تحتاج أن تختلي بنفسها لأيام.

ترددت كثيراً قبل أن تسأله: هل تؤمن ببراءتي.

فأجاب للحال: ليس عندي ذرّة شك ببراءتك.

فكّرت أنها لو ماتت في تلك اللحظة فستكون أسعد امرأة في العالم.

لم تمتلك الشجاعة لتسأله عن التعليقات التي سمعها من أصحابه والمعارف، كانت تعرف أنه سيكذب عليها كي يحميها من الأذى.

حين حان موعد انصرافه ضمّته بقوة إلى صدرها، وهمست بصوتٍ واهن سامحني أحتاج أن تسامحني، لكنه لم يسمع ما قاله، بل قبّلها وقال لها: أحبك كثيراً.

تهاوت على الكرسي بعد ذهابه، وأسندت رأسها بين راحتيها، وأخذت تتنفّس بعمق لتخزّن ما بقي من عطر أنفاسه، كان يغتسل بصابون ركسونا، تمنّت لو تبقى رائحته لأيام، كظلٍّ لحضوره البهي، نظّفت أسنانها، وقلميها، وفرشت الشرشف الوردي عطر الرائحة فوق السرير، وتساءلت بقلق: كم ليلة سأنام هنا... فكّرت أن استمرار الأمل شيء خارق، وبأنه وحده ابنها يعطيها الأمل... كم تشتاق لبيت أهلها، للكهلين الرائعين اللذين طالما أحسّت بالضيق من وجودهما، لو يعرفان كم تحبهما وتحتاجهما، شعرت أن روحها تنجرف باتجاه ذلك البيت

الجميل في الحارة التي طالما تمرّدت عليها وكرهتها، لن تسمح لروحها أن تسقط في لجّة اليأس، استعادت نغمة صوته العذبة: شدّة وتزول...

استلقت على السرير تفكّر بحياتها قبل دخولها السجن، ياه كم تشعر أنها بعيدة عما عاشته، أكانت حقاً تمشي في الشارع، وتوقف سيارة أجرة، وتدخل الدكان وتشتري أغراضاً... وتدخّن الأركيلة مع صديقاتها... ياه أي سحرٍ للحياة خارج هذه الغرفة...

بدأت معنوياتها تتدهور، وصار قلقها موجعاً، وإحساسها بالأذى يتفاقم، قامت تغسل وجهها كما لو أن هذا الفعل سيقوي عزيمتها... لم تستطع طرد حزنها وكآبتها بل أحسّت أن العتمة في الخارج تتكاثف متزامنة مع عتمة روحها، وسمعت صوتاً هامساً مغوياً يأمرها أن تحقن نفسها بإبرة؟ اليوم... لكن خيالها أسرع بفرز أمامها صور ابنها ليجرّها إلى الأمل ويقوّيها... لكنها عرفت أن الصراع سيكون بفوز ال؟اليوم، لن تستطيع النوم في تلك الغرفة البائسة، مُقتلعة من جنة الحب الدافئة بجانب ابنها، إلّا بمساعدة المنوّم.

حقنت وريدها بالمخدر، واستلقت على السرير، شعرت للحال بالخَدر الرحيم وأحسّت أن ألمها يغادر جسدها من مسامه كبخار رمادي وسخ ويتّجه صوب النافذة ليترسّب على الزجاج، استمرّت أبخرة الألم تخرج من مسامها حتى غدت خفيفة طافية في فراغ وردي شفاف، وقبل أن تغرق في هوّة النوم، أخذت نفساً عميقاً لتخزن عطر ابنها في أعمق نقطة من روحها.

• • •

من أنا؟! سؤال لئيم يحاصرها، يباغتها من شقوق جدران السجن، ويلتصق بها، فلا تعرف كيف تتهرّب منه، تتحدّى هذا السؤال بشراسة

وتصمّم على تجاهله لكن سرعان ما يهزمها إذ يعطيها إحساساً أنه الأقوى، وأنه لن يتركها حتى تحدّق في مرآة روحها وتعترف أنها إنسانة مُحبطة في مدينة بكلتها الإحباط، مدينة أشعرتها طوال الوقت بالاشمئزاز من حياتها، طالما أحسّت بالخجل أنها تعيش في هذه المدينة، لكن لا خيار آخر أمامها، الزمن فيها أبدي، ليس فيه أية نبذبات تغير ولا نبض حياة، زمن أشبه بحركة أبدية لا معنى لها تتكرّر إلى ما لانهاية، الأيام أشبه بنقاط مياه متماثلة، تنقط، نقطة إثر نقطة إثر نقطة... هكذا أيامها، وأيام الناس في مدينة الموت والإحباط هذه، أوراق مصفرّة لشجرة حياة مريضة تتأمّل بحزن ذبول أوراقها - أولادها - وسقوطهم في هاوية خيبة الأمل...

أمامها كل الوقت للتفكير وتأمل حياتها، هل هي ضحية حلم التميّز؟! ألم تكن تسعى طوال حياتها لتميز نفسها عن الآخرين؟! لكن أكانت مميّزة حقاً؟! ألم تشعر دوماً بالطاقات العظيمة داخلها تغلي، وتحاربها، لا تعرف كيف تجسّدها... ما كان يدهشها إحساسها المستمر أنها تعيش قدراً ليس قدرها، وأنها تحسّ أن هذه المدينة لا تقدّم لها شيئاً، بل تتفنّن في إطفاء وهج روحها... ولم تفهم ماذا يعني هذا الشعور المستمر بأنها تعيش حياة ليست حياتها الحقيقية... لكن كيف تكون الحياة الحقيقية...

أسئلة تتناسل من فراغ السجن، أو تتسلّل إلى عقلها طالعة في أعماق روحها وخلف كل هذه الأسئلة يرتسم وجه ابنها دوماً، أنها تعبده ولا تنفكّ لحظة عن تخيّله كيف يتصرّف في كل ساعة من ساعات اليوم، كم تحتاجه، انه دنياها ومصدر وجودها وتحمّلها، وهي لن تتمنّى الخروج من السجن إلا لأجله... كانت تستسلم لنوب بكاء عاصفة، ولم تفكّر يوماً أنها تملك كل تلك الموهبة في ذرف الدموع لدرجة تضطرّ أن

تجفّفها بمنشفة، لم تبدُ لها حياتها مأساوية كما بدت وهي سجينة، فكّرت أنها تعيش حقاً في قلب الجحيم، ولم تكن يوماً محظوظة، وشعرت بحقدٍ متفجّر وساحق لكل الناس، لماذا وحدها من بين جميع اللصوص والمرتشين تقع في الفخ؟! لماذا تتحمّل وزر أخطائهم وهي أقلهم انتفاعاً؟!

كانت تناجي ابنها لأنها تحتاج أن تبوح بما يعذّب روحها، تتأمّل صورته بوجد وتهمس له "لا تصدّق يا حبيبي أن الإنسان في هذا البلد يمكن أن يبقى شريفاً، أقول لك هذا مستحيل، لأنهم يدفعوننا دفعاً لنسرق، لأننا نحتاج أن نشبع الطعام، ونؤمن اللوازم الأساسية للعيش... فكّرتُ أن أتشاطر يا بني وأن أجمع مالاً لأؤمّن لك بيتاً وعيشاً كريماً، لتستطيع أن تدرس في الجامعة، وأتمكّن أن أدفع لك قسط الجامعة الباهظ إن لم يسعفك المجموع العام في البكالوريا باختيار الدراسة التي ترغب...

أتعرف يا حبيبي اعتبرتُ نفسي محظوظة حين اختاروني لأكون رئيسة قسم العمليات، قدّموا لي باقة بديعة من الورد، ثم بدأوا بإغرائي ببيع بضعة خيوط جراحية في البداية، يا حبيبي إنهم عصابة، تسرق كل شيء، كل شيء، الأدوية الخيوط الجراحية، الأجهزة الطبية، ولو كان الهواء يُسرق لسرقوه، شعرتُ بالزهو في منصبي الجديد، لم أحتج أصلاً أن يجرّونني إلى السرقة، لأني كنتُ سلفاً متجفّفة من الحرمان، لاهثة على أعتاب الدكاكين ومحلات الألبسة، أتأمّل البضائع بعيون متجفّفة من الحرمان والقهر... يقولون لي دون حاجة للكلام: أنتِ الآن مالكة العمليات، كل المفاتيح بين يديك، هيا تشاطري... وتشاطرت معتقدة أنني أحقّق نجاحات باهرة في عصر اللصوص الأسياد.

• • •

منزوية في زاوية سجنها، تفكّر بالحياة في الخارج، لم تعد تنتمي للشارع والمشفى والناس، إنها خارج قوسي الحياة، وحيدة في زنزانة، تحلم بالحياة في الخارج بتوقٍ غريب، كشيء خارق، كل شيء في الخارج يبدو لها غير عادي وخارق، ليس هناك ما يدهش بقدر الحياة، بقدر تلك التفاصيل اليومية التي لا نعيرها انتباهاً، بائع القهوة الذي يحمل دورقه الكبير ويطقطق بفناجينه المعدنية وهو يمر في أروقة المشفى، المتسوّلة المعتوهة القذرة، رثّة الثياب التي تطلب الصدقة من الجميع بطريقة مضحكة ومخزية في الوقت نفسه، الجلسات الصباحية للممرضات حول طاولة الفطور الفقيرة ورائحة الخبز والشاي والقهوة، والبخار المتصاعد من البطاطا المهروسة، والأيدي الخشنة المتعبة، متقصّفة الأظافر التي تمتدّ إلى الصحن لتغمّس البطاطا بالخبز الطازج...

إنها خارج قوسي الحياة، لم تعد تنتمي لتلك المشاهد الحية، مرّ أسبوع وهي تعيش وسط أبخرة الذكريات، مستسلمة لحالة من انهمار الصور أمام عينيها، كانت تحسّ أنها مسكونة بجوف فارغ سرعان ما تمطر فيه آلاف الصور، ترى هل تتحوّل حياتها إلى مجرد صور؟ ما الذي يكمن خلفها؟ لماذا تخاف سَبر عمق صورة؟! لتبقى في السطح ففيه الأمان. لكنها مع الوقت بدأت أفكارها بالتسلّل إلى ما خلف الصور حيث تقبع الحقائق المخيفة، كخفافيش ساكنة في العتمة، عتمة العقل لا تضاهيها عتمة، لعله السجن هو الوحيد القادر على مواجهتها...

ومن انهمار الصور في فضاء الزنزانة، ومن ذكرياتها التي انتعشت نافضة عنها غبار النسيان، بدأت تعيد اكتشاف حياتها وحياة الناس حولها، ياه كيف يرتشح الخوف من العادي، بدت لها الأحاديث اليومية العادية المتدفقة بسلاسة وعفوية خطيرة فعلاً، فاضحة، ألم تكن محور الأحاديث دوماً انتهاكات الفاسدين وتجاوزاتهم للقوانين، الرشاوى

الهائلة التي يقبضونها على كل خربشة من توقيعهم، لا تتوظّف طالبة في مدرسة التمريض دون دفع رشوة، لا يوظّف مواطن في مصرف دون دفع رشوة، لا تقبل طالبة في معهد المعلمين دون دفع رشوة، لا تنتقل مدرّسة من مدرسة إلى أخرى دون دفع رشوة، لا يحصل إنسان على منصب دون دفع رشوة... ياه كيف تتدفّق تلك الأحاديث بصورة عادية وعفوية ودون أي إحساس بخطورتها وعمقها، كما لو أنهم يتحدّثون عن حالة الطقس أو عن فيلم سينمائي... هل يحوّل الخوف الناس إلى مجرد متفرجين على الحياة... فكّرت أن الشعب كله صار يتفرّج على حياته كمشلول، كما يتفرّج على برامج التلفاز وهو بحالة شلل على كرسي التحنيط اليومي...

كيف يثرثرون تلك الأحاديث الفاضحة المخزية دون أن يجرؤ أحد على الحلم بالتغيير بأن يكون فاعلاً أو مبادراً، دون أن يخطر بباله أن يطرح فكرة من نوع: ما رأيكم يا أصدقاء، لِمَ لا نحاول التغيير، لِمَ لا نقوم بفعل ما لمحاربة الفساد حولنا...

بل إن مجرد فكرة من هذا النوع يمكن أن تسبّب توقف قلبهم من الخوف.

تومض في ذهنها فجأة صوراً، وجوه تحسّ أنها تراها للمرة الأولى، كفقاعة تفجّرت، صورة إنصاف، الممرضة الخمسينية الأكثر تعباً وشقاء، متعتها الوحيدة في الحياة التدخين، تعيش لاهثة لتأمين مصروف أسرتها، تتورّط من جمعية إلى أخرى لدفع رشاوى للمتنفّذين كي يوظّفوا أولادها، طوال ثلاث سنوات نزفت طاقاتها النفسية والعصبية لتشبك نفسها في ثلاث جمعيات كي تتمكّن من دفع رشوة إلى ابنها ليسافر في البحر... تنفث دخان سجائرها وتقول كأنها تخاطب نفسها: أشعر أني أرميه في المجهول، جو البحارة وسخ وسخ، لكن ما باليد حيلة، لا

عمل له في هذا البلد، صار يهدّدني بالانتحار فيما لو بقي متسكعاً في الشوارع وليس في جيبه قرش.

بعد سنوات أصابتها حالة من الهياج الغريب، ركعت في استراحة العمليات شبكت يديها كما لو أنها تصلّي، نقلت نظراتها الزائغة بين وجوهنا، ورجتنا أن نشكّل جمعية لأنها تحتاج لمبلغ مئة ألف في مدة أقصاها أسبوع، كي تتمكّن من دفع رشوة للأخطبوط الذي يمكن بخربشة من توقيعه أن يلحق ابنتها في معهد إعداد المدرسين... لم نتحمّس لما قالته، قلت لها: اللي فينا كافينا، ما عدنا نملك القدرة على التورط في جمعيات... لكننا لم نتوقّع أنها ستنهار، نظرت إلينا نظرة ميتة، ثم تحاملت على نفسها ومشت، مشية مضطربة، وهوت على الأرض فاقدة الوعي.

أصيبت بنزيف في الدماغ إثر ارتفاع مفاجئ وعالي لضغط الدم، وأفاقت من الغيبوبة بعد أيام... لكن الجميع حين يستعيد تلك الحادثة يضحك وقلبه ينعصر من الألم، فالذي جعل إنصاف تفيق من الغيبوبة ليس العلاج، بل لأن زميلاتها نجحن أن يجمعن لها مبلغ مئة ألف لتدفعه إلى الأخطبوط الذي قبل ابنتها في مدرسة إعداد المدرسين.

تتأمّل إيمان وجه إنصاف، تستعيده وتشرحه وتسلّط عليه ضوءاً قوياً...

باه، كيف لم ينتبه أحد كيف هَرِم وجه إنصاف خلال أيام، تهدّلت ملامحها، وغارت عيناها، يبست شفتاها، ورشح من وجهها تعبير ضيق لا يحتمل، ولم يبدُ عليها الارتياح بعد قبول ابنتها في المعهد، كانت تضرب كفاً بكف وتقول: تصوّروا أولاد القحبة والله أريد أن أعرف كيف يخطّطون، أية حكمة أن تكون السنة الأولى في حلب والثانية في اللاذقية، ينقلون الطلاب مثل القطيع، من مدينة إلى مدينة أخرى ليرهقوا

الأهل بمصاريف زائدة.

بدا السجن أشبه بامتحان لذاكرة إيمان، أو ربما رؤية كاشفة، إذ لم تدرك أية مذلّة هي الحياة في الخارج... أرعبها اكتشافها كم أن الإنسان يعتاد الذل، كما يعتاد كل شيء في حياته، بل أخذت تحاول التخفيف من عذاب أفكارها، واكتشافها لهول الذل والخوف في الخارج بأن ترسم صوراً كاريكاتورية للحياة، فتستحضر إلى ذهنها يوم قبض الراتب، تحب أن تشبه طابور الموظفين المتدافعين بفظاظة وقسوة باتجاه المحاسب، بقطيع أضناه العطش ووجد فجأة نبع ماء... صراخ وشجار وتدافع وأجساد متلاصقة بلا حياء، للحصول على بضعة ورقات مالية تكفي ثمن خبز لأسبوعين، وإذا حاول أحد الموظفين الاستفسار عن شروط أخذ قرض من المصرف أو عن موضوع آخر، علت صرخات الاحتجاج والشتائم ليخرسوه، لأنه يؤخرهم لثواني عن قبض الراتب.

تشعر إيمان أحياناً أن للسجن ميزة وحيدة، وهي أنه يُشعرك أن الزمن أقل وطأة لأننا نصير خارجه، لا نتحمّل ضغوطه، إنه يعفينا من الانتماء لعصر الانهيار والتوتر، لكنها، وفي لحظات كثيرة، وبينما هي غارقة في آلام روحها تشعر أنها تخدع نفسها بتلك الإحساس... وبعد مرحلة الصدمة وبلبلة الحواس توصلت للحقيقة التي يجب أن تحارب لأجلها: ممنوع أن تنهاري، تردّد هذه العبارة لنفسها عشرات المرات في اليوم، تقف وسط الغرفة، تأخذ نفساً عميقاً، تشدّ قامتها بوضعية الاستعداد، تشبك يديها بقوة، تكزّ على أسنانها وتصدر أوامرها لنفسها: اسمعي ممنوع أن تنهاري ممنوع، هل فهمت؟! ممنوع أن تنهاري من أجل ابنك ومن أجلك أنت، كي لا تسمحي للشامتين والحاقدين أن يتلذّذوا بمصابك أكثر، ثم تخاطب نفسها برأفة ورقّة تحتاجهما بشدّة: اسمعي لقد وعدك المحامي أن يبذل كل جهده لإخراجك من هذه

الورطة، استأنف الحكم، وسيضع كل إمكانياته لنقض الحكم الأزلي بالسجن... لستِ الوحيدة التي سُجنت وحين ستخرجين ستسافرين إلى السعودية، سجن السعودية على قسوته أرحم من سجن وطنك الذي أهانك وأذلّك، على الأقل سيدفعون لك في السعودية راتباً يُشعرك بكرامتك.

لكن أكثر ما تفتقده في السجن الكلام، أنها تشتاق لتبادل الأحاديث، تخشى مع الوقت أن تفقد قدرتها على التعبير، تخشى الا تتمكّن من صياغة جملة... فكانت تقوم بتمارين لحنجرتها، تتكلّم وتتكلّم، مجرد كلام، تدندن كلمات أغاني، تخاطب ابنها، تستنسخ من نفسها صديقة تتجاذب معها أحاديث متنوّعة، أو تقرأ بصوت مرتفع صفحات من كتب.

في السجن تتجلّى الحقيقة، حقيقة عيشنا ووجودنا، علّمها السجن كيف يتظاهر الناس أنهم سعداء بحياتهم، يوهمون أنفسهم أن كل شيء على ما يرام طالما أنهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون، ويتخدّرون لساعات أمام شاشة التلفاز، ثم ينامون ليجترّوا يوماً أبدياً إلى ما لانهاية... لقد روّضوا أنفسهم على الشعور بالهزيمة المتغلغل في أرواحهم، روّضوا أنفسهم على تقبُّل اليأس اللطيف الأملس، بل موّهوا الحقائق واعتبروا أنهم حكماء وراجحو العقول، بعدم مواجهتهم واعتراضهم وانتقادهم لمظاهر الفساد حولهم، لسان حالهم يقول: ماذا استفاد من جهروا بالحق وأشاروا للسرقات والفساد، أما كان مصيرهم السجن؟!

لذا فمن الحكمة أن نخرس، أن يكون شعارنا في الحياة: الحيط الحيط ويا رب السترة. واليد التي لا نقدر على قطعها نقبّلها وندعو لها بالكسر...

لكن... لكن كيف تتحوّل حياة شعب إلى حياة قطيع في حظيرة!... كيف يتحوّل الإنسان إلى حيوان في قفص!

أين الكرامة؟! أين الإحساس بالكرامة الذي هو ذاته الإحساس بنبض الحياة الحقّة؟! السجن يفجّر الأسئلة في كيانها لكنه لا يقدّم لها الأجوبة؟ من سيقدّم لها الأجوبة، لكن الأجوبة ستكشف من تلقاء ذاتها حين ستتعلّم قراءة الواقع بعين الحياد الشُجاعة... فهمت الآن، وهي متربّعة على السرير العتيق الضيق في زنزانة سبب كآبتها العميقة المستبهمة، وإحساسها الدائم بالضيق، وذلك الأرق اللعين الذي لا يفارقها أبداً، وتصارعه كل ليلة بالمنومات، إن سبب كل تلك المشاعر إحساسها الدائم بانتهاك كرامتها.

لم ترغب أبداً أن يزورها والداها في السجن، طلبت من ابنها أن يبلغهما بأنها تفضّل الوحدة ولا تحتمل زيارة أحد، لكن ابنها كان ينقل لها كل مرة يزورها رغبتهما في زيارتها... فترفض بإصرار... أعفاها السجن من واجب المُجاملة، لم تعد مضطرّة لمجاملة أحد وفرض ضغوط إضافية على روحها... تستعيد السنوات التي عاشتها معهما بإحساس مستمر طاغٍ بالمرارة والاختناق. يا للهزيمة، يا للهزيمة حقاً، فالحب الأسري مريض، ألم تمرّ سنوات شبابها وهي تعيش معهما بحالة صراع صامت مستمر، وأحياناً ينفجر هذا الصراع بدوي هائل ويتفجّر على السطح، وبين رغبتهم العنيدة والطاغية بسجنها في إطار ورسم حدود لحريتها وتمردها الدائم لكسر كل الأطر وكل الحدود، تمرّ السنوات ويضيع العمر... وينزف الفرح والسلام، ويسود الغضب والحقد.

فهمت الآن وهي تتنفّس هواء السجن، كيف لم تطق يوماً النظر في عيونهم... لأنهم يقيتونها كل مرة، يُفهمونها أنهم غير راضين عن

تمرّدها على نمط الحياة السائد، يفهمونها أن كثيراً ما تحرجهم وتضايقهم وتؤذي مشاعرهم بتلك الإنسانة الجامحة المتمردة التي تهيمن عليها... يُشعرانها كل لحظة أن عليها أن تتغيّر وتتمدّن وأن تبردخ نتوءات روحها المتمردة لتنال رضاهم ورضى القطيع... يطلبان منها دوماً أن تفصّل ثوب شخصيتها الجديد - حسب مقاييس المجتمع - وتلبسه فوق ثوب شخصيتها الحقيقية...

وهي هي تعيش معهما بحالة دائمة من الرفض والغضب، والغليان، وُتصّر أن تحقّق وتكون ذاتها التي خلقت لتكونها، لكن مع الزمن ضاعت الصورة الحقيقية التي خُلقت لتكونها، فصار عليها أن تبحث عنها في ساحة الخراب التي سبّبها الغضب والحقد والصراع الخفي المستنزف للطاقات مع الأهل، صار عليها أن تبحث عن وجهها الحقيقي... لكن للأسف لم تعثر عليه لأن الصراع الوحشي والزمن شوّهه!!

أكثر ما يؤلمها إحساسها أنها تتنفّس طوال الوقت وجودهما، يذكّرانها مع كل شهيق وزفير أنهما يدعمانها ويؤويانها وصغيرها، وأنها لولاهما تضيع، أية مرارة أكبر كونها تشعر بالقهر والمرارة كلما تذكّرت والديها... لكنها أدركت بعد طول تأمل في علاقتها معهما أن عليها ألا تلومهما، وألا تلوم نفسها أيضاً، فالمسؤول الحقيقي عن خراب علاقتهما هو المجتمع، نمط الحياة في هذا البلد، الراتب الحقير الذي لا يسمح لها أن تستقلّ بالعيش، وعقلية الناس المتعفنة التي تنظر للمطلقة والراغبة بالعيش بحرية كعاهرة، كلاهما ضحايا، لكنها مكتوية بأسى عميق عميق ترك وشماً في روحها وندوباً... وإذا زاراها في السجن ستومض ندوب روحها بألم حارق هي بغنى عنه.

من بعيد يمكنها أن تشعر تجاههما بحنان غامر، وتفكر أنهما مسكينان حقاً وبأنهما تحمّلا تعثر حياتها ومشاكلها، ولم ينعما أبداً

بالراحة والطمأنينة، تتذكّر تلك المرحلة الأشد أذى وظلاماً في حياة أسرتها حين كان والدها يتلقى مكالمات ليلية من مجهولين يقولون له بأن ابنته عاهرة وتواعد فلاناً في شقته وتضاجعه... تعرف كم سبّب له تلك المكالمات أذى عميقاً، وكيف يقضي الليل محدّقاً في الظلام والخزي يعتصر قلبه... وكيف كيف عاقبها بصمت الازدراء والترفّع... صمت الازدراء الطريقة المثلى لإيصال احتقارك للآخر.

رفضت كل الزيارات، فالعديد من الممرضات والأطباء - زملائها - أرادوا زيارتها، لكنها عاجزة عن مواجهتهم، لأن مجرد استحضارها لوجوههم يعذّبها ويشعرها بالرعب، تشعر أن أصواتهم ستجرحها، ونظراتهم تثقب جسدها، وأنفاسهم ستصيب جلدها بالحروق... إنها تحتاج حقاً لرحمة العزلة... وحدها العزلة رحيمة، أما العالم الخارجي فلم يقدّم لها سوى الأذى.

وحده ابنها دنياها، صلة الوصل بينها وبين الخارج، ودوماً يبهرها تعبير السلام والحب في وجهه، يتوهّج قلبها، بل يتوهّج كيانها كله، كلما زارها محمّلاً بالأغراض، تحسّ كيف تشعّ عيناها بالهوى والوجد حين يدخل، تتلمّس وجهه وجذعه بقدسية وعشق، تقبّل رأسه ويديه ووجنتيه... ترجوه ألا يتململ من حبها ومن فوران عواطفها، ينقل لها الأخبار، من يسلّم عليها، يقول الجميع يحبها ويسأل عنها، وبأن الهاتف في البيت لا يتوقّف عن الرنين للسؤال عنها... تستمع إليه وهي تمسك يديه، شاعرة أن شحنات الحنان الشافي تنتقل من يديه الطريتين إلى يديها الأثمتين، فتشفى، وتتساءل: أتراه يتعلّم الكذب لأجلي، كما تعلّمت السرقة لأجله؟!

ترجوه في كل زيارة ألا يسمح لسجنها أن يؤثّر على دراسته، وحين طلبت منه أن يحضر لها كل صوره، وكل صورهما معاً، لم يستطع أن

يقاوم دموعه، أخفى وجهه بين يديه وبكى، لأول مرة عجز عن السيطرة على انفعالاته، ضمّته إلى صدرها، اعتذرت له، لثمت دموعه، وتحسّست بافتتان طعمها المالح، همست له وهي تمشّط شعره الناعم بأصابعها بأنها تعبده وأنها تحتاج صوره لتدفأ روحها، لتُحيي الأمل النحيل الذي تخشى أن ينطفئ شعاعه وسط سواد اليأس... ورجته أن يقول لها لِمَ أزعجه طلبها إلى هذا الحد...

لم يجب... وحين ألحّت، نظر إليها نظرة متعبة وقال: صدقيني لا أعرف.

لم تتوقّع أنه ستنشأ حميمية بينها وبين السجن، لم تعد الغرفة سجناً، بل بيتاً. نشرت صور ابنها في كل الزوايا، تبتسم له وتتذكّر الحادثة الخاصة بكل صورة. تشعر أنها تتخطف لذلك الزمن الجميل الدافئ حين كانت تتمتّع بقربه.

كانت تجاهد كي لا تستسلم للندم، عارفة أن الندم وحده قادر على تسميم روحها والإساءة إلى مستقبلها، الندم جرثوم قاتل لا يعرف أحد مدى سُميته، إنه أشد فتكاً من اليأس والحزن، صحيح أنها تردّد لنفسها مئات المرات في اليوم: ما جرى قد جرى ولا ينفع الندم، لكنها كانت تترك الندم ينهش روحها كسرطان... وتتخيّل أنها تناجي وحيدها وتستسمحه وترجوه أن يسامحها، تتخيّل أنها تركع أمامه، وتوسد رأسها في حضنه وتتدفّق باعترافها الصادق: لا تقل لي لماذا يا ماما أخطأت، لستُ أنا من عليك أن تطرح عليّ السؤال... اسألهم هم يا حبيبي، وجّه اللماذا لهم، لماذا يعطوننا معاشاً يمسخ كرامتنا ويهيننا، صعب عليك أن تدرك أن الراتب يساوي لا شيء... أو تظن أن ثيابك الجميلة، وكتبك وألعابك والمقاهي التي ترتادها من قوة الراتب... لا يا حبيبي، لقد حشروني - وملايين مثلي - في زاوية وقالوا لنا تشاطروا، انهشوا في

لحم الوطن... لكن تبيّن لي أنهم أكلوا الوطن كله ولم يبقَ لي إلّا الفتات... والآن يدينونني بهذه الفتات.

• • •

بعد شهرين من سجنها، اقتحم المحامي عزلة سجنها وهو بحالة هياج من إحساسه بالنصر كما لو أنه توصل لاكتشاف مذهل...

ابتدرته بنفاذ صبر: خير يبدو أنك تحمل أخباراً...

قاطعها: سارة، سارة جداً.

هوى قلبها، رجته أن يقول كلامه دفعة واحدة، لأن قلبها على وشك التوقف.

رجاها أن تهدأ، وطلب إليها أن تشحذ عقلها لتركّز في كل كلمة يقولها.

أشعل سيجارة، فطلبت سيجارة معتقدة أن التفاهم بينهما سيكون أعظمياً حين يتشاركان متعة التدخين.

قال بصوت مدجّج بالثقة: اسمعي لقد طبختُ الموضوع جيداً، ثمة تسوية ممتازة ستُخرجك من السجن مثل الشعرة من العجين، لا تسأليني عن التفاصيل أرجوك لأنها أصلاً غير مهمة، فالمهم النتائج، والنتيجة المضمونة أنك ستخرجين خلال أيام أو أسابيع قليلة بريئة مئة بالمئة.

صرخت: كيف، كيف...

نفث دخان سيجارته في وجهها فدمعت عيناها وتابع: سندفع مليون ليرة لقاضي الاستئناف مقابل إصداره الحكم ببراءتك.

شعرت فجأة كما لو أن الأرض تنشق وتبتلعها وهمست باكية: مليون.

- أجل، كل شيء يهون، كل شيء رخيص في سبيل براءتك، هل

من شك بذلك؟!

- لكني لا أملك مليوناً.

تململ قبل أن يبصق كلامه دفعة واحدة: بل تملكين... البيت، البيت الذي تملكينه يساوي حالياً مليون، خاصة بعد جنون الأسعار في الأشهر الأخيرة.

ودون أن تنتبه انتفضت واقفة كأن حشرة لسعتها، حدّقت به مذهولة متشككة مما قاله لكن نظرة عينيه أكّدت لها الحقيقة: أعطِ بيتك للقاضي ثمن براءتك.

لم تستطع أن تتفوّه بكلمة فالصدمة أطاشت صوابها، لكن عينيها أعفتاها من الكلام إذ أوصلت العبارة للمحامي: لكن كل ما فعلته وغامرت بسمعتي وشرفي لأجله هو من أجل الحصول على بيت، على سقف يؤويني وابني، فكيف سأعطيه للقاضي.

اختلطت مشاعرها فلم تعرف ماذا تشعر وكيف تفكّر، لكن سيطرت عليها رغبة جارفة بأن تتحوّل إلى قنبلة تنفجر محولة العالم حولها إلى دمار.

يبدو أن ثمة لهيب وغضب أعمى داخلها لأنها انتبهت أن المحامي صار ينظر إليها بخوف، كما لو أنه يخشى ردود فعلها العنيفة المتوقعة.

ولم تعد قادرة على طلب المعونة والدعم من صور ابنها، إذ أحسّت أنها تنتمي إلى عالم آخر موغل في القبح والفساد والانتهاك لكل نقاء الطفولة وبدا لها قدرها لئيماً على نحو لا يحتمل، وتساءلت دون أن تنتظر جواباً: أتكلّف براءتي مليون ليرة؟ لكن أحقاً يساوي بيتي مليون؟

وكما لو أن المحامي قرأ تساؤلاتها فقال: احمدي ربك، فأنت محظوظة، لأنك في الوقت الذي اشتركت بالجمعية السكنية كانت الأسعار رخيصة جداً وتافهة، الآن بعد جنون الأسعار صار بيتك يساوي

مليوناً على الأقل وهكذا.

لم تتركه يكمل، إذ انفجرت بضحك عصبي جعلها تنطوي من ألم بطنها...

بدا الانزعاج على المحامي فسألها: هل قلتُ شيئاً يثير عاصفة ضحكك... وبصعوبة تمكّنت من صوغ عبارتها: أقلتَ إنني محظوظة، أي حظ هذا أتسخر مني...

قال: اسمعي... سأمهلك أياماً للتفكير، لكن صدّقيني لو كنتُ مكانك لما ترددتُ لحظة، فكل شيء يهون ويرخص في سبيل البراءة.

- لكن ألا يمكن للقاضي أن يرأف بي ويقلّل من المبلغ؟! مليون، يا إلهي مليون ليرة هذا جشع فظيع...

- حاولت المستحيل... لا يرضى أقل من مليون.

• • •

يا للمهزلة، دفعت بنفسها في طريق التهلكة كي تحصل على بيت، آمنت أنه الاستقرار والأمان في بلد لم يقدّم لها سوى الذل والفقر والخوف وسحق الكرامة، غامرت بشرفها، وسمعتها ومهنتها كي تحصل على بيت، وحين حصلت عليه سوف تقدّمه للقاضي رشوة لتحصل على براءتها، لتخرج من سجن قد تتعفّن فيه لسنوات. لكن مليون! مليون! ياه ألإلى هذا الحدّ يتّسع بطن القاضي، تتخيّله قادر على ابتلاع الكرة الأرضية، بل لعله قادر على ابتلاع المجرات السماوية أيضاً... لكن أتصدّق المحامي؟ ألا يحتمل أنه شريك للقاضي؟! وماذا يهما إنها في وضع الضعيف، إنها عالقة في شرك ولا يحق لها أن تسأل ولا أن تملي شروطاً...

إنها تحت رحمتهما القاضي والمحامي.

المعادلة بسيطة: ادفعي تبرئي.

لا تدفعي تتعفّنين في السجن.

في الواقع لم تعش صراعاً شرساً، بل هبط عليها حدس مؤكد بأنها ستذعن وستقبل بأي ثمن من أجل أن تخرج من السجن، من أجل أن تعود إلى حبيبها، تعيش ما تبقى من عمرها بجانبه... لكن أكثر ما يكويها من الألم إحساسها بفداحة الظلم - لا شيء أشد ألماً وقهراً للإنسان مثل الظلم - أيخلصونها بيتها الذي استماتت للحصول عليه كي تؤمّن استقراراً في الحدّ الأدنى لها ولابنها... أتعود تلك الموظفة المتسوّلة اللاهثة في سوق الألبسة المستعملة!... هل على الفقراء أن يموتوا قهراً كل يوم حتى تبتلعهم حفرة بالكاد تتّسع لآلامهم؟

لم تعرف كيف تسلّلت فكرة الانتحار إلى عقلها، وبدا لها الانتحار النهاية الأكثر حكمة وإنصافاً لورطتها، لِمَ لا تضع حداً لحياتها؟ أغوتها فكرة الانتحار، ستموت دافنة عارها معها، وسيتعود ابنها على غيابها ويتابع حياته، وهو يملك بيتاً.

لا، لن تنتحر، لسبب وحيد كونها أم... الأم عكس الموت، إنها تخلق الحياة وتحارب الموت... مهما غرقت في اليأس والحزن فلن تنتحر، لأن جسدها خلق حياة، طلع منها ابن تعبده، لو قتلت روحها ستقتله، روحهما واحدة... في زمن ما كان النسغ ذاته يتدفّق في جسديهما، والنبض ذاته يتراقص في شراينهما، والمشاعر نفسها تتماوج في صدريهما، فكيف كيف تقتل أحد التوائم... أجل إنها مجرد انعكاس لحبه، إنها صورته في مرآة الوجود والحب، وهي أم أي وجود وحب، فكيف كيف ستنتحر... لكن أي قهر أكبر من كونها فريسة مشلولة لا حول لها ولا قوة في يد مجرمين لصوص متنكرين بثوب العدالة والحق.

• • •

ليس مثل السجن مكاناً مثالياً لطرح الأسئلة الفلسفية والوجودية، كانت تغرق بتساؤلات عميقة، شاعرة أنها تنقّب في منجم عن معاني لم تعطها أهمية، تفكّر بالناس، بعلاقتها بهم؟ هل حقاً لا تبالي بتقييمهم لها وباحترامهم؟! لماذا أحسّت بامتنان كبير لمدير السجن حين خاطبها برقّة وإنسانية قائلاً: أرجو ألّا تطول إقامتك عندنا، وحين سمح لابنها أن يحضر لها تلفازاً صغيراً، وحين كان يرسل لها من وقت لآخر بعض الحلوى، وأنواعاً من الشاي المعطّر... كيف كانت تجنّ من الفرح والرضى وهي تتلقّى تلك اللمسات الإنسانية الرقيقة التي إن دلّت على شيء فهي تدلّ على احترامه لها... أكانت تكابر وتخادع نفسها أنها ليست بحاجة لاحترام الناس!

كيف تفسّر حالتها البائسة إذاً وهي تشعر أن كل أعضائها تنزف ألماً، وتحسّ بالدونية والصِغر لأن الناس لا يحترمونها ويغتابونها ويحكون عن سلوكها الشائن ويشمتون من سقوطها في فخ السجن!

ألم تفهم كم أن الناس قادرون أن يدمّروها وأن يحيوها، تتخيّل لو أنهم يبتسمون بوجهها ويظهرون لها الاحترام والتقدير، ألا تزول آلامها بلمح البصر؟!

تتذكّر بأسى حارق حين كانت مديرة لقسم العمليات، وكيف كانت تملي أوامرها للممرضات والأذنة، وكيف كان كل الأطباء يخطبون ودّها، ويقدّمون لها الهدايا في عيد الممرضة، أما كانت تنتشي من مظاهر التقدير والاحترام... ثم تصفعها خيالاتها بصورهم يحتقرونها ويغتابونها في سقوطها المشين... باه لم تكن تعرف كم كانت سعيدة، ولم تكن تقدّر أية نعمة تعيشها وهي ترشف قهوتها خلف مكتبها في استراحة العمليات... وحولها شلّة من الأطباء والممرضات يتناقشون بشتّى المواضيع ويجعلونها حكماً بينهم...

توغل في تفاصيل الذكريات لدرجة تشعر أنها تسمع أصواتهم وتشمّ روائح التعقيم، والثياب الخضراء الخارجة لتوّها من العلب المعدنية الضخمة والفواحة ببخار الصابون، رائحة اليود والكحول تغزوان أنفها، فتستسلم لنوب ذعر متسائلة كيف استطاعت أن تطوّح بكل هذا التقدير والاحترام، وكيف طوّحت بحصانة سمعتها؟!

تعيش في سجنها مؤجّجة المشاعر، مستعيدة أدق تفاصيل حياتها الحرّة في الخارج، حتى أنها تتوق للغبار الذي يفرش ظهر خزن العمليات، وتستعيد الصوت المعدني المزعج لأسطوانات التخدير حين يحضرونها ممتلئة أو يأخذونها فارغة وصياحها المتنمّر بالآذنة الا يصدروا كل هذا الضجيج.. ياه ماذا تملك في سجنها سوى غزو الذكريات، سوى أن تتحوّل إلى ساحة للصراع والألم، تاركةً مشاعرها تحرقها حتى تتحوّل في النهاية إلى امرأة من رماد.

لكنها وبعد نوب الانفعالات العظيمة هذه والتي تستمر أياماً، وتمنعها من النوم بسبب المشاعر الطاحنة من الحزن والندم - رغم مساعدة المنومات - كانت تمرّ بفترات من الهمود ويساعدها التلفاز كي تخدّر حواسها، صارت تتابع كل البرامج لا يهمّ إن كانت مسلية أم لا، تتابع كل البرامج باهتمام ليس للمتعة أبداً، بل لأنها تخدّرها وتغيّبها عن الإحساس الدائم بمصيبتها، وتلهيها إلى حدٍّ بعيد عن التفكير في العالم الخارجي، فهمت لماذا يصرّ الفقراء على اقتناء تلفاز، وتذكّرت العديد من البيوت التي كانت تدخلها لإعطاء المرضى إبراً أو لقاحات لأطفالهم، تتمعن حين تتأمّل تلك البيوت الغارقة في البؤس، لا يوجد كراسٍ ولا طاولات ثمة مخدات كبيرة مفروشة على الأرض، وبساط عتيق، وفي وسط الغرفة تلفاز، إنه الصديق الأكثر رأفة بالفقراء، وحده يخدّر أوجاع روحهم وأجسادهم، ويطلق خيالهم للحلم بالمعجزات،

ويوهمهم أنها قد تتحقّق ذات يوم... وحده التلفاز صديق الفقراء المخلص الذي ينقل هؤلاء البؤساء إلى مدن ساحرة الجمال، ويعرّفهم بأطعمة لذيذة يتخيلون طعمها فيحلمون أنهم يأكلونها وهم جالسون في مطاعم فاخرة.

صار ولعها بالتلفاز كبيراً لدرجة تحسّ بالتهديد حين تنقطع الكهرباء، إذ تشعر فجأة أنها تهوي إلى أرض الواقع حيث ينهشها الإحساس بالكارثة، ثم تسقط في فترات همود تبتلعها ببطء بعد أيام مرهقة من تأجّج المشاعر، تنام فيها بعمق، بل تشعر أن نومها أقرب للغيبوبة، لأنها حين تصحو تحتاج لزمن كي تدرك أين هي؟ وتحتاج لزمن كي تتأقلم مع واقعها كما لو أنها قادمة من عالم آخر، وتبدو لها مشاعر البلادة نعمة، تحاول أن تختبر نفسها، فتمنّى لو تبكي وتستحضر كل الحوادث المؤلمة، لكنها تعجز عن ذرف دمعة، وتحاول خلق أي حديث مع نفسها لكن جملها سرعان ما تنقطع، إذ تدرك لا جدوى الكلام، ولا جدوى البكاء... ولا جدوى الحياة حتى... تحسّ بخوف وذعر حين تدرك أن الهمود ليس رحمة بل موتاً فتتوق لحالة الاحتراق وتأجّج المشاعر.

تنزلق بسهولة، كما لو أنها تتزحلق على بلاط أملس وراء ذكرياتها، تتذكّر تفاصيل حصولها على البيت، كيف كان مجرد حلم لا تجرؤ على التفكير بإمكانية تحقيقه، وكيف حالفها الحظ بأن تحصل على دور صديقتها في الجمعية السكنية، ثم كيف بدأت مشروع بيع الأدوات الجراحية، وكيف كانت تدفع الأقساط، وتشترك بالجمعيات المتكاثرة واحدة إثر أخرى لتأمين أقساط البيت... ثم وفي نهاية المطاف تتخيّل البيت مبلوعاً في كرش القاضي.

وحده البيت الحلم قادر أن ينقلها بومضة عين من حالة البلادة

القصوى إلى حالة الانفعال الأعظمي، تشعر أن أعصابها تعرّى كأسلاك كهربائية متوهّجة بكهرباء الألم والغضب، ومجرد استحضار صورة البيت تسبّب لها ألماً ساحقاً، يعميها الغضب، وتتمنّى لو تملأ الدنيا صراخاً، أيعقل أن أعطي البيت للقاضي ثمن براءتي! أتضيع كل جهودي وأحلامي بأن أملك بيتاً آمناً يؤويني وابني سدىً؟!

تنسج حوارات وهمية لامتناهية بينها وبين القاضي الذي لا تعرف وجهه، لكن خيالها يرسمه كوحش آدمي، تسأله:

- ألا تشعر بالشفقة عليّ؟ ألا تحسّ بي، أنت تعرف ما الذي دفعني لهذه الممارسات وحده الفقر...

يضحك القاضي كاشفاً عن أسنان كبيرة مثالية للافتراس:

- يبدو أنك تتناسين جرمك، أنت مسجونة بجرم كبير كبير هو اختلاس المال العام.

- لستُ الوحيدة، وأنتَ سيد العارفين، أنا أصغر لصة، أما اللصوص الكبار فأنت تعرفهم، وتركتهم أحراراً، تركتهم ينهبون أكثر وأكثر، وجعلتموني كبش فداء علقتم عليّ أوزار خطاياهم و...

- لم تثبت عليهم الأدلة، ثم هذا ليس شأنك، اهتمّي بمصابك - يضحك بشماتة - أوَتجدين الوقت لتفكّري بهم، عجباً ألا تكفيك مصيبتك؟!

- أي إنسان سافل أنت، لا تحسّ بأي رادع من ضمير كي ترحمني، كي تفهم ظروفي، كي تفكّر بابني الوحيد الذي لا معيل له سواي، بل إنك تتلذّذ بتعذيبي... لكن أي كذب سافر كلامك عنهم، أحقاً لم تثبت عليهم الأدلة، أم أنهم حشوا كرشك ببيوت فخمة، وبملايين الليرات؟

يضحك بتلذّذ من منظرها متألّمة وعالقة في قبضته:

- مسكينة، مسكينة حقاً، أترين نفسك في موقع من يُحاكم ويسأل؟! ألا ترين أنك بين فكّي كماشة قد تهرسك وتحيلك حطاماً.

- الذي سيهرسني هو أنت، بجشعك المقرف، وانعدام ضميرك...

يقهقه بصوتٍ عالٍ: من يتحدّث عن الضمير، أنت! أين كان ضميرك حين كنت تحشين حقيبتك بالخيوط الجراحية وحين فتحت باب العمليات لتسمحي للصوص بسرقة جهاز التخدير وباستبداله بآخر معطوب...

- اسأل الذين خطّطوا ونفّذوا، ولم أكن أنا سوى أداة، سوى مفتاح لفتح باباً موصداً... لكنني سأجيبك أين كان ضميري، كان أعزلاً ومنفياً ومُعذباً... كان يرجوني ألّا أقوم بما سأقوم به، لكنني كنتُ منقسمة على ذاتي، وكان جانباً في نفسي يصرخ بجنون لقد قرفتُ الفقر والذل، وبأني سأتشاطر كما يتشاطر غيري، لأحقّق الحدّ الأدنى من العيش الكريم، بحق لي ولابني أن نأكل طعاماً مغذياً، وأن نلبس ثياباً لا تفوح منها روائح الألبسة المستعملة، من حق ابني أن يشتري كتباً وألعاباً، من حقه أن يعيش في بيت صغير جميل يشعره بالأمان والاستقرار وهذه الأشياء كلها لا تتحقّق سوى بالسرقة، سوى بنهب المال العام وأنتَ سيد العارفين.

- أستغرب منطقك في الكلام، يبدو أنك معتوهة، تتحدّثين كما لو أنك لا تزالين حُرة ما أنتِ الآن سوى فأرة عالقة بمصيدة، يجدر بك أن تنبطحي أمامي، وتقبّلي نعل حذائي كي أخرجك من السجن الذي يمكن أن تفقدي عقلك فيه، وأن تهرمي وتصيري عبرة في البلد.

تصرخ مقاطعة: لكنك تخلّصني من كل شيء، كل شيء، فأنا لا أملك سوى هذا البيت... وقد دفعت ثمنه باهظاً جداً، دفعت شرفي وكرامتي، وعانيتُ أقصى أنواع الصراع والعذاب النفسي، أيطاوعك ضميرك أن تخلّصني من الشيء الوحيد الذي أملكه... أيطاوعك ضميرك

أن تحرم ابني من الشيء الوحيد الذي يسنده في مستقبله.

ينفجر ضاحكاً: يا للكِ من ممثلة فاشلة في فيلم عربي سخيف، حسناً يا حسنائي مبروك عليك السجن، أتعرفين يبدو أنه يليق بك جداً، ما أجمل منظرك متربّعة على سرير معدني ضيق مصلوبة أمام شاشة التلفاز لتبدّد إحساسك بالقهر.

تنظر إليه أهو آدمي حقاً، أهذا إنسان أم وحش، يا لكرشه الهائل الذي يهتزّ كلما قهقه، تتخيّل داخل كرشه عشرات العمارات، وأكواماً من الرزمات المالية بكل العملات.

تسأله بصوتٍ واهن: ألا يكفيك ما عندك، أتخلّصني من الشيء الوحيد الذي أملكه والذي خاطرت بسمعتي وشرفي لامتلاكه...

- شرفك، أي شرف هذا، أوَتظنينني غافلاً أنك كنتِ تضاجعين رجلاً ثرياً في شقته لكن سؤالي لك كيف لم تقتنصي منه عدّة ملايين؟!

- يا لسفالتك، حقاً لا حدود لسفالتك، لا تريد أن تفوّت حادثة بهدف تحقيري، والتلذّذ بمصابي، أتعرف لِمَ لم أقتنص منه الملايين، لأني اعتقدتُ أن ما بيننا حباً، وحين سأستغله لا أكون أحبه، بل أكون سافلة. لستُ عاهرة لأقبض مالاً من رجل أحبه...

يسأل باستخفاف: وكيف تكون العاهرة إذاً؟!

يفاجئه جوابها، وهي تحدّق إليه بثبات واحتقار: تكون مثلك تماماً.

يبتسم وهو يتثاءب بوقاحة: مسكينة، تذكّري دوماً أنتِ العبدة، وأنا السيّد.

ينسج خيالها كل يوم عشرات السيناريوهات في حديثها مع القاضي... وفي كل مرة تكون النهاية بانكسارها. تعرف بحدسها أنها ستتنازل عن البيت وأن لا سبيل للخروج من ورطتها سوى الإذعان... ماذا تملك وهي سجينة سوى الإذعان؟! لكن ألم تكن طوال حياتها

مذعنة لسلطة تهرسها وتذلّها وتجبرها أن تكون غير ما هي عليه، وأن تتحوّل من إنسانة رقيقة عاشقة للشعر، مرهفة الشعور إلى إنسانة غريبة عن جوهر كيانها، تخافها وتتمنّى لو تتملّص منها... لكن ما تطلبه مستحيل، بل هو المستحيل عينه، إذ كيف يمكن للإنسان أن يهرب من ذاته.

• • •

انسكبت براءتها مرارة حارقة في قلبها، استقرّ بيت الأحلام في كرش القاضي وخرجت من السجن الصغير إلى السجن الكبير مطوّقة بالضيق دوماً، شاعرة كم هي هشّة وضعيفة بسبب نوب الغضب الملتهب الذي يكوي روحها بألسنته، ما معنى غضبها سوى إدراكها كم هي بائسة ومهزومة.

ولم تعد هي نفسها مذ خسرت البيت، ولم تقدر مدى الخراب والأذى الذي حلّ بروحها للوهلة الأولى، إذ فرحت أن حمى أفكارها المعذبة قد تلاشت، يا لقد كرهت عذاب الأفكار وحرقة الندم وسوداوية الاكتاب، ثم انتبهت أنها لم تعد تشعر بإنسانيتها وكيانها، بل تحسّ أنها مجرد هيكل، لم تبالِ بهذا الشعور في البداية ولا بخيالاتها التي تصوّرها مجرد هيكل فارغ من الداخل. لكن يبدو أن حالتها هذه ترسّخت، فقد ماتت مشاعرها، ولم تعد تحسّ بغضب ولا قهر ولا بهجة كونها خرجت من السجن، ولم تنتبه لخطورة حالتها إلّا حين فقدت شغف مشاعرها تجاه ابنها، عندها أحسّت حجم الخراب الذي حلّ بروحها، يا كيف لم تعد متلهفة لاحتضان ابنها، للتحدث معه، كيف تحسّ أنها في ورطة حين يجلسان معاً فتتحاشى النظر في عينيه، ولماذا تحسّ بانفراج نفسي كبير حين يقول لها إنه ذاهب مع أصدقائه، كما لو

أن وجوده عبء عليها!

في أول مواجهة لها مع والديها طلبت منهما أن ينسيا أنها سُجنت، وامرتهما ألا يُلمّحا لها من قريب ولا من بعيد لتلك الكارثة، وعداها ألا يفعلا، لكنهما كانا ينظران إليها بمحبة يتمنّيان أن تصلها، كانا دائمي الابتسام في وجهها، ابتسامات شاحبة تشعّ في روحهما المتعبة، لعلهما يعتقدان أنهما بالابتسام وبالنظرات الدافئة يساعدانها لاستعادة الأمل ويدعمانها بحبهما، لكنها كانت تجنّ من الغضب حين تنفلت عبارات مباغتة من أمها وأبيها: مثل، ابنك يساوي الدنيا كلها، أو عبارة من نوع: الحمد لله أنك نجوتِ من هؤلاء السفلة. كل كلمة تسمعها تحسّها مثل طعنة الخنجر في قلبها، تصرخ: كفى، لا أريد أن أسمع ولا كلمة، ولا كلمة.

كل شيء يجرحها، الأغاني، الضجيج، ضوء الشمس، نور الكهرباء، لكن أكثر ما يجرحها الوجوه، لم تعد تتحمّل أن تنظر في الوجوه التي عرفتها، طلبت أن تنتقل من المشفى إلى مستوصف، وتمّ نقلها إلى مستوصف بعيد يقع عند مدخل المدينة.. مستوصف قذر بائس كالناس الذين يعملون فيه.

وفي عملها الجديد، انضمّت إلى النساء البائسات، ممرضات تعكس وجوههن علامات التعب المزمن والضجر المتأصل في أرواحهن... مستوصف فقير الإمكانيات، لا عمل حقيقي للممرضات فيه سوى إعطاء اللقاحات لأطفال بائسين تحضرهن أمهات تتنافسن في البؤس وتعبير الإعياء واليأس في وجوههن.

كانت تتأمّل مشاهد الحياة حولها كما لو أنها تتفرّج على لوحات البؤس... ترى هل من وظيفة لعينيها سوى تأمل بؤس الحياة حولها؟! تنظر في ساعتها عشرات المرات مع مشاعر متعاظمة بالضيق والاختناق،

وأحياناً تعتقد أن الساعة معطلة أو أن الزمن قد توقف، ياه كم نخر الحقد قلبها... تتفرّج على الممرضات كيف يتثاءبن ويصدرن جشاءات وإيماءات تدلّ على نفاذ الصبر، وما إن يغادر مدير المستوصف حتى يسارعن لفتح الأكياس وإخراج الفاصوليا، والباميا وأوراق العنب والثوم والأشغال اليدوية، ويبدأن العمل، وبعضهن يغرقن في النوم على أسرّة فحص المرضى...

تتفرّج بعينين جامدتين خاليتين من أي تعاطف على مشاهد الحياة الوضيعة حولها وتتساءل بسخرية واحتقار: أهذا هو العمل المقدّس؟! أية أكذوبة كبرى حين علّمونا احترام العمل؟!

رغماً عنها تجد نفسها منساقة لاجترار محنتها، كيف سُجنت، وكيف تورّطت وكيف قدّمت البيت للقاضي ثمناً لبراءتها؟! وفي كل مرة تدرك بعمق أكبر كم أذلّتها تلك المحنة ومرّغت روحها في وحل الندم والذل والقهر... وتحدّث نفسها برقة وتعاطف بأنها إن لم تبذل جهوداً خارقة لمقاومة اليأس والإحباط، فلن تتمكّن من مقاومتهما في المستقبل، صارت تخاف حقاً أن تلتهمها الكآبة وأن تنجرف في الكآبة واليأس كما لو أنهما حالة طبيعية.

"أين وجهك يا حبيبي وصوتك وحضورك، لماذا لا تشفي روح أمك المخرّبة؟ لماذا لا تقنعني بأن ما حصل معي لا يعني نهاية العالم، وأن ثمة أمل بالتعويض؟"

تعود ظهراً إلى البيت، بيتهما حيث بزوريانها وابنها، تتناول بضعة لقمات من طعام الغداء وهي واقفة وبدون أية شهية، ثم تنهمك في أعمال التنظيف بإحساس خادمة وليس ابنة أبداً، وبعدها تستلقي بكامل ملابسها في غيبوبة القيلولة، والصورة الأبدية المرتسمة تحت أهدابها، صورتها مستلقية على السرير الضيق العتيق في السجن تحسّ فجأة بشفقة

وحب لامحدودين لتلك الإنسانة الصابرة المطعونة في ظهرها - التي كانتها - تعجز عن النوم ولو لدقائق إذ إن رغبتها بالانتقام تنهش أحشاءها وحقدها يتفجّر من مسامها كسهام من نار.

رغبتها بالانتقام تجعل جسدها متشنجاً من ألم لا يطاق، لكن ممّن ستنتقم؟! سؤال يتفجّر كفقاعة في فضاء الغرفة؟ أتنتقم من القاضي أم المحامي؟! أم عليها أن تنتقم من قاسم وشركائه اللذين جرّوها إلى هاوية الفساد؟! تتأمّل أعماقها الأشبه بساحة دمار بعد معارك طاحنة، ويتفجّر دوي سؤال وحيد مدوي: ما الحل؟!

حين تواجه هذا السؤال يتجمّد كل شيء، وتتوقّف الأسئلة، وتضيع الأجوبة...

ما الحل؟! يعجز عقلها عن إيجاد الجواب، أما خيالها فيفرز دوماً الصورة ذاتها صورتها مصلوبة على سرير ضيق مكتوبة بألم لا يحتمل.

مكتوبة بالغضب والقهر، تتخيّل حوارات طويلة عنيفة مع قاسم، لماذا صورته الكريهة لا تفارق خيالها، كم تنهشها رغبة عارمة أن تزوره في مكتبه وتشتمه. لماذا تعجز عن طرد صورته من خيالها؟ ذات يوم وجدت نفسها تنتفض من مكانها كما لو أن شرارة كهربائية مسّتها، ادّعت أن والدها مريض وغادرت المستوصف أوقفت سيارة تاكسي وطلبت من السائق أن يقود بأقصى سرعة، ربما رغبت بالسرعة كي تهرب من صوت العقل الذي كان يرجوها ألّا تنساق لهوى الانتقام من قاسم، كانت تتجاهل محاولات عقلها المستميتة ليردعها عن لقاء الشيطان. ويسألها: ما الذي ستجنيه من هذه الزيارة؟ لكنها في كل مرة كانت تأمر عقلها أن يخرس.

لم تتوقّع أن تجده في مكتبه في هذا الوقت المبكر من النهار، حاول أن يعطيها انطباعاً أنه لم يتفاجأ بوجودها، لكنها أحسّت كم بذل

جهداً ليداري صدمة المفاجأة ولمحت ارتعاش يديه كما لو أنه متردّد هل يصافحها أم لا؟! لكن تعبير الاحتقار في وجهها جعله يتراجع عن مصافحتها. جلست واضعة رجلاً فوق رجل بطريقة مستفزّة ومتحدّية كما لو أنها تريد أن تقول له إنها لم تعد تحسب له حساباً.

لم يخرق الصمت، ولم تعرف ماذا تقول وكيف ستبدأ... تبخّرت كل الكلمات التي طالما استعدت لتقذفه بها... كانت تتساءل طوال الوقت عمّا يجب أن تقول، تريد أن تطعنه وتصفعه وتبصق بوجهه، لكنها ظلت جامدة كتمثال، وبدا الصمت بينهما رهيباً، لدرجة أن صوت رشفها للقهوة صار غير محتمل.

كما لو أنه دوي صراخها الأخرس، تعجّب من هذه الحالة، حالة صمت مطلق بل حالة من ألم الصمت، وبدا لها الصمت كياناً حياً له قلب نابض بالألم، ثم تحوّل ألم الصمت إلى ألم اللاشيء، ترى ما الذي تفعله هنا في حضرة المجرم الناجح... ماذا تفعل الضحية المذبوحة والمتألمة أمام الجاني... أيعاتب الجرح السكين؟!

احسّت أنه يحتقرها بصمته، وبأنه مصمّم ألا يتفوّه بكلمة، فرز خيالها صوراً عنيفة بأنها تصفعه وترميه بفنجان القهوة فيتناثر السائل الأسود ويلوّث قميصه ناصع البياض، ثم تقف وترفسه حتى الموت.

وجدت نفسها ملزمة بخرق الصمت فقالت بسخرية أرادتها ساخرة: أرى أنك لم تقل لي الحمد لله على السلامة.

ضحك بوقاحة وقال: معك حق.

لم تكن تفكّر، كان الكلام يتدفّق منها قادماً من مكان خارجها، دارت امتعاضها وسألته:

- أحب أن أسألك، ترى ماذا شعرت حين ألقوا القبض عليّ وسُجنت؟ ماذا شعرت وأنت ورفاقك جعلتموني كبش محرقة لآثامكم.

ردَّ بيرود: في الواقع شعرتُ أن العدالة أخذت مجراها.

يا لسفالته، إنه يجد لذّة في إذلالها وتحقيرها، لكنها لم يعد بإمكانها التراجع.

قالت مدّعية برودة الأعصاب: لو أخذ القانون مجراه العادل كان يجب أن تتعفّن في السجن أنت ورفاقك.

قال وهو يتثاءب بقلّة حياء: مسكينة، يبدو أن السجن أفقدك صوابك، معك حق فالتجربة ليست سهلة على الإطلاق، لدرجة توقّعت أنك ستنتحرين.

- أتعرف، لم ألتقِ بأحد يماثلك سفالة وانحطاطاً، لو تدري كم أحتقرك وأكرهك، كم أتمنّى لك الأذى.

- صدّقيني أبادلك المشاعر ذاتها.

أحسّت أنها ستنهار لو بقيت لحظة واحدة، لم ترَ شخصاً ميت الضمير مثله... إنه يتفاخر بنذالته، ويبدو شديد الاعتزاز بانتهاكه للقوانين وازدرائه للأخلاق...

رمت فنجان القهوة أرضاً فتناثر شظايا، أحسّت أن هذه الشظايا تخص روحها الممزقة خرجت من مكتبه واللون الأسود يصبغ كل شيء حولها... العالم أسود وقلبها أسود والحقد أسود... هبطت الدرج كعاصفة، وما إن وصلت الشارع حتى ارتمت على أول تاكسي لاهثة من انفعالاتها، وانفجرت ببكاء أخذ مجامع قلبها، وأمام انصعاق السائق ورجائه أن تخفّف من انفعالاتها قالت: ماتت أعز صديقة لي، كانت تبكي نفسها.

• • •

صدمة المعجزة

التوق للتغير مُتعب، بل إنه حمل لا فائدة منه، لذا استسلمت إيمان للرتابة، للأيام تتعاقب بآلية، لا تفكّر بشيء، ولا تحلم بشيء، بل صارت تجد شيئاً من متعة أن أيامها تتطابق دون أن تحمل ذرة تغيير، وحالة اللاانتظار هذه لأي شيء إيجابي يحسّن حياتها، جعلها تتحلّى بشيء من خفة وشجاعة، لم تعد متطلبة، أمامها بضعة سنوات طويلة أم قصيرة ستعيشها كما يعيش هذا القطيع حولها وبعدها تنام نوماً عميقاً في حفرة تتّسع لجسدها.

تعلّمت درس حياتها في هذا البلد أن تخشى الأحلام، لأنها تقود إلى التهلكة المؤكدة، أي غباء اعتقادها أنها قادرة أن تغيِّر حياتها، فلتستسلم لمنطق القطيع ولتجترّ ساعات يومها بالتفاهة ولتنشغل بقضايا لا تهزّ الوجدان ولا تخاطب القلب عيش مجرد عيش، كما تدبّ دودة على الأرض، وكما يطير طائر من غصن إلى غصن، لماذا نحمّل الوجود أكثر مما يحتمل... ألسنا من تراب وإلى التراب نعود... فلماذا نوهم أنفسنا أن الحياة عظيمة وأننا عظماء ومتميزون.

لكن القدر مغرم بمعاكسة الأشخاص الذين توصلوا لقناعة تامة في حياتهم... ودوماً يفاجئهم بانقلابات جذرية في ما اعتقدوا أنها ستحصل يوماً...

ترى هل خطر لإيمان أنها بعد أسابيع قليلة من خروجها من السجن ستلتقي بالرجل الذي أحدث انقلاباً في حياتها، وأن حياتها سوف تتغيّر

تغيراً جذرياً كما لو أن عصا سحرية مسّتها... هل خطر ببالها أنها ستلتقي رجلاً كهلاً سيفتح لها كل الأبواب الموصدة، ويطلب إليها أن تعتلي بساط الريح لينقلها من بلد إلى بلد، وليعرّفها بمشاهير أهل الفكر والفن الذين لم تحلم يوماً بلقائهم...

يستحيل أن تقنع نفسها أن لقاءها به مجرد صدفة! لأنها كلما استعادت تلك اللحظات تشعر أن غاية خفية تبطن هذا اللقاء، كما لو أن إرادة قوية قرّرت أن تتشابك خيوط حياة إيمان مع خيوط حياة المفكر ذو الشهرة الواسعة... كم من المرات تساءلت بسخرية محبّبة ما الذي قذف مفكر كهل عاش عمره في أميركا للقاء ممرضة بائسة لم تغادر اللاذقية قط، وجمعهما بطريقة عجيبة على الحدود الأردنية وولد من لقائهما المشهد الأول في علاقة ملتبسة شائكة تصلح أن تكتب في رواية وليس أن تتجسّد في الحياة...

لكن للقدر منطقه الخاص، ومن حين لآخر يحلو له أن يمازح البشر، لعله يملّ من الرتابة، فيحرّك الأشخاص كما يحرّك اللاعبون قطع الشطرنج، ويجمع فلاناً بفلانة في ظروف غاية في الدهشة والغرابة... وسأترك لإيمان مهمة التحدث عن علاقتها مع الرجل الذي حوّلها إلى سندريللا، لأني مؤمنة أنني مهما اجتهدتُ وحرصتُ على نقل ما حدث معها بأمانة، فلن أوفّق في تحليل مشاعرها، كما ستفعل حين تتسلّم بحماسة وبطيب خاطر قلمي.

انهارت أعصابي على الحدود السورية الأردنية، كنتُ أجلس في المقعد الخلفي للسيارة مهروسة بين جسدي امرأتين بدينتين تفوح منهما رائحة عطر رخيص ممزوجة برائحة خانقة للثوم في أنفاسهما. لو كنتُ في حالتي العادية لانفجرت من الغيظ، وربما لتشاجرت معهما لكن السعادة تعكس المعادلات. كنتُ أعمى سعادتي تماماً، فأنا سأغادر سوريا للمرة

الأولى في حياتي، لحضور زفاف صديقة غالية جمعتني بها سنوات من العمل في مشفى القنارة ولأني سعيدة فقد أحسستُ بالتعاطف والشفقة مع المرأتين البدينتين اللتين تخنقاني برائحة الثوم، وتخيّلتهما فقيرتين بملابسهما العتيقة، والأكياس المتضخة في حضنهما.

وحين وصلنا الحدود السورية الأردنية، طلب السائق جوازات السفر، كانت فرصة لنتكلّم، تحدثنا عن البرد القارس، وبالفعل فقد بدأت عاصفة ثلجية بالهبوب ناثرة ندفاً رقيقاً من الثلج، نفخت الهواء في يدي، وأنا أقول لهما إنه طقس الميلاد، أخبرتاني أنهما من تونس، تاجرتان متنقلتان، وأنهما تشتريان أغراضاً كثيرة من سوق الحميدية في دمشق، وتبيعانها في عمّان وتونس... سألتهما كيف هي عمّان، فأبدينا إعجابهما بالمدينة سألتاني عن سبب سفري إلى عمّان، فأجبت لحضور زفاف صديقتي. سقطت نظراتهما على يدي وسألتا: وأنتِ ألم تتزوّجي بعد...

قلتُ لهما: أنا أرملة، توفي زوجي منذ ستين بسرطان المثانة.

تأسفتا وبدا الحزن على وجهيهما المتضخين من البدانة، لماذا كذبتُ عليهما، لِمَ لم أعترف بالحقيقة وأخبرهما أني مطلّقة، وأن طليقي تزوّج امرأة أخرى!

فكّرت أني سأحكي هذا الحوار لصديقتي في عمّان وسننفجر ضاحكين.

السائق يسرع الخطا باتجاهنا، يبدو عليه التوتر، لعل البرد القارس هو السبب، نظرتُ في ساعتي، الرابعة والنصف بعد الظهر، كأن الساعة ذكّرتني بتعبي، كنتُ قد غادرت اللاذقية السابعة صباحاً، ووصلت دمشق الحادية عشرة والنصف وصداع عنيف يفجّر رأسي من جعير التلفاز المعلّق في مقدمة الباص، اللعنة على هذه الأفلام التي تضطهدنا

بضجيجها طوال أربع ساعات، كنت أتلفت حولي لأتأمل وجوه الركاب، ترى ألا يزعجهم جعير التلفاز؟ لكنني كنتُ أرى وجوهاً مستسلمة، وبعضها يغط في النوم، فيشتعل غيظي من قلّة الإحساس.

أوقفت سيارة أجرة، وانطلقت إلى محطة البرامكة حيث تزدحم السيارات المسافرة إلى عمّان وبيروت ومدن أخرى، كان الهواء ثلجياً، مما جعل صداعي يبلغ ذروته وبعد انتظار حوالى ساعتين، اكتمل العدد، أنا والسيدتين البدينتين في المقعد الخلفي ورجل في المقعد الأمامي سيدفع أجرة راكبين.

يبدو أن السائق متوتر وغاضب لسبب آخر غير البرد القارس، هوى قلبي حين أشار إليّ أن أنزل من السيارة وألحقه، لسعتني الريح الباردة، وشعرتُ أنني أتجمّد، كنتُ أتفرّج على البخار الكثيف المنبعث من فم السائق وهو يتكلّم، ولم أفهم كلامه لأن صوت الريح كان طاغياً وأشبه بعواء ذئاب، أحكمت الشال الصوفي على رأسي ولحقته، وصوتي يتلاشى: خير ما الأمر! قال لي مستاءً: موظف الأمن لم يوافق على دخولك الأراضي الأردنية، قال إنه مكتوب في جواز سفرك أنك موظفة، ومن المفروض في هذه الحالة أن تحضري ورقة براءة ذمة، من مكان عملك، وأنه لا مانع لدى مديرية صحة اللاذقية من مغادرتك سوريا.

انقضَّ عليَّ خوف مجرد، لم يكن خوفاً محدداً من شيء ما، بل مجرداً، كالخوف المُبهم الطاغي الذي تثيره في نفوسنا كلمة أمن، أو مخابرات أو شرطة عسكرية...

لحقتُ السائق بخطى متعثرة، إذ إن ركبتيّ صارتا ترتجفان من البرد والخوف، وجدتني أقف عند نافذة زجاجية تثقبها فتحة دائرية تسمح بالتحدث مع الموظف العابس.

سألته متردّدة: خير، ما الأمر؟

أجاب بنزق ونظاظة، وهو يرشقني بنظرة عابرة: أوراقك ناقصة، فأنت موظفة، ولا يمكنك المغادرة إن لم تحصلي على موافقة خطية من مكان عملك.

قلت له: اعذرني، لم أكن أعلم بذلك.

أجاب، وقد غدا صوته أكثر سخرية ولامبالاة: ها قد علمتِ الآن.

تمنّيت لو أملك الجرأة وأصرخ بوجهه: لِمَ لا تخاطبني باحترام!

كنتُ محتارة وتائهة ولا أعرف أية مشاعر يجب أن تنتابني، أومأ إليّ السائق أن أدسّ للموظف 500 ليرة سورية في جواز سفري، فكرة رائعة، كيف غاب عن بالي أن الرشاوى تفتح كل الأبواب المغلقة.

لكن الموظف قذف جواز السفر في وجهي حين وجد ورقة الخمسمئة، وقال: احترمي نفسك يا سيدة. لم أجد بدّاً من ابتلاع الإهانة، لكن عجباً لِمَ يتعفّف؟ وددتُ لو أسأله: لماذا يشذّ عن القاعدة؟! فالرشاوى صارت هي القاعدة، وعدم الرشوة هو الاستثناء!

اقترح السائق اللطيف أن أعرض مشكلتي على الضابط الأعلى رتبة، سار معي حتى أوصلني إلى مكتب الضابط وهو يلقّنني ما يجب أن أقول، لكني كنتُ كمن يعيش كابوساً لا أعي سوى الصداع الذي يفجّر رأسي والصقيع في الخارج.

قبل أن أدخل مكتب الضابط، طفَح رعبٌ بارد من أعماقي وشلّني تماماً، نسيتُ الصقيع، فالصقيع الحقيقي هو صقيع الرعب.

مكتب الضابط فسيح ومدفأ جيداً، لديه بعض الزوار يشربون الشاي. ردّ على تحيتي بلطف ودعاني للجلوس، طلب لي شاياً، لكني اعتذرتُ عن شربه لأن معدتي كانت متشنّجة بقوة، شرحت له كيف أنني أسافر لأول مرة خارج سوريا، ولم ينبهني أحد لضرورة إحضار ورقة من مكان عملي بما أنني موظفة و..

قاطعني بلباقة: المفروض أنك تعرفين هذا الإجراء البديهي. ففي جواز سفرك مكتوب المهنة موظفة.

هزّ رأسه متأسفاً وقال: مستحيل أن أسمح لك بعبور الحدود، فالقانون هو القانون.

تنبّهت أنني كنتُ أبتسم ابتسامات بلهاء للضابط، لم أصدّق فعلياً أنه سيمنعني حقاً من عبور الحدود لمجرد أني نسيت ورقة لعله يتظاهر بالتشدّد ثم سيأذن لي بالمرور.

استجمعتُ شجاعتي بينما معنوياتي في الحضيض: أرجوك قدّر موقفي، أنا أسافر للمرة الأولى مدعوّة لحضور زفاف أعز صديقاتي، صدّقني لم أكن أعرف القانون.

قطع كلامي تعليق أحد الزوار قائلاً بفظاظة أذهلتني: القانون لا يحمي المغفّلين.

رشقت الرجل الوقح بنظرة من نار، فيما هو يدخّن سيجاراً متلذّذاً من تأمل امرأة متورطة تتوسّل لضابط!

وجدتني أتحدث للضابط بأرق لهجة، لهجة مبطّنة بتوسل واستجداء، شرحتُ له مشقة السفر، والصداع الذي فجّر رأسي، والفرحة الكبيرة بأني سأزور لأول مرة في حياتي بلداً آخر. ثم قلتُ له بأننا كلنا بلاد عربية، أشقاء كما يقولون، وكما ندرس في الكتب المدرسية، فأي عار هي الحدود، ثم إنني مجرد امرأة، لستُ شاباً هارباً من الجندية، أو مشبوهاً... تنبّهتُ للمزايا الإيجابية للنظرة الدونية للمرأة، إذ ظل صدى عبارة (أنا مجرد امرأة) يتردّد في داخلي مُغرقاً إياي بمشاعر من الخزي والخجل... لكن حتى تلك الدونية التي أعلنتها أمام الضابط، وأمام العديد من زواره الرجال لم تنفعني، بل زادت الضابط تشبّثاً بموقفه، فقال بلهجة حاسمة: آسف يا سيدتي، فالقانون فوق

وقوقك.

تخيّلت القانون رجلاً يغتصبني.

وجدتني أتذكّر ذلك اليوم البعيد، بدقة عجيبة، يوم جُررت من مكان عملي إلى قسم المخابرات، أهذا وقت تذكر هذه التفاصيل المقيتة. كان يوماً بارداً وماطراً، وبينما كنتُ أخربش توقيعي على دفتر الدوام الكبير في غرفة رئيسة التمريض، طلبتْ إليّ أن أنتظر لحظة، وبدا القلق الشديد في نظرتها، وقبل أن أسألها ما الأمر، أشارت إلى رجل بجانبها، يلبس ثياباً مدنية، قالت إنه سيصحبني إلى فرع المخابرات ليسألونني بعض الأسئلة.

شلّني الرعب في الحال، كما لو أن قوة غامضة هوت عليّ فجأة من السقف وشلّتني.

نظرت للرجل جامد الملامح والذي لم يكن ينظر إليّ، بل ينتظر أن يصحبني معه حتى دون أن يخصّني بنظرة، وبصعوبة تمكّنتُ من الكلام: أنا لا علاقة لي بشيء.

قام عن كرسيه، قائلاً ببرود: هذا الكلام قوليه هناك.

وفي السيارة العتيقة المخلّعة الأبواب، سألته عن سبب استدعائي، فلم يجب، ذُهلتُ من وقاحته، كيف تبلغ به قلّة الذوق وعدم احترام الآخر، ألا يرد على امرأة تسأله سؤالاً.

وهناك في أبشع مكان وأكثره أذى للروح، انتظرت في غرفة حقيرة ثلاث ساعات غرفة باردة عارية، إلّا من سرير معدني ضيق عالٍ عليه فرشة عتيقة تفوح منها رائحة عفنة، وطاولة صغيرة وكرسيان، جلس عليهما مجنّدان يلعبان طاولة الزهر، يرمقانني بنظرات وقحة من حين لآخر، ويتحدّثان حديثاً مُلغزاً وقحاً ثم ينفجران بالضحك، ثم وضعا شريط أغاني هابطة في المسجلة، وجعلا الصوت أعلى ما يمكن، لم

أتحمّل الموقف، رجوتهما أن يخفضا الصوت، فنظرا إليّ باستخفاف وانفجرا ضاحكين، سألتهما وأنا أقاوم دموعي، لِمَ أنا هنا، لِمَ لا أقابل الضابط مباشرة، فلم يجيبا، وحين ألححت بالسؤال، وقد بدأت دموعي تنهمر رغماً عني، رقّ أحدهما لحالي، لكنه قال بفظاظة: إنه سيستدعيك وقت ما يريد...

تساءلت: ولِمَ تهينونني بالانتظار؟

صرخ الآخر: اسكتي، هذا الكلام جريمة، هل فهمت.

مخذولة، ومذلولة، انتظرت ثلاث ساعات في غرفة حقيرة، وجعير المسجلة يتهكني ويمارس سادية غامضة ومقصودة عليّ، والمجندان ميّتا الروح بلعبان طاولة الزهر ويرشقانني بنظرات وقحة... أهذا هو القانون؟!

وبعد أن أوشكتُ على الانهيار، والصراخ، وبعد أن وصلتُ إلى الحدّ الذي سأخرج فيه عن طوري، استدعيت إلى مكتب ضابط الأمن، عجباً في تلك اللحظة وأنا على شفير الهاوية تم استدعائي، أحسدهم على دقتهم، كيف يعرفون أنني وصلت إلى الانهيار! يا لبراعتهم حقاً، وجدتني أواجه شاباً متغطرساً، قدّرت أن عمره خمسة وعشرون عاماً لم ينظر إليّ، بل أشار إليّ بالجلوس، وأخذ يسألني إن كان لديّ أصدقاء شيوعيون أو إخوان مسلمون، أثناء دراستي في كلية التمريض. لم أجد أي معنى لأسئلته، فأنا موظفة منذ عشر سنوات في المشفى الحكومي، فلِمَ تمّ استدعائي الآن ليسألونني عن صداقاتي أيام الدراسة؟!

تذكّرت تلك الحادثة بتفاصيل رعبها الطازج، وأنا في غرفة الضابط على الحدود السورية الأردنية، ورغم إحساسي ببشاعة أزمتي، ورغم صداعي وتشنّج معدتي، وأطرافي المتجمدة من البرد، إلّا أنني استدركت انني حين اكون في حضرة أي ضابط اشعر اني لا شيء واني أشبه

الجماد، وليس فيَّ ذرة إحساس أو إدراك، وأن عقلي يستحيل إلى قطعة عجين أو لبّاد.. صفرت الريح بقوة، فرفعت نظري إلى النافذة العريضة كانت عتمة الغروب البنفسجية تطبق شيئاً فشيئاً على الأرض وعلى قلبي.

وجدتني من جديد أستأنف التذلل للضابط وأخاطبه بصدق مؤثر: أرجوك لا تخذلني، واعذرني على جهلي للقانون، فأنا لأول مرة في حياتي سأسافر خارج بلدي، لو تعرف كم حضرتُ لهذا السفر، منذ أشهر وأنا أخطّط لتلك الرحلة، فلا تقتل أملي أرجوك.

كان يصغي إليّ مبتسماً، متفحصاً وجهي، لكني لم أفهم ابتسامته ولا نظرته.

سألني: متى موعد العرس؟ قلتُ مباغتة: بعد ثلاثة أيام.

قال: عظيم بمكنك العودة، وإحضار الورقة المطلوبة، عندها سيكون عبورك للحدود نظامياً. تفجّر غضبي ساحقاً، وبذلت جهوداً عظيمة لكبح ثورة جنون انفعالاتي، أيسخر مني هذا الرجل، هل يعني تماماً قوله بأن أعود إلى اللاذقية، متحمّلة مشقة السفر لساعات، ثم أحضر الورقة، وأعود ثانية إلى الحدود، أيريدني أن أموت من الذل والتعب؟!

فجأة فهمت ابتسامته ونظرته الثابتة المستقرة على وجهي، إنه يسخر مني، وما تودده ولطفه تجاهي، سوى مشاعر زائفة.

كنتُ امرأة تُدرك كم تُذل، ولا أملك شيئاً سوى التوسل، وبدأت أفكار شيطانية مجنونة تغزو ذهني، رغبتُ بقوة أن أصرخ وأشتم، وأقوم بإيماءات وقحة، وجدتني أحدّق في عينيّ الضابط محاولة قراءة نواياه الحقيقية عيناه لا تشفّان عن فضاء، عن معنى، استجمعت طاقتي على المجابهة وقلتُ له بحماسة: أرجوك لا تخيّب أملي، لن أنسى معروفك مدى حياتي، ويمكنني أن أترك بطاقتي الشخصية لديك كضمانة.. أو.

قاطعني بحزم مباغت: لا تضيّعي وقتك ووقتي لو سمحت، يستحيل أن أسمح لك بالدخول إلى الأراضي الأردنية.

خرجت من مكتبه غير مصدّقة ما يحدث، السائق ينتظرني بلهفة إنسانية صادقة، غير مبالٍ بالركاب الذين ينتظرونه ساخطين بالتأكيد، سألني ملهوفاً: ألم يوافق؟

قلتُ: لا، أعطني حقيبتي لو سمحت.

كان الصقيع في الخارج قاسياً لدرجة شعرتُ أن عيني من زجاج، وفقدت الإحساس بأصابعي وأنفي، وحرّض عويل الريح الأليم رغبتي بالصراخ، تمنّيت لو أصرخ وأصرخ حتى أموت. تكثّفت أحاسيسي بغدر الحياة، ياه كم غدرت بي الحياة؟! اللعنة على عقلي الغبي، أهذا وقت تذكُّر كل الحوادث المؤلمة في حياتي؟ لكني في الواقع كنت مندهشة من كم المشاكل والإحباطات التي تعرّضت لها في حياتي، وبدت الحياة لئيمة حقاً وسادية... لكن البشر لا يكفّون عن الأمل والحلم...

في الواقع كنتُ عاجزة عن التفكير، كنتُ جاهزة فقط للانفجار.

أعطاني السائق حقيبتي الحمراء المنتفخة بالحلويات هدايا لصديقتي وأهلها، تذكّرت الفستان الأزرق الجميل الذي كنتُ سأرتديه في العرس، نقدتُ السائق أجرته، رفض أن يأخذ مني المال، شكرته على نبله وتعاطفه معي، لكنني أصررتُ أن أدفع له، فأخذ نصف الأجرة، ثم استدرك قائلاً: تعالي معي.

سألته: إلى أين.

قال: أنتِ دفعت 600 ليرة رسم دخول للأراضي الأردنية، ولم يسمحوا لك بالدخول، عليهم أن يعيدوا لك المبلغ.

ومجدداً وجدتني أقف عند الكوة حيث حاولت أن أرشو الموظف، لكن الموظف رفض أن يعيد لي المبلغ بحجة أن القانون لا يسمح!!

صرخ السائق: لكنها لم تدخل الأراضي الأردنية؟

أجاب الموظف ببرود: يمكنها أن تحصل المبلغ عن طريق مديرية مالية اللاذقية بأن تقدّم طلباً هناك وتتابع المعاملة...

وجدتني أخرج الوصل بدفع المبلغ من حقيبتي وأمزّقه نتفاً ونظراتي المشعّة بنار الغضب تحرق وجه الموظف.

تثاءب وتساءل: خير، ما الذي أغضبك هكذا؟

يا للعار، حقاً يا للعار ما الذي انقصف في داخلي فجأة، حتى وجدتني أطلق العنان لجنون غضبي، من هؤلاء الأغبياء الذين يتحكّمون بي بحجة القانون! أي قانون هذا يدفعنا للجنون، وينتهك كرامتنا، ويفتّت أعصابنا!! ما هذه الحياة الرديئة التي تجبرني أن أعطي ولائي وطاعتي العمياء لمسؤولين يسمّمون حياتنا.

وجدتني أتحوّل لإنسانة غريبة، مزّق صراخها الفضاء، وطغى على صوت الريح ويبدو أن خروجي عن طوري أربك السائق والموظف، رجاني السائق أن أضبط أعصابي وألجم انفعالي، لكن رجاءه أعطى مفعولاً عكسياً إذ بلغ جنون غضبي ذروته، لم أعد أخشى شيئاً، استسلمت للجنون والصداع الذي صار لا يطاق لدرجة شعرتُ أن دروز جمجمتي سوف تتفتّت من قوة الألم... عصفَ غثيانٌ حاد بمعدتي، ورغبتُ أن أتقيّأ، أسرعت أركض للخارج، لكن عاصفة الغثيان خفّت ولم أبصق سوى عصارة حامضة...

تهاويت على مقعد خشبي، أنتظر سيارة عائدة إلى دمشق، لم أكن أبالي بأنفي الذي يسيل، ويلوث معطفي، ولا بدموعي التي أذابت الكحل من عيني...

تذكّرتُ أني أقنعت زميلاتي الممرضات أن يقدّما دوري في الجمعية، كي أسافر إلى عمّان... زميلاتي المسكينات اللاتي يدخلن في

جمعيات لا تنتهي، نقتطع من راتبنا مبلغاً معيناً كل شهر، وكل منا تقبض المبلغ حسب دورها...

ما كان بإمكاني السفر لولا الجمعية، حصلتُ على ثلاثمئة دولار، يا سلام مبلغ لا أحلم به... لاحظتُ أن منظري منهارة على الحدود أثار نظرات السخرية أكثر من التعاطف لدى موظفي الحدود والمسافرين... هل منظر سيدة منهارة يثير الشماتة والسخرية؟!

لم أنتبه أن هناك من كان يتفرّج عليَّ في انهياري، ويبدو أنه حاول التقرب مني ولم يفلح، إذ إن عاصفة غضبي نفته بعيداً عني... لكني حين تهالكتُ على المقعد بانتظار سيارة عائدة إلى دمشق، تنبّهت لكهل أنيق يقف بجانبي ويسألني بصوت رخيم هادئ: أتسمحين لي أن أقدّم لك أية مساعدة؟

رشقته بنظرة ساخطة، ولم أجب، بل رغبتُ أن أصبّ عليه ما تبقّى من غضبي، مدَّ لي منديلاً قماشياً فاحت منه رائحة الخزامى، لأمسح وجهي المبلل بالدموع وأعاد العبارة ذاتها وبالصوت الآسر الرخيم: أرجوكِ اسمحي لي أن أساعدك. فقد رأيتُ كل شيء؟

قلت ساخرة: إذاً كنتَ تتفرّج عليَّ؟

لم يجب، فاضطررت أن أرفع نظري إليه، وتأمّلته بلامبالاة وسخرية تعمّدت أن تصله، كأني أصرخ بوجهه قائلة: مَن أنتَ، مجرد رجل تلذّذ برؤيتي منهارة على الحدود... لكن نظرته المتعاطفة بصدق معي، واهتمامه الجدّي بي جعلاني أنكمش وأخجل من نظرتي المستفزّة لرجل كهل أنيق، قدّرت أنه تجاوز الستين بسنوات.

كنتُ في قمة ألمي، مخلولة، مدركة مشقة العودة إلى دمشق، ثم السفر الطويل إلى اللاذقية، وجعير الفيديو في الباص سيفجّر رأسي ويضاعف صداعي...

ضغطت صدغيّ براحتي وصرخت يا للصداع...

قال: تعالي معي، سأعطيك دواء ممتازاً، يزيل الصداع بسرعة.

قلتُ: أشكرك، لكني أنتظر سيارة عائدة إلى دمشق..

ربت على كتفي بمودّة وتعاطف صادقين وقال: أنا مسافر إلى دمشق، لو أحببت أوصلك..

تأمّله مرتابة: مسافر وحدك؟

ابتسم مشيراً إلى سيارة مرسيدس رائعة، سحرتني فخامتها:

- السائق ينتظرنا.

جلست في المقعد الخلفي للسيارة الفخمة، وهو في الجانب الآخر، قدّم لي حبة دواء قائلاً إنه دواء سحري ضد الصداع، ولم أفهم لِمَ بدأت نوبة بكاء صامتة وأليمة، كما لو أن سموم روحي تحتاج أن تُغسل بماء عيني، أو لكأن صداعي أيضاً يذوب في دموعي، تركني أبكي وأبرطم بكلمات غامضة، ما سبب هذا البكاء الأليم، أهو الدفء اللذيذ الذي سرى في جسدي المتجمّد من البرد والخوف والذل... أمر السائق أن يضع موسيقى مطربة أسمعها للمرة الأولى اسمها إيفورا...

أتراه توقّع أن يشفيني صوت إيفورا الساحر، الرخيم، الذي نقلني من جانبية إلى جانبية...

سألني: هل سمعت من قبل بهذه المطربة؟

أجبت بجفاء: لا، إجابة فظّة تعني أهذا وقت الحديث عن الأغاني.

لكنه سأل بلطف: هل صداعك عنيف؟ يمكنك تناول حبة أخرى.

وحين هممت بالإجابة، هزّتني نوبة غثيان، فأومأت إليه أن يسمح لي بالتقيؤ... أمر السائق بالتوقف حالاً، وما إن فتحت الباب، حتى تقيأت عصارة معدتي الحامضة والبسكويت المحشو بالتمر الذي أكلته في السيارة، غزتني فجأة رائحة الثوم الكريهة المنبعثة من جوف المرأتين

البلهنتين... ياه كم بدوت بائسة ومسكينة في نظر نفسي... لكنني أحسستُ براحة بعد أن تقيّأت خيبتي وعدتُ للدفء اللذيذ للسيارة، رغبتُ بالنوم، النوم العميق الأشبه بالغيبوبة. وهو كان بجانبي متنبّهاً لأية حركة أقوم بها، معنياً بصداعي وغضبي ونزقي... قال: حاولي أن تنامي قليلاً...

قلتُ له: لو سمحت، أريد الذهاب فوراً إلى محطة الباصات.

سأل مستنكراً: أية محطة؟!

عليَّ أن أعود إلى اللاذقية؟

- هل أنتِ من اللاذقية؟

- أجل.

- وهل غادرت اللاذقية اليوم؟

- أجل، غادرتها السابعة صباحاً، وعليَّ أن أعود إليها، فلو تكرّمت أوصلني لمحطة الباصات.

- لكن هذا مستحيل، ستموتين من الإرهاق!

قلت بسخرية: تعوّدت على الإرهاق.

قال مستنكراً ومنفعلاً: لكن لِمَ لا تنامي في دمشق؟

- هذا مستحيل.

- لماذا؟

- لأن ميزانيتي لا تسمح، ولأنني أريد أن أعود وأنهي هذه المهزلة.

- أتقبلين أن أدعوك إلى فندق مريح، غير معقول أن تسافري وأنتِ على هذا القدر الفظيع من التعب والمرض.

تأمّلته بقسوة، كما لو أني أفهمه أنه يتطاول عليّ! مَن تعتقدني كي أقبل أن أنام في فندق فخم على حسابك... لم يبدُ عليه أنه فهم نظرتي أو تأثر بها. وجدتني أسأله كأني استدركت أمراً هاماً:

- لكن من أنت؟

ابتسم وسأل: الا يبدو لك وجهي معروفاً؟

- أجل... اعتقد ذلك. من أنت؟

حين نطق اسمه شهقت إنه أحد أبرز قادة الحزب الشيوعي، مفكر عربي معروف بجرأته وأفكاره الناقدة والبنّاءة للمجتمع العربي.

تبدّل وجهي، وبلّلني العار، وجدتني أتأسّف وأعتذر عما بدر مني على الحدود.

قال يقاطعني: إياك والتلفظ بهذه العبارات السخيفة، لا تتصوّري كم أثّر بي انفعالك، بل أثار إعجابي، فأنت امرأة شجاعة، إحساسك بكرامتك عالي..

- ولكن كنتُ أصرخ واشتم كمجنونة...

- بل كان انفعالك في محله تماماً، إياك أن تتأسفي، بل يجب أن تفرحي فلا زالت أعماقك غير مخرّبة...

لا أعرف كيف تفاعلت هذه العبارة في نفسي. فوجدتني أنهمر ببكاء أليم وأنا أقول للغريب: يآه لو تدرك مدى الخراب في أعماقي؟

غمرني دفء الشوفاج في السيارة كدثار من حنان، اغمضتُ عيني إعياء منتظرة المفعول السحري للدواء المضاد للصداع، كنتُ اشعر كأني تلقّيت لطمة مدوّية على رأسي، وأن كل كياني في دوامة، وكنتُ بحالة من اليأس والإعياء، لدرجة بدت حياتي كلها، وحياة الناس حولي شيئاً تافهاً لا يستحق أن نقدّسه ونرهقه بالآمال. عبرت وجوه ضبابية سواد عيني، وجوه أحبها وأهرب منها، لماذا نهرب دوماً ممن نحب؟! الحب ثقيل، ثقيل في هذا البلد، له وطأة غريبة. يفهمون الحب هنا أنه ملكية، كل واحد يريد امتلاك الآخر ومعرفة تفاصيل يومياته، والتلصص على أدق خلجات شعوره وأفكاره. كان الألم واللامبالاة قد سيطرا عليّ

تماماً، وبدأ صداعي يتفتّت شيئاً فشيئاً فأشعر أني أطفو في فراغ معتم، ما ألذّ هذا الشعور، ويبدو أني غرقت في نوم قصير، لأني حين فتحت عيني مجفلة من صوت ضجيج مفاجئ، لاحظت أني مُدثرة بمعطف الرجل الذي أنقذني من ذل الحدود، وأول ما تقصّيته صداعي، كان قد تلاشى تماماً، كنا في قلب دمشق، سألني الرجل الرقيق: كيف تشعرين الآن.

قلت مندهشة: لا أصدّق أن صداعي اختفى، الدواء الذي أعطيتني إياه كالسحر حقاً.

كنا قريبين من فندق الشام، سألته أين يعيش، فقال إنه أستاذ العلوم السياسية في واشنطن ولكنه يزور الوطن العربي كثيراً، ويعمل من حين لآخر كأستاذ زائر، قال إنه في دمشق لمدة ثلاثة أيام لإلقاء سلسلة من المحاضرات، وقبل أن أطلب إليه أن يأمر سائقه بإيصالي إلى محطة الباصات، قال لي: أكون ممتناً لو حضرت محاضراتي، واقبلي دعوتي لو سمحت، فمن غير المعقول أن تسافري إلى اللاذقية بعد ما عانيت، والريح شديدة، ويُفضّل ألا تغامري بالسفر...

لم أكن أفكّر بكلامه. بل بالطريقة اللبقة التي يتحدّث بها بصوته الرخيم الهادئ، المبطّن بالإقناع... لِمَ لا ألبّي دعوته، إنه شخصية مرموقة، ورجل متميّز، فكّرت بسخرية: في اللاذقية كلها لا يوجد رجل مثله...

قلتُ له: لكني لا أستطيع قبول دعوتك، فالاعتبارات الاجتماعية، والعقلية هنا...

بدا التأفف والقرف على وجهه، وأشار بيده أن أصمت، قال إنه يستغرب أن يسمع هذا الكلام، وبأني يجب أن أملك حرية التصرف بحياتي وجسدي.

بعد أن لفظ تلك العبارة، دبّت في روحي عزيمة المغامرة والتحدي، سأقبل دعوة هذا المفكر. ياه كيف يفتح كلامه فضاءات حرية أمامي... نبّهتني عبارته أني لم أملك يوماً حرية التصرف بحياتي وجسدي، وبأنني دوماً مطالبة بتقديم براءة ذمة عن سلوكي وتصرفاتي لكن كيف سأبرّر لهم غيابي! لا يمكنني الادعاء أني حضرت العرس، فهذه الكذبة عمرها قصير سيهتدي عقلي لكذبة أكثر إقناعاً.

توقّفت السيارة الفخمة عند باب فندق الشام، حمل السائق حقيبتي، شعرتُ وأنا أدخل بهو الفندق أني أميرة، لأول مرة في حياتي أُخدم، يحمل أحد حقيبتي، لم أكن أصدّق ما يحدث. غريبة صدف الحياة، كان من المفروض أن أكون في عمّان لدى صديقتي، وها أنا الآن في فندق الشام مع رجل غريب...

دخلتُ غرفتي في الطابق السابع، يا للفخامة الأسطورية، وجدتني أغنّي مبتهجة، الدفء ترف، الدفء ترف، غرفة من سريرين، ستائر مخملية مضاعفة، مرآة كبيرة بإطار خشبي مذهّب، ورغم تعبي الشديد، فقد شجّعني الحمام المترف أن آخذ حماماً ساخناً... الساعة السادسة والنصف، ذاب تعبي بالماء الساخن، ملاءات السرير معطّرة بعطرٍ مُسكر، ما ألذ الرفاهية، شعرتُ أني كيان فارغ تماماً، هش ورقيق. فكّرت بالكذبة التي سأنسجها وأقولها أمامهم... أعيش عالماً من الأكاذيب تزداد تعقيداً سنة بعد سنة. غرقت في نوم سطحي أقرب للغيبوبة وأنا أفكر بالكذب...

شيء فظيع أن يعتاد الإنسان على الكذب، كيف سأنظّف ذاكرتي من كمٍّ هائل من الأكاذيب أشعر كما لو أني مدنّسة، لم أكن أعرف أن الكذب سم، كنتُ أعتقد أنه مجرد شيء خارجي ينزلق على جسدي انزلاقاً، ولا يمكن أن تمتصه مسامي! لكني لم أقدّر آثار الكذب الكارثية

في نفسي إلّا بعد سنوات حين بدأت أستغرب لماذا تموت مشاعري في داخلي، وكيف تتلاشى تلك الحميمية التي تربطني بالأشياء والأشخاص. اضطررت للاعتراف بحقيقة أن أكون أنثى في العالم العربي يعني أن أكون كاذبة، هذا لا يعني أن الرجل لا يكذب، لكن الأسباب والدوافع مختلفة. ذات يوم حاولت أن أؤرّخ كذبي، أن ألقي عليه نظرة تاريخية اعتقدتُ أني بدأت الكذب في بداية مراهقتي، لكني اكتشفت أني بدأت الكذب في طفولتي حين كان والدي يحاصرني بأسئلته ليقارن بين علاماتي وعلامات زميلاتي، وغالباً كانت علاماتي أدنى من علاماتهن، وكانت نظرته الباردة التي تقيّمني والأشد بحكم القيمة عليّ تؤلمني بشدّة ولم أكن أملك آليات دفاع للفرار من حكم قيمته عليّ سوى الكذب، لكن الكذب جرّني إلى التزوير، فحين تسلّمت العلامات الختامية في آخر السنة الدراسية وكنتُ في الصف الثالث الابتدائي، خفق قلبي من الخوف وأبي يتأمّل علاماتي المتدنية، كان ترتيبي قبل الأخيرة، وجدتني أركض في الباحة والدموع تتساقط من عيني، وصورة والدي بوجهه الصامت القاسي تجلدني وأقف قرب صنابير المياه في آخر الباحة، أمدُّ سبابتي أبلّلها بالماء، وأمحو بها ترتيبي وحوّلت الرقم 25/ 26 إلى 5/ 26. كم يحزنني الألم والشفقة على تلك الطفلة الصغيرة التي حوّلها الخوف من سلطة الأب الخانقة والمدمرة إلى مزوّرة. لكن أبي عرف أني زوّرت النتيجة الختامية وواجهني مؤنباً بأن علاماتي ضعيفة، ويستحيل أن أكون الخامسة. وأنه من الواضح أن مسحت الرقم (2)، وآثار الماء واضحة...

لكني صممت على المضي في الكذب، وحلفت له بأني لم أزوّر، وبأن هذه الآثار، هي نقطة كولا سقطت على الجلاء، ابتسم متهكماً وقال إني كاذبة بامتياز، وبأنه حزين حزناً مضاعفاً، ليس بسبب تدنّي

علاماتي، بل لأني كذّابة.

عشت طوال الصيف طفلة ذليلة وقد التصقت بي صفة كذّابة، بل صار يشعرني أنه يشكّ بكلامي، وحين يسألني أي شيء، وأجيب، يبدو أنه يتفحّص كلامي ويقلّبه من وجوهه العديدة. ثم صرت أعيش نوباً من الرعب الصافي كلما كذبت، فأخاف أن يفتضح كذبي، وبدأت عادة مخجلة باغتتني وأقلقت أهلي، وهي أني صرتُ أتبوّل أثناء نومي، لم افهم - لا أنا ولا أهلي - أني أتبوّل أثناء نومي لأني أعاني من ضغط عصبي كبير خوفاً من افتضاح كذبي، ولأني مرهقة دوماً بنظراتهم المتفحصة التي تُعلمني كل لحظة أنهما غير راضيين عني، ويقارناني دوماً بصديقاتي، متأسفات أني لست متفوّقة وصادقة مثلهن...

في مراهقتي، صرتُ أكثر براعة في نسج كذبي، بل صرتُ أجد متعة في ابتكار صور جديدة للكذب، وتوصلت لنتيجة أذهلتني: الكذب إبداع. كان عليّ أن أكذب كي أخفي لهفتي ورغبتي بالتقرب من عالم الرجل، عليّ أن أكذب كي أخفي رغباتي العاطفية والجنسية، كانت مشاعري الخام المتفتحة على هوى عالم الرجل، أشبه ببراعم وورود تنمو في تربة مبلّلة بمشاعر الإثم والخطيئة، وكانت العملية التربوية عبارة عن سلسلة لانهائية من المواعظ الأخلاقية الجافة... كنتُ أشعر أني مُراقبة دوماً وأنا أدرس على الشرفة، فيقوم والدي بمسح دقيق لشرفات ونوافذ الجيران، مكتشفاً كل مرة مراهقاً، أتبادل معه النظرات والابتسامات، فيمطرني بمواعظ غامضة، تصيبني بالاختناق. كان والدي يستعمل تعبير طالما أصابني بالغثيان (بنات العائلات). تعبير يعني أن أظل مخنوقة، كئيبة، لدرجة صرتُ أحسد بنات الشارع اللاتي يعشن عفوية وسعادة دون رقابة... باختصار كنتُ أعيش مراهقتي كما لو أن نظرات أهلي تشبه الأشعة السينية تخترق جسدي وعقلي وقلبي لتلتقط أدق تذبذبات

في نفسي إلّا بعد سنوات حين بدأت أستغرب لماذا تموت مشاعري في داخلي، وكيف تتلاشى تلك الحميمية التي تربطني بالأشياء والأشخاص. اضطررت للاعتراف بحقيقة أن أكون أنثى في العالم العربي يعني أن أكون كاذبة، هذا لا يعني أن الرجل لا يكذب، لكن الأسباب والدوافع مختلفة. ذات يوم حاولت أن أؤرّخ كذبي، أن ألقي عليه نظرة تاريخية اعتقدتُ أني بدأت الكذب في بداية مراهقتي، لكني اكتشفت أني بدأت الكذب في طفولتي حين كان والدي يحاصرني بأسئلته ليقارن بين علاماتي وعلامات زميلاتي، وغالباً كانت علاماتي أدنى من علاماتهن، وكانت نظرته الباردة التي تقيّمني والأشبه بحكم القيمة عليّ تؤلمني بشدّة ولم أكن أملك آليات دفاع للفرار من حكم قيمته عليّ سوى الكذب، لكن الكذب جرّني إلى التزوير، فحين تسلّمت العلامات الختامية في آخر السنة الدراسية وكنتُ في الصف الثالث الابتدائي، خفق قلبي من الخوف وأبي يتأمّل علاماتي المتدنية، كان ترتيبي قبل الأخيرة، وجدتني أركض في الباحة والدموع تتساقط من عيني، وصورة والدي بوجهه الصامت القاسي تجللني وأقف قرب صنابير المياه في آخر الباحة، أمدُّ سبابتي أبلّلها بالماء، وأمحو بها ترتيبي وحوّلت الرقم 25/ 26 إلى 5/ 26. كم يحزنني الألم والشفقة على تلك الطفلة الصغيرة التي حوّلها الخوف من سلطة الأب الخانقة والمدمرة إلى مزوّرة. لكن أبي عرف أني زوّرت النتيجة الختامية وواجهني مؤنباً بأن علاماتي ضعيفة، ويستحيل أن أكون الخامسة. وأنه من الواضح أن مسحت الرقم (2)، وآثار الماء واضحة...

لكني صمّمت على المضي في الكذب، وحلفت له بأني لم أزوّر، وبأن هذه الآثار، هي نقطة كولا سقطت على الجلاء، ابتسم متهكماً وقال إني كاذبة بامتياز، وبأنه حزين حزناً مضاعفاً، ليس بسبب تدنّي

علاماتي، بل لأني كذّابة.

عشت طوال الصيف طفلة ذليلة وقد التصقت بي صفة كذّابة، بل صار يشعرني أنه يشكّ بكلامي، وحين يسألني أي شيء، وأجيب، يبدو أنه يتفحّص كلامي ويقلّبه من وجوهه العديدة. ثم صرت أعيش نوباً من الرعب الصافي كلما كذبت، فأخاف أن يفتضح كذبي، وبدأت عادة مخجلة باغتتني وأقلقت أهلي، وهي أني صرتُ أتبوّل أثناء نومي، لم أفهم - لا أنا ولا أهلي - أني أتبوّل أثناء نومي لأني أعاني من ضغط عصبي كبير خوفاً من افتضاح كذبي، ولأني مرهقة دوماً بنظراتهم المتفحصة التي تُعلمني كل لحظة أنهما غير راضيين عني، ويقارناني دوماً بصديقاتي، متأسفات أني لست متفوّقة وصادقة مثلهن. . .

في مراهقتي، صرتُ أكثر براعة في نسج كذبي، بل صرتُ أجد متعة في ابتكار صور جديدة للكذب، وتوصلت لنتيجة أذهلتني: الكذب إبداع. كان عليّ أن أكذب كي أخفي لهفتي ورغبتي بالتقرب من عالم الرجل، عليّ أن أكذب كي أخفي رغباتي العاطفية والجنسية، كانت مشاعري الخام المتفتحة على هوى عالم الرجل، أشبه ببراعم ورود تنمو في تربة مبلّلة بمشاعر الإثم والخطيئة، وكانت العملية التربوية عبارة عن سلسلة لانهائية من المواعظ الأخلاقية الجافة. . . كنتُ أشعر أني مُراقبة دوماً وأنا أدرس على الشرفة، فيقوم والدي بمسح دقيق لشرفات ونوافذ الجيران، مكتشفاً كل مرة مراهقاً، أتبادل معه النظرات والابتسامات، فيمطرني بمواعظ غامضة، تصيبني بالاختناق. كان والدي يستعمل تعبير طالما أصابني بالغثيان (بنات العائلات). تعبير يعني أن أظل مخنوقة، كئيبة، لدرجة صرتُ أحسد بنات الشارع اللاتي يعشن عفوية وسعادة دون رقابة. . . باختصار كنتُ أعيش مراهقتي كما لو أن نظرات أهلي تشبه الأشعة السينية تخترق جسدي وعقلي وقلبي لتلتقط أدق تذبذبات

مشاعري وأفكاري ورغباتي.

لكن الكذب ظل حصني، وحققت نجاحات مهمة في عالم الكذب أثناء دراستي الجامعية فقد انتسبت لكلية الفلسفة ودرست سنتين، وبعدها تركت الجامعة وفضلت الالتحاق بكلية التمريض لأن الوظيفة مضمونة، ولأني أكره التدريس. أعطتني الحياة الجامعية حرية حركة، واختلاط مع الجنس الآخر، لكن المواعظ الأخلاقية الجافة والمقيتة لأهلي استمرت، لكنها اتخذت شكل شد الحبل تارة، وإرخاءه تارة أخرى. خلاصة مواعظهم الأخلاقية المتذبذبة والمنافقة أنه مسموح التقرب من الجنس الآخر. شرط أن أضمن العريس!! أي ليس هناك قيم أخلاقية ثابتة، فالحكم النهائي هو بالمكاسب النهائية، فإذا أثمر التقرب من الجنس الآخر بالتقاط عريس، تكون الفتاة شاطرة وأخلاقية، وإن لم يثمر بعريس تكون الفتاة ساقطة وسيئة السمعة!

لم أكن وقتها أفكّر بالزواج، كنتُ سعيدة بالاختلاط الذي تتيحه لي الحياة الجامعية شاعرة بكياني الجامع المتلهّف لتذوق العالم، حيوية روحي هائلة، ولديّ توق عميق للتجربة كنتُ أشعر أنه من حقي أن أتذوّق عالم الرجل كما أتذوّق عصير البرتقال، ولم أقتنع ولا بأي شكل من الأشكال بأن الزواج وحده هو باب المرور لعالم الرجل، فأنا لستُ ناضجة كفاية، ولستُ مؤهلة لأدخل قفص الزواج الأبدي. أحببتُ شاباً أردنياً ثرياً، وكنت ألتقيه سراً في شقة يسكنها خارج المدينة، حريصة أن أكون في حظيرة الأسرة تمام الثامنة مساءً كما يرغب أهلي، كنتُ ألاحظ أني ما أن أدخل البيت مساءً، كيف يستنفران وتتيقّظ حاسة الشمّ لديهما، كأنهما يتقصيان رائحة رجل. أذكر تلك النوب المباغتة التي كانت تنتابني وأنا جالسة بين أمي وأبي، فأتمنّى لو أصرخ بهما: أنتما جعلتماني كاذبة رغماً عني، أنا لا أطيق الكذب، أحب الصدق، الصدق نور، نوب قوية

من الرغبة بتدمير كل هذا الزيف الأسري تعصف بي، لدرجة أشعر أني مستعدة أن أجازف بكل شيء وأدمّر هذا الأمان الزائف. نوب أعجز عن وصفها، أسمّيها نوب هوى الحقيقة تدفعني للإجهار بحقيقة أفكاري والاعتراف بسلوكي.. لكني كل مرة كنتُ أنجح في لجم نفسي، فأستسلم للكآبة، وأستيقظ في قلب الليل وأنا أجهش ببكاء أليم مصدره تسمّم روحي بالكذب، لكني أنجح كل مرة في تهدئة نفسي، بأن الكذب لا مفرّ منه، وبأنه ملح الحياة.

أيقظني رنين الهاتف. للوهلة الأولى لم أتبيّن أين أنا، نظرتُ في ساعتي، التاسعة والنصف ياه هل نمت ثلاث ساعات.. هوى قلبي وأنا أعي حقيقة قبولي دعوة الرجل الغريب، هاجت مشاعري تؤنّبني وتكثّف إحساسي بالإثم، لكن صوته الهادئ أعاد لروحي الطمأنينة: هل زال صداعك؟

- تماماً.

- ألا ترغبين بتناول العشاء معي؟

- بالتأكيد.

- أنتظرك في المطعم الدوّار.

- أين؟

- في الطابق الأخير للفندق.

أزحتُ الستائر، باغتني الجمال في الخارج شوارع متلألئة بالنور مُشعّة بالبهجة، الكهارب الصغيرة الملونة ترسم أشكالاً مختلفة لأشجار سرو وأرانب وفراشات، ندف ثلج تتساقط بغنج وتلتمع وتتلوّن بلون الكهارب، نهر من السيارات تعبر الشارع العريض بتفرعاته الجانبية، مارة يسرعون الخطا، ظهورهم منحنية من البرد، وأنا في قلب المشهد، امرأة تتذوّق الترف لأول مرة. فتحتُ حقيبتي، كنتُ قد قرّرتُ أن ألبس كنزتي

الحمراء مع بنطالي الأسود، لكن ما أن سقط نظري على الفستان الأزرق، حتى تمطّى في روحي شعور خبيث غامض، لِمَ لا أغوي الكهل المشهور؟ سيمتعني أن أعرض عليه فتنتي، ثم إنني أريد أن أجمّل صورتي أمام هذا الرجل اللبق والمهذب وذي المقام الرفيع الذي التقاني وأنا بأسوأ حالاتي وأكثرها خزياً... يجب أن يرى وجهي الآخر، الأنثوي والعذب، وبسرعة لبست الفستان الأزرق الذي يظهر رشاقتي ويكشف عن عنقي وصدري، ولم أنسَ الشال الحريري الأبيض الذي أضفى نقاءً على بشرتي.

كنت أشعر أني امرأة مختلفة، إذ لم يسبق لي أن تذوّقت هذه الفخامة، ولم أدخل في حياتي فندقاً فخماً، غصّت روحي بالقهر وأنا أتذكّر الفنادق الحقيرة التي اضطررت مراراً للمبيت فيها، طردت تلك الذكريات تأمّلت صورتي في مرآة المصعد الواسع المُعطر، والذي يبثّ موسيقى رومانسية، ياه كيف استرخت ملامحي وعكست سعادة حقيقية، اقتربت من المرآة حتى كدت ألتصق بها: أهذه أنا؟! بدت لي الأزمة عند الحدود بعيدة كما لو أنها حدثت منذ أشهر، وليس منذ ساعات، لم أتعرّف وجهي في المرآة، كم تليق بي الرفاهية والنِعمة، وحين انفتح باب المصعد استوقفني سؤال طالع من روحي ترى هل يشعر الأغنياء بآلام روح الفقراء؟ سأفكّر بهذا السؤال فيما بعد، إذ إن الكهل هبَّ لاستقبالي وأبدى إعجابه بأناقتي ورشاقتي.

سألني إن كنتُ أشرب الكحول، فضحكت من سؤاله غير المتوقع فسألته بدوري: لِمَ تسأل؟

- لأنكم هنا في العالم العربي قسم كبير يعتبر الخمرة محرّمة...

طمأنته أني أشرب الكحول، فطلب من النادل زجاجة نبيذ شاردونيه. أحضر النادل مأذوات فاخرة، ولأول مرة أتذوّق سمك السومون

فوميه، يا للطعم الرائع، أكلت عدّة قطع، فعلّق مازحاً بأنه بسبب السمنة، لاحظتُ أنه لا يتأمّلني بل يدرسني ولا يستطيع أن يرفع نظره عني، آثار النبيذ الفاخر، والسومون، والرجل المفكر ذو المقام الرفيع وترف المكان وارتفاعه، والثلج المتساقط بغنج في الخارج، كل هذه الأمور مجتمعة أثارت كوامن رومانسية في نفسي... كنت أحدّثه عن الهناك، عن حياتي مع أهلي، مختنقة بالدفء العائلي الفاتر، توّاقة دوماً للانطلاق، وعاجزة عن تحقيق ذلك. كان مصغياً بامتياز، ووجهه يزداد رقّة أكثر فأكثر، رقّة توشك أن تصير بداية حب.

طلبت إليه أن يحدّثني عن نفسه، تململ قائلاً إنه بالتأكيد سيحدّثني عن نفسه، لكن يرغب بسماعي. هل لمحتُ بريق لهفة في عينيه؟ هل يتأمّل بافتتان عنقي وأعلى صدري؟ أم أن النبيذ حرّض أوهاماً أعمتني عن رؤية الحقيقة. سألته: ماذا تريدني أن أقول؟

قال: أي شيء، حدّثيني عن حياتك في اللاذقية.

ضحكت، كعادتي دوماً في التواري وفي إخفاء ضيقي، قلتُ له بدلال: إذاً صُبّ لي المزيد من النبيذ!

سألني إن كنتُ أشرب نبيذاً هناك، فضحكت بصوتٍ مرتفع وأنا أقول له بأن النبيذ هناك طعمه مثل الخل، سأل عن سعر الزجاجة، فقلت حوالى 2 - 3 دولار. أبدى دهشة عظيمة وعلّق بأن ما نشربه يستحيل أن يكون نبيذاً.

أشعل سيجاراً رفيعاً، فاستأذنته أن أدخن سيجاراً، تأمّلتُ نفسي في زجاج النافذة أهذه أنا؟! الممرضة المسكينة الفقيرة، التي تكون في مثل هذا الوقت مُحتضرة من الضجر، محنّطة وسط أبدية الفتور العائلي، أبدية الوجوه، وأبدية الحديث... كم بدوت امرأة مختلفة، رفعتُ كأس النبيذ بيد، وسحبت دخان السيجار، وأنا أتأمّل المرأة الجديدة التي

يعكس الزجاج صورتها. سألني: بمَ تفكّرين؟

وللتو أجبته، غير عارفة ما سأقول، مندهشة مما نطقت: أفكّر بالكذب، الحياة هناك مدرسة في الكذب، والضجر أيضاً... فراغ ثم فراغ ثم فراغ... مدينة لا تقدّم لك شيئاً سوى الفراغ...

بدا القلق على وجهه: وكيف تعيشين؟

- حياتي تشبه احتضاراً طويلاً طويلاً.

- لكن امرأة جميلة مثلك، الكثير من الرجال يحبونها ويتمنّون قربها...

ضحكت، يا إلهي كم يحرّض بي هذا المفكر الرغبة بالضحك، يبدو كأنه قادم من كوكب آخر. لاحظتُ أنه لا يأكل إلّا قليلاً، سألته لِمَ لا تأكل، فالطعام لذيذ جداً.

قال: إنه يفضّل أن يكون عشاءه خفيفاً ومنذ إصابته بفتق في المعدة صار طعامه على شكل وجبات متعدّدة وصغيرة.

بدا عليه القلق فسألني: وإن اخترت الصدق، إذا قرّرتِ ألّا تكذبي، فماذا يحدث؟

- تقوم الدنيا ولا تقعد؟

- كيف، أعطني مثالاً؟

- أوف، يمكنني إعطاءك ألف مثال.

مثلاً إذا اتصل بي صديق، وتواعدنا على اللقاء، أو حتى لم نتواعد بل تبادلنا الكلام عبر الهاتف يسألني والدي مع مَن تتكلّمين، فإذا كذبتُ وقلتُ صديقة مرّت الأمور بسلام رغم بذرة الشك الموجودة دوماً في أعماقه، أما إذا قلت الحقيقة، فيغضب، ويمطرني بالأسئلة والمواعظ، ويحاول أن يؤكّد لي أن الرجل صيّاد في مجتمعنا العربي، ولا يحترم المرأة السهلة... إلخ من الأفكار الممجوجة.

قطّب معلّقاً: لكن لا يحق له أساساً أن يسألك، فأنت لك حياتك الخاصة.

انفجرت بالضحك، فاستنكر ضحكي، اعتذرتُ له قائلة بأنني اضحك لأني أحسّه بعيداً كلياً عن عقلية الناس هنا، احتجت لفترة كي أسيطر على نوبة ضحكي فقلتُ له: ليس لي أية خصوصية لأني أعيش معهم، في بيتهم.

- ولماذا لا تسكنين في شقة لوحدك؟

- لأني لا أملك المال، ولأن سكن المرأة وحدها أمرٌ مُستنكر.

- ولِمَ هو مستنكر؟

- لأن أي زائر سيزورها، سيعتقدون أنها تضاجعه؟

- لا أصدق ما تقولين، الحياة إذاً جحيم.

- اتسمح ان نغيّر الموضوع، اريد أنا ان أسألك. هل تمانع؟

- أبداً، تفضّلي؟

كأني أعرف هذا الرجل اللبق منذ سنوات، الغيتُ الكلفة معه وسألته: احكِ عن نفسك بما لا يزيد عن خمسة أسطر؟

ابتسم قائلاً: أكون ممتناً لو قلتِ ثلاثة أسطر.

- كما تشاء، على فكرة لا تقول ما أعرفه، أعرف أنك مفكر شيوعي معروف ومشهور بأفكارك الثورية الناقدة للمجتمع العربي، وتدعو بقوة لتحرير المرأة، وأعرف أنك أستاذ في جامعة مشهورة في واشنطن. لكن أريد أن أعرف شيئاً عن حياتك الخاصة.

- حسناً، أنا في الرابعة والسبعين، متقاعد، افكّر ان أعود إلى وطني... الذي أبعدت عنه رغماً عني.

قاطعته: أنت فلسطيني، من أية مدينة؟

قال: من حيفا.. لكن الظروف الحالية لا تشجّع على العودة، لكن

الحياة صعبة وغير آمنة في الوقت الحالي. لذا أفكّر بالاستقرار في بيروت.

- بيروت؟ كم أتمنّى لو أزورها.

أبدى دهشته أني لم أزر بيروت، أخبرته أني لم أغادر الحدود السورية أبداً طوال حياتي، وأن تلك الزيارة الفاشلة لعمان كانت ستكون سفري الأول.

أبدى أسفه مستأنفاً كلامه. مطلّق مرتين من أميركيتين. ولي من كل زوجة ابن.

- ولِمَ لم تتزوّج امرأة عربية؟

- غالباً ما يكون الإنسان محكوماً بظروف معينة.

- معك حق.

انقلب مزاجي ما إن سمعت هذه العبارة. وأظنه لاحظ كيف عبرت وجهي سحابة كآبة، سألني إن كنت متعكّرة من شيء، فقلتُ له بأن ظروف الإنسان هي التي تحكمه، وبأن كل الكلام عن الإرادة والطموح والأمل، يتلاشى أمام ظروف مفروضة على الإنسان كالقدر.

لعله أراد رفع مزاجي، فرفع كأسه، وقال ويده ترتعش: كأس امرأة شجاعة وجميلة.

رفعت كأسي وشربت نخب رجل أعتزّ بصداقته.

سألني: السيّد متزوّجة؟

ساعدني النبيذ كي أبتعد أكثر فأكثر عن جرح لا يزال ينزف ببطء. حدّثته عن زواجي.

غريب ما أسهل البوح بأسرارنا للغرباء، ابتسمت ابتسامة تعني أنه الإنسان الوحيد الذي لا أضطرّ للكذب أمامه. سألني كم مضى على طلاقك؟

- أربع سنوات.

- ولم تتزوّجي ثانية؟

- لا.

- هل كرهت الرجال؟

- هل تصدّقني إذا قلتُ لك أبداً... أتعرف بعد أن زالت فترة الصدمة وتقبّلتُ ما حدث أي طلاقي، وزواج طليقي، شعرتُ براحة عظيمة، راحة من وصل إلى نهاية شيء مُقلق ومعذّب، لم تكن حياتي مع زوجي سعيدة رغم الحب بيننا، كان رجلاً عصابياً يحسّ بالقهر والظلم طوال الوقت، رجلاً عاجزاً عن الفرح، لم يكن يحسّ بكرامته، وقد علّمتني الحياة أنه من المستحيل أن تكون سعيداً إن لم تشعر بكرامتك.

- وأنتِ أتشعرين بكرامتك؟

- إطلاقاً، للأسف الحياة هنا، إما أن تكون مستغِلاً أو مستغَلاً، إما ظالماً أو مظلوماً.

- لكن ما تقولينه خطير، خطير جداً! لم أجب فتابع تساؤله القلق...

- إذاً كيف تعيش امرأة جميلة وذكية مثلك؟

- أعيش بطاقة خيالي، بأحلامي التي تُسكّن أوجاع روحي، أعيش حالة انتظار أبدية لأشياء أقنع نفسي أنها ستحدث.

- مثل ماذا؟

- لا أعرف تحديداً، ربما أحلم بثروة ستهبط عليّ من شرائي ورقة يانصيب، أو بسفر أو بزواج يفتح أمامي أفق حياة جديدة... باختصار أعيش بحالة انتظار وأمل أن حياتي ستتغيّر، لكن أكثر ما أخشى أن يمضي عمري وأنا بحالة انتظار.

تأمّل وجهي بافتتان، وقال: أنتِ امرأة رائعة حقاً.

ضحكت، وتساءلت بصدق: ما وجه الروعة فيّ؟

- أشياء كثيرة، شجاعتك، صمودك وسط الإحباط العام. حيويتك، رغبتك بالتغير...

- لكن الحياة بخيلة معي.

- لا تقولي هذا الكلام. أتعرفين من الآن فصاعداً اعتبريني مسؤولاً عنك.

ضحكت، كان النبيذ قد أدخلني في نشوة لذيذة أقرب للنعاس، وحين دخلت غرفتي المُترفة ارتميت على الفراش الوثير المعطر، شاعرة أن الدفء يدثّرني كوشاح من الحرير.

تذكّرت ذلك الفندق الحقير الذي لم أستطع أن أغفو فيه ولا لحظة بسبب البرد، ورائحة الفراش العفنة. والشراشف العتيقة المتّسخة، وطوال الليل كنتُ أحسّ أن الوسادة مبلّلة بالماء وباردة تجعل جلدي ينكمش مقشعراً، وفيما أنا أستسلم للنعاس اللذيذ وأغطس في ظلام النوم الهلامي، أتاني يقين من أعماق روحي أن قدري اشتبك مع قدر هذا الرجل الذي وضعه القدر في طريقي، وبأنه اعتباراً من هذا اليوم سوف تحوّل حياتي تحولاً جذرياً.

• • •

استيقظت في ساعة متأخرة كما لو أني مخدّرة، أحسُّ جسدي ثقيلاً غاطساً في الفراش الوثير، والملاءات الناعمة المعطّرة، احتجت لدقائق كي أستوعب أين أنا وما الذي حدث البارحة! فجأة انتفضتُ من الفراش، وقلبي يخفق بعنف، وحالة من الغضب والذهول تتلبّسني، وبدتْ الغرفة المترفة أشبه بفخ لاصطيادي، وتجمّعت تفاصيل البارحة أمامي، فانكمشت من الخوف، الخوف الخام غير المغشوش الذي

ينفضّ عليّ دون رحمة كل فترة، عنّفت نفسي بقسوة لقبولي استضافة العجوز! لم أجد أي سبب مُقنع لقبولي دعوة رجل غريب، وزاد من غضبي كوني نمتُ بعمق أنا المرتعشة بالقلق والتي أصارع الأرق كل ليلة، سخرتُ من نفسي وخاطبتها شامتة: معك حق، نمتِ بعمق لأنك مثل (العديم الذي وقع في سلة تين)، لست معتادة على الترف، على دفء الشوفاج والفراش الوثير، لأول مرة تعيشين تجربة خمس نجوم.

وبدت حقيبتي الحمراء العتيقة اللامنتمية لهذا الترف أصدق دليل على وجودي الخطأ هنا، على قراري الخاطئ بالمبيت في دمشق، كان يجب أن ألحّ بالعودة فوراً إلى اللاذقية.

تفجّرت نقمتي على العجوز ثم شملت الرجال جميعاً، اللعنة عليهم كيف يستغلون ظروف المرأة؟ دخلتُ الحمام لأغسل وجهي الساخن، فبدت أناقته وبذخه كصفعة جديدة لاصطيادي، تفحّصت المغسلة الواسعة من الرخام وقد حُفر على حافتها بنقوش جميلة مذهبة والعبوات الأنيقة من الشامبو والكريم، وفرشاة أسنان صغيرة، ثم مجفّف الشعر، والمرآة الكبيرة اللمّاعة... مَن لا يتأثر بالأناقة والترف والنظافة! هل مُحرّم عليّ أن أجرّب ولو لمرة واحدة فندق خمس نجوم؟ لكن نفوري من الكهل ظل يُعكّرني، اللعنة عليه لماذا ألحّ عليّ بالبقاء في دمشق؟ لِمَ لم يتركني وشأني أسافر فوراً إلى اللاذقية؟! لكني استدركتُ مستعيدة الموقف بأمانة أنه لم يُلح، بل اقترح بلباقة محاولاً إقناعي، وقلقاً عليّ من مشقة سفر أربع ساعات والحالة الجوية تنذر بعاصفة.. ثم إنه رجل غير عادي. إنه أحد زعماء الفكر، والأهم إنه رجل في الرابعة والسبعين، لكأن سنوات عمره حصن أمان. نظّفت أسناني وغسلت وجهي وأنا أضحك متذكّرة تعليقاتنا الساخرة - صديقاتي وأنا - على الرجال كبار السن (ختيار ما بيخوّف).

اتصلت به، لم يكن في غرفته، لعله في المطعم يتناول إفطاره، لم أكن جائعة، لكن الطعام اللذيذ المقدّم بسخاء وتنوع، جعلني أشعر بالجوع، تساءلت ترى أين يكون؟

مرّت وجوههم أمامي بعيدة شاحبة معاتبة مؤنبة، طردت خيالاتهم كما لو أني أهشّ ذباباً، ذكّرت نفسي بوجوب اختراع كذبة... الله يلعن هذه العيشة كلها كذب في كذب بل بدأت حياتي تسبح للكذب. سلسلة لا نهاية لها من أكاذيب، والأكثر إيلاماً أنني أحسّهم يعرفون أننا نكذب على بعضنا البعض... كما لو أن تواطؤاً خفياً بيننا بعدم قول الصدق. ياه إلى هذا الحدّ نخاف الصدق؟ ولِمَ يخيفنا لهذه الدرجة؟ ربما لأنه يضطرّنا لمواجهة أعماقنا المسكونة بالخوف والأفكار البالية، ربما لأنه سيجبرنا إذا اعتدنا عليه أن نتغيّر ونحن نستسهل حياة الكسل والتفاهة، ونخاف المواجهة.

اقترب النادل وسألني باحترام أقرب للتبجيل ماذا أشرب، طلبتُ النسكافيه مع الحليب مع أنني أشرب قهوة عادية صباحاً، لكني شعرتُ بوجوب التأقلم مع الواقع المترف الجديد والمباغت، أتفحص الوجوه حولي، جنسيات مختلفة، البعض يتأملني بفضول وإعجاب ملأت صحني بمأكولات لذيذة، ولم أنسَ السومون، وتذوّقت لأول مرة البيض المخفوق بالحليب والذي أحببته كثيراً، يا سلام الترف ثقافة، شعرتُ أني منتفخة كطاووس، وقرّرتُ أني سأبقى باستضافته اليوم أيضاً، ألم يُلح عليّ أن أبقى وأحضر محاضرته في المركز الثقافي الفرنسي، لِمَ لا؟

أصابتني حالة من هياج الفرح - كما سمّيتها - قرّرتُ أن أعيش يوماً مختلفاً، المبلغ الذي وفّرته لرحلة الأردن سأصرفه، اللعنة على التقشف القسري، وعلى الدوران الأبدي في سوق الألبسة المستعملة، غزتني رائحة الألبسة المستعملة وقارنتها برائحة الترف، غاص قلبي في

ألم سائل وأنا أتساءل ببداهة الأسئلة الأولى: لِمَ هناك غني وفقير؟! قرّرتُ أن أخرج إلى السوق، بهجة الشارع تناديني، والمحلات الأنيقة تغويني، لكن عليّ البحث عنه أولاً. ترى أين هو؟ سألت موظفة الاستعلامات عنه، فقالت إنه في الطابق الأول يجري مقابلة تلفزيونية.. صعدتُ الدرج نصف الدائري، ومشيت في رواق أنيق مفروش بالسجاد الأخضر النظيف واللمّاع، تسحرني الفخامة، وتلك الرائحة الخفيفة المعطّرة المنتشرة في الجو، وقفت غير بعيدة أتأمّله جالساً على كرسي ذي مسندين ونور مبهر مسلّط عليه، ومحاوره شاب أنيق، وبينهما طاولة مستديرة صغيرة عليها باقة ورد رائعة. لمحني فابتسمت عيناه، وبدا عالمانا غريبين وبعيدين إلى حدّ التنافر، ومع ذلك تقاطعا، شاء القدر أن يتقاطع قدري بقدره، وتخيّلت القدر كطفل صغير يُحب أن يلهو... كنتُ أعاين المكان أحسّه، أتشمّمه، ألمسه، كما لو أني أتعرّف إلى جسد... ابتعدتُ عن مكان التصوير، وركضتُ إلى غرفتي، لبست معطفي، وأحكمت الشال الصوفي على رأسي، وخرجت من الفندق، اعترضني طفل متسوّل، ورجاني أن أعطيه ثمن سندويشة، لا أعرف لِمَ رغبتُ بقوة بتخزين صورته، كان ينتعل حذاءً عتيقاً كبيراً على قدميه الشخنين، دون جورب، وجاكيت من النايلون عتيقة ومشقّقة ويضع قبعة صوفية ملبّدة على رأسه، وجه متأكزم من البرد، وشفتاه مشقّقتان، أنفه يسيل فيمسح السائل بكم سترته... أعطيته مبلغاً جعله يلتقط أنفاسه مبهوراً لمستُ خده البارد بحنان كما لو أني أرغب بتخزين ملمسه في روحي، وحين هممت أن أسأله عن اسمه ولِمَ يتسوّل. فرَّ هارباً، أظنّه خاف أن أستعيد المبلغ الكبير الذي لم يحلم به هذا الصباح، بل ربما خاف أن أسلّمه للشرطة.

ما أروع زينة الشوارع، بعض المحلات تضع شجرة عيد ميلاد

صغيرة في واجهاتها، مزيّنة بكهارب وكرات ملوّنة، كم مضى من زمن لم أحسّ بمثل هذا الفرح؟! بدا الفرح شعوراً غريباً، عليَّ تنشيط ذاكرتي لاستعادته، فرح يشبه ضحكة طفل، أو زقزقة عصفور فرح غريب طائش يجعل خطواتي تتقافز، كنتُ أمشي في شارع الصالحية متشية بكل شيء، مطلقة البخار من فمي بسعادة، بدوت في قلب المشهد الاحتفالي سعيدة سعادة كثيفة مركّزة ثقيلة، سأشتري، سأشتري، سأشتري، ما ألذّ متعة الشراء، اشتريت ورقة يانصيب، وأتاني يقين أني سأربح الملايين، وبلغت بي حمى الشراء لدرجة اضطررت أن أبيع الخاتم الذهبي الذي كنتُ سأقدّمه هدية لصديقتي بمناسبة زفافها واشتريت بثمنه مجفّف شعر من نوع ممتاز، وسيارة رائعة لابني.

حين دخلتُ الفندق، كان في ركن من الصالون محاطاً بجمهرة من الصحفيين والمثقفين، لوّحت له، وذهبت إلى غرفتي أفرد مشترياتي على السريرين المُرتبين... عليَّ أن اتصل بهم، وأخبرهم بما حصل معي... لعلهم عرفوا، أني لم أصل بيت صديقتي في عمّان... لكن لم أنسج كذبتي بعد... ماذا سأقول لهم؟! تخيّلت لو اعترف لهم أني في فندق الشام باستضافة مفكر عربي معروف... سيحلقون بي مستنكرين: أتقبلين دعوة رجل؟ أتسمحين لغريب أن يحجز لك غرفة في فندق؟ أهذا سلوك امرأة تحترم نفسها؟ وأتخيّل اني أجيبهم ساخرة: لكنه عجوز، في الرابعة والسبعين، أضحك بعني ما يخوّف...

أعفاني رنين الهاتف من تخيُّل ردّ فعلهم، أتاني صوته أين أنتِ؟ لقد تأخرت أسرعي، سنغادر الفندق حالاً لنتغدّى في الشيراتون، بدعوة من وزير الإعلام...

هل قال الشيراتون! هل سأغزو الشيراتون أيضاً، يا سلام، يا سلام يا إيمان صار اسمك قابلاً للتحقيق، صار مثل نبوءة... كنتُ ألجم نوب

ضحك تكاد تنفلت مني من غرابة وروعة ما أعيش، واقع أقرب للخيال. شيء يشبه المستحيل... لكن لِمَ لا يتحقّق المستحيل ولو لمرة واحدة... لكني فكّرت أنه غالباً ما يتحقّق المستحيل، غالباً ما يحدث ما لا نتوقّع حدوثه... فلِمَ لا يكون المستحيل إيجابياً هذه المرة، ويتقاطع قدري مع قدر هذا الرجل المهم.

الطاولات مرتّبة على شكل حرف U، والمدعوون حوالي ثلاثون شخصاً وأنا أجلس في حضرة الوزير والرجال المهمين، سياسيين أساتذة جامعيين، إعلاميين مشهورين... الحديث متنوّع وعميق، محوره أزمة التعليم، خاصة التعليم الجامعي، حيث غاب مفهوم البحث العلمي... لأول مرة أسمع تعبير الأمية الجامعية، انتبهت أن صديقي الكهل مستمع ممتاز، لا يتكلّم إلّا قليلاً، وإذا تكلّم يكون كلامه عبارة عن أسئلة؟... إنه رجل الأسئلة كما تبيّن لي فيما بعد، إذ نادراً ما يغني الحديث بتعليق أو شرح... أبدى اندهاشه في ضعف اللغة لدى الجامعيين، يستحيل متابعة العلم إن لم يتقن الطالب اللغة الإنكليزية، أو لغة نجحت في اللحاق بالاكتشافات العلمية... شرح الوزير اللبق الخطوات الجديدة لإدخال اللغة الإنكليزية والفرنسية في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية...

كنتُ امرأة مشطورة إلى قسمين، قسم يعيش سحر اللحظة، مبهورة بالمكان والشخصيات الأسرة، والحديث الغني المختلف عن الأحاديث هناك، وقسم يعيش هناك، في مدينة التحنيط حيث أكون في مثل هذا الوقت أجلو الصحون ثم أمسح المطبخ، وبعدها أدخل غرفتي.

لم أعد أتابع الحديث الشيّق، كنت أفكّر بحقيقة أو استنتاج، كم هو رائع أن تكون الحياة غنية وحارة ومتدفّقة، كم هو مفيد ويغني الروح والعقل لقاء النخب الفكرية والثقافية... وبدت حياتي هناك فقيرة ورتيبة

على نحو يدفع للانتحار. غُصتُ في مقارنات مؤلمة لانهائية، إلى أن أعادني صديقي اللبق إلى الواقع منبّهاً إياي إلى السومون فوميه، تبادلنا نظرة دافئة، وابتسامة، كما لو أننا صديقان حميمان منذ سنوات طويلة.

• • •

كنت متأكدة أن ما يشدّني - للزعيم - كما سمّيته في سرّي، ليس انجذاباً عاطفياً ولا جنسياً - فما بيننا زخم إنساني - عليّ أن أطوّره وأستغلّه. كيف سأدخل أجواءه؟ كيف سأجعله يتعهّدني ويفتح لي طرقاً مسدودة، ويجعلني أعبر حدوداً، وكما لو أن حدساً غامضاً تكشّف لي، وجدتني أفكّر به بعمق، كما لو أني أسبر غور سنواته الرابعة والسبعين، الشيء المؤكد أنه يحب حديثي، تفتنه قصصي وتعليقاتي عن حياتي وحياة الناس هناك. ارتعشتُ سعيدة كمن يتوصل لاكتشاف مهم بعد طول معاناة: عليّ أن أكون شهرزاده.

وحين رأيت الحشد الكبير في القاعة التي سيلقي فيها محاضرته، جمهوراً يختنق به المكان، مسؤولين، إعلاميين، طلاب جامعيين، اخترتُ أن أكونَ بين الواقفين كي أقيّم بدقة ما يحدث. الرجل المهم جالس وراء منصّة شُكّت عليها عدة ميكروفونات، كل منها تابع لمحطة تلفزيونية. يتحدّث بصوت ساحر. لم أكن أصغي إليه، لكن نغمة صوته الرخيم خدّرتني. وحين علا التصفيق الحاد وهو يختم كلامه، غادرت القاعة، كنتُ مبلبلة ومتوترة بشدّة. دخلت غرفتي الأنيقة لم أشعل النور، كنتُ بحاجة لظلام الغرفة كي أرى أعماقي بوضوح. فكّرتُ أن هذا الرجل فتح شهيتي لأشياء كثيرة وحقيقية. أشياء تراكم فوقها غبار الروتين. كم يمكن للحياة أن تكون مدهشة وغنية وساحرة؟ اختنق حلقي بغصّة قهر، يا للزمن الباهت هناك! يا للعمر الذي يَمرُّ بتفاهة وفراغ أظن الله

خلق الدنيا عارفاً أية كوارث ستحصل فيها لأنه يكره الفراغ.

بعد ساعة علا رنين الهاتف لم أرفع السماعة فوراً، كنت مستمتعة بالإصغاء للرنين الذي أحسسته صدىً لأشواقه، أتاني صوته مُتعباً: أين هربتِ؟

قلتُ له متصنّعة اللحول: لم أهرب، بل تركتك للمعجبين.

قال بحزم: أنتظرك في المطعم الدوّار.

- لكن السـتُ مرتبطاً مع...

لم يتركني أكمل، بل قال: لقد اعتذرتُ لهم بأني مُتعب وعليَّ أن أسافر باكراً إلى بيروت.

كان ينتظرني في المطعم، يشرب النبيذ الأبيض المُبرّد، وبدا بحالة نفسية غريبة، مزيجٌ من سعادة ورضا، وقلق وحزن. تدهشني نظرة عينيه، فأحياناً أحسّها خاوية، وتارة تبدو في قمة التركيز والإحساس، في كلتا الحالتين. لا يحوّل نظره عن وجهي.

ابتسمت مستمتعة بتأثيري عليه. هل أسأله ما الذي يراه فيَّ؟

أبديتُ له إعجابي وفخري أني التقيته، تفحّصته جيداً كيف يؤثر فيه الإطراء، لكنه يتظاهر باللامبالاة، قلتُ له أن ما حدث معي يشبه قصة سندريللا، التي غيّر الأمير حياتها، كان يستمع إليَّ بصمت أقرب للخشوع، ويبدو كتمثال، ولولا أنه يرشف النبيذ من وقت لآخر، لاعتقدتُ أنه غرق في غيبوبة.

أسرني حنانه، لا أعرف كيف وصلتني دفقات مشاعره، ربما من كلماته البسيطة حين قال لي بدعابة ترشح بحزن لا يخفى في صوته: اليوم مسموح لك أن تأكلي ما ترغبين...

هل أنتِ سعيدة حقاً كما يبدو على وجهك؟

ضحكت، في صوته توسل خفي، كي أتكلم، كي أظل أحكي

واحكي إلى ما لا نهاية، ياه ما أمتع أن تكون المرأة شهرزاد، فهذا دليل على تفوقها. وجدتني بلحظة أغادر شخصيتي وأتقمص شخصية أردت أن أجسّدها تماماً، لم أكن أكذب، كنت أكثر ما أكون صادقة وصريحة، ما أروع الحرية التي يعطينا إياها الغرباء، نحكي ما نشاء، نبوح بأسرارنا، مطمئنين أن كلاً منا سيمضي باتجاه، وأظن أنه لو صدف والتقينا ثانية ستهرّب من بعضنا.

ما أعجب ما يستطيع التمثيل أن يفعل؟ وجدتني أرنو إليه، وملامح وجهي تشف وترشح بحزن شفيف، عيناي تبرقان بالدمع، وصوتي يغدو هامساً ومستسلماً الزجاج المُعتم يعكس وجهي، وجدتني أدرس تعابيري، أتحكّم بها، لتكون أشد تأثيراً فيه، وحين تأكدت أن كيانه متوجه نحوي، يصغي إليّ بلهفة عظيمة.

سألته: عمّ تريدني أن أحدثك؟

قال برجاء: أي شيء أرجوك، حديثك رائع، لو تدركين أهميته بالنسبة لي.

أحسستُ أن اللقطة - كي تزداد تشويقاً - تتطلب أن أقول: اسمح لي أن أدخن سيجاراً، قدّم لي سيجاراً، وأشعله بيد مرتعشة، لاحظت لهفته العظيمة لكلامي، وكم يبدو مضطرباً رغم مظهره الهادئ، وبدأ الكلام يتدفق مني كما لو أني أقرأ في كتاب...

- أتعرف، يدهشني اهتمامك بي، كما لو أني حالة للدراسة، مهما يكن سأحكي لك عن حياتي هناك، هل يمكنك أن تتخيل إنساناً طموحاً، يحب الحياة، يعشق الفن، ويؤمن بالثقافة، ينتظره الفراغ هل يمكنك أن تتخيل زهرة نضرة ذكية الرائحة، اقتلعت من جذورها وزرعت في صحراء، هل تستطيع أن تتخيل أن تصادق جرحك يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة.

هل أصف لك حاويات القمامة المتناثرة في الشوارع الطافحة بمحتوياتها، وكيف ينبش فيها الأطفال والشيوخ ويأكلون منها... أم أحكي لك عن ساعات المشي والتسكع في أزقة وشوارع مدينة موغلة في تفاهتها وقذارتها، أدور وأدور في الأزقة كأني أبحث عن نفسي... ثم أعود مهدودة إلى البيت، لأرى العجوزين صامتين مصلوبين أمام شاشة التلفاز، التلفاز سيد الناس، وهم عبيده، وأتخيل أننا جميعاً سنموت، ويبقى التلفاز ملعلعاً... أنضم إليهم، أحبهم بقوة وأكرههم بالقوة ذاتها، أعيش وسطهم، أشم روائحهم، أقرأ أفكارهم، أشعر بعراك أمعائهم، أصغي لصوت تنفسهم كيف يتباطأ حين يكبون، فأصرخ بهم، لِمَ لا تدخلان غرفتكما وتنامان، يفتحان عيونهم بتثاقل ويتابعان لقطات من المسلسل أو الأخبار ثم يأويان إلى فراشهما مكسوري القلب، ذات يوم سمعت أبي يحدث نفسه وهو يحلق ذقنه، أشرف لك أن تموت يا رجل، أشرف لك أن تموت.

هل تعرف أن راتبي مئة وعشرين دولار بعد خدمة في المشفى خمسة عشر عاماً... وأن راتب أبي التقاعدي خمسون دولارا وأننا بالكاد نشبع الأكل، ولولا أني أعمل أحياناً في مشافي خاصة، والتي طلبات بعض المرضى لأعطيهم إبراً في بيوتهم لكانت حالتنا سيئة ومأساوية.

كنت أجبر نفسي على التنهد كما لو أني أختنق، وكي يكون أدائي في أوجه، وسمحت لدموعي بالانهمار ليس تأثراً، بل لأرى تأثير دموعي عليه.

لاحظتُ أنني كلما ازددت وصفاً لواقعي المزري، زادت عاطفته نحوي، كان يرشف النبيذ بجرعات كبيرة ويدخن سيجاراً رفيعاً وهو يمتص كل كلمة أقولها، وحين توقفت عن الكلام مهنئة نفسي على نجاحي الساحق في التأثير عليه، شاعرة بمشاعر نصر تعربد في داخلي،

انتصار على ماذا؟ أي نصر حققته؟ هل أنا مجنونة أم متوهمة؟ حتى اعتقد أني ربحتُ معركة أو هبطت عليّ ثروة؟ لكن لمْ يخفَ عني أنه صار ينظر إليّ بوَله حقيقي، كنتُ أجهل لِمَ تصرّفت بهذه الطريقة؟ لِمَ مثّلت؟ كل ما قلته صحيح وصادق، لكن لِمَ اخترتُ أسلوباً تمثيلياً منافقاً، كما لو أني أقف على خشبة مسرح. صار الصمت بيننا مُحرجاً ومُكهرباً، حرضتُ الا اخدشه أريده أن يتكلم الآن، ان أحصد ثمرة نجاحي، أن يمطرني بالوعود والآمال...

كان وجهه تحت سطوتي، مسحوراً، متيماً... خفق قلبي من المفاجأة، كنتُ مبهورة ليس بتعبير وجهه، بل بمعجزة التمثيل.. ياه ما أعجب ما يستطيع التمثيل أن يفعل، بدا أنه يحضر لكلام هام. وانا مترقبة بلهفة ما سيقوله:

صار وجهه غارقاً في الجد، تنهد وقال بصوته الرخيم: اسمعي، قد يكون لقائي بك مصادفة لا يهم كيف التقيتك وأين؟ لكنك إنسانة عظيمة، عظيمة جداً، ومنذ هذه اللحظة اعتبريني مسؤولاً عنك. لجمتُ كلمة كيف من الانطلاق من فمي، وجدتني أمسك يده المعروقة المبقّعة ببقع الشيخوخة الداكنة، أرفعها إلى شفتي، لم أقبلها فوراً، بل تعمّدتُ أن تحرقه حرارة شفتي، لتشعلا مشاعر منسية وذاوية في روحه... شعرتُ كم تأثر بهذه القبلة، وكيف ارتعش فمه بابتسامه، لوهلة أحسستُ أنه يتمنى أن يضمني بقوة إلى صدره لكنه كان حائراً وخجلاً من سنواته التي تحني ظهره، في الحقيقة، كلانا حائر، كيف ستأخذ هذه العلاقة مجراها. أهي علاقة أب بابنته؟ أم علاقة حبيب بحبيبته؟

وضعتنا الحياة بامتحان صعب تلك الليلة، القدر يحدّق بي بعينيه الرماديتين القاسيتين ويسألني: هل تعتبرينه كأب، أم تريدين تحريك شهوة ماتت في روحه؟

ثم يسأله: ألا ترى أنها في عمر أولادك، أتشعر تجاهها أنها ابنة، أم تشتهيها كامرأة؟

كلانا راوغ القدر في الجواب، تجاهلنا السؤال، وعشنا تذبذب الحالة.

حين دخلتُ غرفتي استعدتُ وجهي الحقيقي، ورميتُ التعابير المستعارة، تأملت الغرفة الواسعة المُترفة وأحسستُ بحزن لأني سأغادر كل هذا الترف صباح الغد، وللحظة تمنيتُ وضع كل أشياء الغرفة في حقيبتي.

صباح اليوم الذي سيغادر كل منا ذلك الحلم القصير، وقفنا متواجهين، كيانين صلبين من الخارج هشّين من الداخل، كم بدا متعباً كأنه لم يغفُ طوال الليل، وأحسستُ أن كتفيه ازدادا انحناءً، فتح ذراعيه وضمني إلى صدره، لم تكن ذراعي رجل بل شبح، استقرت راحتاه على خصري دون أن تتحسسا أو تضغطا، بدا كأنه يريد أن يختزن ملمسي فقط، لكني تعمدتُ أن أغطي وجهه بشعري، راغبة باكتشاف أية مشاعر يحرضها فيه عطر امرأة. كانت سيارة مرسيدس فخمة تنتظره ليسافر إلى بيروت ليلقي عدة محاضرات وبعدها يرجع إلى واشنطن، وأنا كنتُ سأحمل حقيبتي العتيقة التي تشي بمنبتي المتواضع وأتجه إلى محطة الباصات. كان وداعاً صامتاً، وبلباقة ملفتة مدّ لي ظرفاً وقال: اعتبري هذا المبلغ البسيط هدية لابنك في عيد ميلاده، فتحت الظرف ولأول مرة في حياتي ألمس الدولار، رفضت المبلغ بقوة فيما قلبي يقفز فرحاً. أصررتُ على الرفض عارفة أني سأقبل في النهاية... قال لي مؤنباً: كفي تصرفات سخيفة إنه مبلغ بسيط، أما هديتك أنت فهذه.

أخرج جهاز موبايل نوكيا أزرق من جيبه، وقال: كي أستطيع أن أتحدث إليك ساعة أشاء.

قفزت فرحاً وقبلته من وجنتيه النارتين، راودتني نفسي أن أطبع قبله على شفتيه اليابستين، لكني خفتُ من إفساد اللحظة الأخيرة... فلم أكن مستعدة بعد لزج علاقتنا في اتجاه غير واضح المعالم، قد تكون له آثار سلبية.

أسعده انفعالي، أحسسته يتدفأ بي، تأبطت ذراعه حتى دخل سيارة المرسيدس، ألحّ عليّ أن يستأجر لي سيارة مريحة توصلني إلى اللاذقية، ضحكت من أفكاره، قلتُ له: اترك أمر سفري لي، فقد اعتدتُ على الباصات.

قال وهو يهز رأسه: قريباً سوف تتغير عاداتك.

أحسستُ بخواء حقيقي حين سافر، هل بدأتُ أحبه حقاً؟ أم أردتُ أن ألزم نفسي به دون أن أتبيّن دوافعي تماماً، ما كنتُ واثقة منه أن حُبي له مصطنع، مفبرك، كما لو أنه ضروري من أجل مشروعي المستقبلي، المشروع الغامض المثير، المتحدي، الذي سيقلب حياتي رأساً على عقب، الدولارات في جيبي يا للسعادة، والموبايل الأنيق في يدي، انتفضت مجفلة من رنين الموبايل، أتاني صوته حنوناً مستوحشاً: كيف حالك!

وجدتني أصرخ: لو تعرف كم اشتقت لك، إن ما عشت معك يشبه حلماً، حلماً رائعاً.

قال: تأكدي، سوف يستمر الحلم ويصير واقعاً.

هبطتُ إلى الواقع، منخمصة في مقعدي، أمامي أربع ساعات لأحيك كذبتي.

• • •

لم أعد أنا منذ لقائي به، إذ شعرتُ أني أفقد شيئاً فشيئاً صلتي

بالواقع، وأدخل في نفقٍ ضبابي يغصّ بصور تنبؤية لما ستكون عليه حياتي. لم أفهم كيف استطاع رجل في الرابعة والسبعين أن يوقظ فيَّ وهج الأنوثة، صرتُ أشعر أني أكثر دفئاً واستقراراً كما لو أن بذرة حب تشكل في قلبي. حتى وجهي تخلّى عن تشنجه الخفيف الدائم، واسترخت ملامحي، كما لو أنني اهتديت لحلٍ جذري لأسباب قلقي. ولم أعد أنظر لمظاهر الحياة حولي بنظرات ساخطة عابسة، بل غدت نظرتي شاردة ومترعة بنشوة غامضة ولم أستطع سوى الاعتراف لنفسي أولاً، ثم له، بأنه جعلني مفتتنة به دون وصال! الصدفة التي جمعتني به أشعرتني كيف أن الحياة معه تثقفني، وترفعني إلى مستوى راقي من العيش ولقاء أشخاص متميزين ومرموقين، لا تسمح ظروفي بلقائهم.

إنه يسكنني، أحس ذلك من الضباب الخفيف الشفاف الذي يملأ مخيلتي دوماً ويرسم وجهه. آمنتُ أنه مفتاح التغيير، وبدأت أغذّي انجذابي له بإرادتي، وأدمنتُ بسرعة على اتصاله اليومي... ثم سيطر عليَّ شعور بأني على وشك نسف حياتي الرتيبة والتي تفننتُ في انتقادها... شعرتُ بالخوف في البداية. إذ لستُ واثقة أنني مستعدة لإحداث انقلاب جذري في حياتي، لكنني تغلّبت على خوفي من الخوف، وانقلبتُ من امرأة مخدّرة بالحذر والروتين إلى مغامرة مستعدة أن تتعلق بجناحي نسر جامح يأخذها إلى عوالم مجهولة.

لا أعرف كيف برعتُ في تأليف كذبتي، ربما خبرة سنوات طويلة من الكذب أعطتني مهارة.. فما أن دخلتُ البيت محمّلة بهدايا مختلفة هذه المرة، وأنا ألوح بجهاز الموبايل في يدي.

وحرصتُ وأنا أحكي لهم ما حدث معي على الحدود، حرصتُ كعادة الكذّاب، أن تزخرَ كل كلمة من كلماتي بانفعال قوي وتأثر عميق، الإيماء بالأيدي، وتفاوت نبرة الصوت، كلها عناصر جاذبية، لذا فقد

تربعتُ وسطهم على عرش كذبي محاصرة بعيونهم، أمي وأبي وابني أخفي خفقان قلبي، متوسلة لإله يقدّر ورطتي أن يساعدني في إقناعهم! وبالفعل وفّقتُ بقصة مشوقة محكمة، ذلك أني أنا نفسي انفعلت وتأثرت بما أقول! ابتدأت قصتي، بأني بعد أن منعوني من عبور الحدود السورية الأردنية، جلست منهارة على مقعد أنتظر سيارة عائدة إلى دمشق، وكنتُ ألعن حظي وأبتلع دموع القهر، ثم انتبهتُ لصراخ رجل يستنجد بالناس، ويقول بلهفة: أرجوكم ساعدوني.. أريد طبيباً... ولأني ممرضة أثر بيّ طلبه للطبيب بشكل خاص، فاقتربت منه وسألته ما المشكلة فقال متوتراً، بأن الأميرة فقدت الوعي...

كان يقف بجوار سيارة مرسيدس لم أرَ بمثل فخامتها، اخبرته أني ممرضة وأستطيع مساعدته...

كنتُ أتكلم، يشجعني ضياء التشويق في عيونهم، وأنفاسهم التي تسرّعت فيما يشبه الحماسة، توقفتُ لبرهة عن الكلام كي أرى تأثير كلامي عليهم، الأطفال يصدقون، أما الكبار فقد ظهر - كالعادة - شيء من عدم التصديق في عيونهم، لكني لم أكن أبالي لأني لاحظت خلال سنوات طويلة من الكذب، أنهم متورطون مثلي، بمعنى أنهم مضطرون لتصديق كذبي - رغم شكهم الكبير - مثل اضطراري تماماً للكذب، وكنا كلا الطرفين، الكذاب، والمتلقي الكذب، والذين نتبادل الأدوار، مجبرين - بقوى خارجة عنّا - وبعقلية عفنة متوارثة تمنعنا أن نكون صادقين وعفويين، أن نعيش بحالة مزدوجة... الكل يكذب على الكل، ونستمر الحياة...

حكيت لهم بتشويق وبدقة كيف أسعفتُ الأميرة، التي كانت مصابة بنوبة نقص سكر، إذ إنني لحظة رأيتها مغمى عليها، والعرق البارد يتصبب من جسمها، سألت سائقها إن كانت تتناول أدوية ما... فقال

إنها مصابة بالسكري، فطلبت إليه أن يحضر لي قليلاً من السكر ذوّبته في الماء، ورجوت الأميرة أن تشربه...

ثم مسحت وجهها بماء الورد، حتى عادت إلى وعيها..

وتابعت سرد القصة، بأن الأميرة اعتبرتني قد أنقذت حياتها، فأخذتني بطريقها إلى دمشق، ورفضتُ أن أسافر فوراً إلى اللاذقية، فمن عادة الأمراء أن يكرموا الناس. أهدتني الموبايل، وخمسة دولار...

نجحت الكذبة. برافو... لكن الفرح الذي يعطيني إياه الكذب زائف، يعقبه اكتئاب حاد، ونوب من احتقار الذات، أفكّر بالأطفال، ماذا لو عرفوا كم نكذب وبأن أساس حياتنا الكذب؟ ترى هل سيضطرون للكذب علينا وعلى بعضهم، وحين يكتشفون أن كل مواعظنا لهم عن الصدق والأمانة وغيرها من القيم المجردة التي لا نطبق منها شيئاً، هي مجرد كلمات جوفاء، ألن ينهار عالمهم الداخلي النقي والقائم على الثقة بنا نحن الكبار المنافقين... لكن ماذا أفعل إذا كان الكذب هو العملة المتداولة.

فكّرت بشكل مختلف بالناس الذين أعيش معهم، بعد لقائي بالرجل المهم... فكّرت أن أهم صفتين بارزتين في شخصية كل الناس حولي هما، الكذب، والإيمان بالله!

تحديداً ولعهم لحد الهوس بالطقوس الدينية، والإغراق بتفاصيل عن الدين، والحلال، والحرام، وما يجوز وما لا يجوز... وكل ذلك مبطن بنسيج الكذب!! بدت لي تلك الحقيقة مرعبة ومُخزية إلى حدٍّ كبير...

بل لاحظتُ مؤخراً أنهم يبدؤون كذبهم بعبارة: باسم الله الرحمن الرحيم؟! ترى هل يقدّرون الخراب الفظيع الذي يتركه النفاق والازدواجية في حياتهم!! أم أنهم يعيشون دون أن يقلقهم زيف هذا العيش!

صار اسم صديقي الكهل الأميرة السعودية! وحين يرن الموبايل أحرص ان أرفع صوتي وأكلمه على أنه الأميرة عايدة، لدرجة صرت مع الأيام أشعر أني فعلاً قد التقيت أميرة ولأني كنتُ مضطرة لخلق حوارات مع الأميرة أسردها أمامهم بين وقت وآخر فقد صارت شخصية الأميرة راسخة وشبه حقيقية.

كان يحس بالاشمئزاز والقرف من كذبي، لكني رجوته أن يعفي نفسه من التفكير في تلك الحقائق السخيفة... لم يكن يفهم أبداً فلسفة الكذب، ويعتبر أن الحياة عندنا رديئة وفاسدة طالما أنها قائمة على كومة من الأكاذيب.

• • •

منذ لقائي بالرجل الذي هبط في حياتي كمعجزة، لم تعد المدينة سجناً، ولم يعد قلبي سميكاً مثقلاً بالأحزان والخيبات، لم يعد محطماً ومشروخاً بعد تجربة سجني. فاجأني شعور خجول بالسعادة يلفّ كل شيء، وصرتُ أنظر بتعاطف ومحبة لزميلاتي الممرضات في شكواهن الأبدية من شح الراتب، وأتفرج عليهن بعينين مبتسمتين متعاطفتين كيف يسارعن لإخراج أشغالهن ويبدأن بحشو الباذنجان والكوسا وتقطيع الفاصوليا، وغيرها من الأعمال حال مغادرة مدير المستوصف... هن بدورهن استغربن لطفي الصادق، وتعاطفي معهن، وقلن بأنني تغيرت كثيراً، وبأني اختلفت جذرياً عن تلك الإنسانة المتجهمة العابسة التي كنتها أول التحاقي بعملي في المستوصف.

أعرف أني موعودة به، الرجل الذي أحب أن أسميه الخميرة، لأنه وضع بذرة التغيير في حياتي... منذ لقائي به لم ينقطع يوماً عن الاتصال بي، وكم كانت تسعدني لهفته لكلامي، كان مكابراً، قليل الكلام،

ويواري أشواقه وراء ستارة سميكة من العقلانية واللامبالاة. لكني كنتُ أسبُر أعماقه ببساطة وبحدس الأنثى الذي لا يخيب. الحدس ذاته الذي أكّد لي أن هذا الرجل وحده سيكون مفتاح التغيير في حياتي، كان يحتاج الدفء المرتشح من كلماتي، ويحتاج تلك القصص البسيطة والسخيفة أحياناً التي أقولها له، لم أتوقع صدمته واندهاشه العظيم حين حكيت له كيف تخرج الممرضات أعمالهن البيتية وينهمكن بالعمل في المستوصف، يأتيني صوته من البعيد: لكن، لكن، أنتم في مكان عمل، فأضحك ضحكة صافية طالعة من قلبي وأقول: ياه أنت من كوكب آخر.

كنتُ أفكر أني يجب ان أحكم قبضتي حول هذا الرجل، ان اجعله يحتاجني ويعجب بي، الا يتمكن من الاستغناء عني، وتأملت طويلاً الاحتمالات الممكنة لعلاقتي معه وأدركت بعمق أني لو رغبت لركزت على مشاعره الأبوية تجاهي، في الواقع كان مهذباً جداً وحنوناً وخجولاً أيضاً، وكان بإمكاني أن أغذّي هذه المشاعر عنده، وأبادله حناناً صافياً ورقة وتفهماً... لكن ثمة تشكك صار يزداد كلما أقنعت نفسي أن ما بيننا أشبه بمشاعر بين ابنة ووالدها، لأن أساس الخليقة آدم وحواء والأفعى... وأنا كنتُ أعي الأفعى الرفيعة الرشيقة المتلوية بالرغبة في أعماقي وكنتُ عارفة أنه خلف ستار تهذيبه ورقته معي، ثمة رجل مثقل بالرغبة للمرأة ومتعطش لارتشاف أنثى إلى أعماقه... حتى لو كان عجوزاً ومريضاً، أحسه مسكيناً حقاً، لأنه لم يخطر بباله أبداً أن مجرد صدفة على الحدود ستغيّر حياته تغيّراً جذرياً، وستنسف وقار سنواته الأربعة والسبعين، وتجعله طفلاً مولعاً لحدّ الهوس بامرأة تخمرت بأحزان مدينة الموت.

بعد سلسلة المحاضرات التي ألقاها في بيروت، في الجامعة الأميركية واليونيسكو عاد إلى منفاه، واشنطن... لم يفوّت يوماً اتصاله

بي، في الوقت المحدد ذاته الخامسة بعد الظهر، أي التاسعة بتوقيته... يأتيني صوته متعباً، مشتاقاً بارداً ظاهرياً، وفي كل مرة أسمع صوته يفرز خيالي الصورة ذاتها بأنه يتمنى لو يرتمي بين ذراعي مستسلماً لمداعبة راحتي الحنونة لرأسه... عجيب أمر الحدس أو الخيال، لأني فيما بعد صار يطلب مني كل يوم أن أداعب زغب رأسه كي يتمكن من النوم...

صوتي يقفز من الفرح حين أتلقى هاتفه، كل كلمة أقولها تبهره وتسعده، والأهم يحتاجها كما لو أنه يمتصها أو يلصقها فوق شقوق روحه الكثيرة بسبب حرمانه من العاطفة، رجل يتغذى على الأفكار فقط، تجفف من نقص العواطف، لذا فحين كنتُ أصرخ عبر الهاتف الصغير اشتقنا اشتقنا، متى سأراك، أحس بأنفاسه الخافتة المنفعلة تتسرّب عبر الهاتف، وصوته المرتجف الذي يصلني بعد حين، قريباً.

ثم صار عليَّ أن ابتدع أساليباً لجعله ملتصقاً بي أكثر وأكثر... وبدأت مرحلة الأسر كما أسميها، لأني لم أتوقع أن رسائلي التي أغزوه بها عبر الفاكس ستلوّن يومه وحياته وتجعله مدمناً على كتابتي، في الواقع لم تكن لديّ خطة مسبقة بأن أكتب له، لكني أرسلتُ له رسالة رقيقة في عيد ميلاده الخامس والسبعين، رسالة ترشح بخبث مبطن، فقد بدأت الرسالة بأني جالسة في مقهى بحري بسيط، أدخن الأركيلة وأشرب عصير الجزر، وفي حضني أحد كتبه الرائعة ـ في الواقع لم أكن مفتتنة بكتاباته ـ وبأني أفكر به، ووجهه يرتسم على صفحة المدى الأزرق، وأتمنى لو كان بجانبي، وبأني سأنتظر أربع ساعات كي أسمع صوته، وأحس بحزن لأني لستُ بجانبه في عيد ميلاده، ولا ينفك خيالي ينسج عشرات الصور فيما لو كنا معاً وكنتُ سأسمع لنفسي أن آكل الحلوى اللذيذة، وأقدم له الهدية التي اشتريتها منذ أيام و... لا أذكر تماماً ماذا ثرثرت، وبأي أسلوب مشبع بالعواطف والإغراء المبطن

نسجتُ كلماتي... وحين قرّرتُ في آخر الرسالة أن أكتب تلك العبارة (أقبلك بلا تحفظ) شعرتُ أني نسفت آخر ذرة مقاومة يمكن لمفكّر رصين وموغل في الوحدة أن يتمسك بها...

لم أتوقّع التأثير المدوي لكلماتي الأشبه بألغام، ما إن يلمسها ويقرأها حتى تتفجر حروفاً وأشواقاً ملتهبة في روحه... اتصل بي أبكر من موعده بساعة، وبدا صوته مرتعشاً رغم محاولاته أن يبدو طبيعياً، قال إني فاجأته وسألني كيف عرفتِ أن اليوم عيد ميلادي؟ تصنعت ضحكة غنج وقلت من الكتاب، سأل: أي كتاب، قلت كتاب مذكراتك. صمتَ، باه مَن مثل الصمت ينقل ذبذبات المشاعر، كان يتعبّد في محراب امرأة قوّضت بمجرد رسالة حصانةَ عمرها خمسة وسبعون عاماً... لم أكن أحتاج لأي إثبات ولا لأن أعمل التفكير بحالته، لأدرك أنه أسيري، وبأنني غدوت دنياه التي يتشبث بها بكل طاقته، وبأني آخر حلم له وهو في شتاء عمره.

خرقتُ الصمت وسألته: هل أعجبتك الرسالة.

وبعد صمت طويل قال: أنتِ مذهلة، امرأة رائعة، خسارة أنك تعيشين في مزبلة.

جرحتني عبارته، لكني لم أشأ أن أشوّش ما بدأناه، فقلت بخبث واضح: ألم تزعجك أية عبارة فيها.

قال باستغراب: أبداً، لِمَ تسألين.

كنتُ أريد أن ألفت نظره إلى العبارة الأخيرة: "أقبلك بلا تحفظ"، لكن يبدو أنه لم ينتبه، فأتتني رغبة خبيثة أن ألفت نظره إلى تلك العبارة، طالما أنه بَعُد كثيراً عن لغة الحب والإغواء، وتحنّط في الأفكار والنظريات لسنوات طويلة قلت وأنا أتظاهر بالارتباك: في الواقع، أقصد ربما، أوف ببساطة، ما كان يجب أن أكتب الجملة الأخيرة.

أظن أن الرسالة ترتعش في يده، لأنه قرأ للتو: أقبلك بلا تحفظ، ضحك ضحكته القصيرة الواهنة، كما لو أنه يخجل من الضحك، أو لعل الضحك غريباً عنه وليس من طبيعته وقال: على العكس، أتعرفين، هذه أروع هدية تلقيتها في حياتي على الإطلاق. لكن هل لي أن أطلب منك طلباً.

قلت بحماسة: أنتَ تأمر...

- اكتبي لي دوماً... وبعد ترددٍ قال أرجوك.

قدّم لي طرف الخيط، وكشف لي نقطة ضعفه، حاجته لكلماتي الدافئة، حاجته الماسة لأنثى تغمره بدفئها ما تبقى له من سنواته القليلة، رجاني أن أكون شهرزاده.. آمنتُ أن المرأة تسيطر على الرجل وتأسره ليس بسحرها الجنسي والعاطفي، بل بقصصها. شهرزاد قوّضت جبروت ملك، لوت ذراعه، ونفّذت ما أرادت، وهذا المفكّر الذي عاش عمره أكاديمياً مدججاً بنظريات معقدة فلسفية، وكتب كتباً تبحث في أزمات الشعوب والحريات وتحرر المرأة، عاش مغيّباً عواطفه تجاه المرأة... إنه الآن كومة من قش جاف إنه أشبه بأرض مشققة من العطش تحتاج لمن يسقيها...

المتعة الكبيرة التي كنتُ أحسها، ليس بسبب أن هذا الرجل صار وعداً مؤكداً في حياتي بحتمية التغيير، ونسف كل التفاهة والقهر والبؤس التي غرقت بها طوال عمري بل لأنه نبهني لطاقاتي الكامنة المنسية في نفسي، فأنا قادرة أن أبلبله، أن أجعله أسيري، أن يلهث متعطشاً لكلماتي، صار يطالب أن أرسل له رسائل من وقت لآخر وحين كنتُ أتقصد التأخر في إرسالها كان يغضب لأنه يخجل أن يتوسل واعترف لي أنه يقرأ رسائلي مراراً، ويدسّها في جيب قميصه ويقرأها في المكتب وبأنه لم يقرأ يوماً رسائل بمثل تلك الشفافية والإدهاش والروعة، وبأنني

أتمتع بحس إنساني نادر، وحس فكاهة وسخرية أيضاً... كنتُ أنصت لكلامه وأنا أتذكّر ذل السجن وعار سنوات التعهر والفساد ونهب المشفى... ترى هل سأتمكن ذات يوم أن أبوح له بماضيّ؟! لا، لا أقدر، ليس لأني أخشى أن يبتعد عني، فأنا واثقة أنه لن يفعل لأنه يقدّر تماماً الظروف الطاحنة والوحشية، ويعرف كيف يدفع القهر والحرمان البشر لسلوك هم أبرياء منه...

لكني لن أبوح له بماضيّ، لأني أريد أن أظل الفراشة النقية بذهنه، لا أريد إرباكه وتشويش متعته، متعة رجل عجوز، هبطت عليه معجزة لم يتوقعها أبداً، أن تحبه امرأة شابة متخمة بالعواطف.

صار لأيامي معنى، انتظار هاتفه اليومي، ولم أقدّر مزايا البعد، الذي يعفينا من صدمة الحقيقة، فقد أنساني البعد شيخوخته وجَعَلَه رجلاً محباً دافئاً... كنتُ أحس باشتعال الرغبة في داخلي حين أسمع صوته المخملي الفخم، وهو يبادرني بعبارته المعهودة كيف الأمور؟ كنتُ أضحك من هذا التعبير وأسأل: أية أمور... ثم صرتُ أقلّده وأسأله بدوري: كيف الأمور... ويعدها يتدفق الحديث... أحس كيف يتذوق كلماتي كما يتذوق بمتعةٍ عالية النبيذ الأبيض، المشروب الوحيد الذي لا يؤذي معدته... ثم لاحظت أنه ـ وبحذر شديد ـ بدأ يخطط لنلتقي، سألني أية بلاد زرت أجبت بسخرية مرّة: لم أسافر أبداً، لم أتخطى حدود سجني، والمرة الوحيدة التي كنتُ سأسافر فيها إلى عمان لحضور عرس صديقتي ثمّ إعادتي عن الحدود.

يقول متفاجئاً: عجباً، إنسانة مثلك تملك كل تلك الثقافة والحساسية، لم تسافر أبداً.

أصرخ: أبداً، أبداً، أبداً، أنتَ لا تفهم معنى أن يعيش الإنسان في قفص.

كنتُ أستغرب كيف يستطيع أن يكتب كتباً تدرّس في الجامعات عن شعوب العالم الثالث، وعن القهر وانعدام الحريات والفقر والعنف في العالم العربي، وعشرات المقالات عن القضية الفلسطينية، وهو عاجز عن فهم حياة موظفة يذلها راتب الاحتقار ويمنعها من السفر!! ثمة حلقة مفقودة في سلسلة تفكير هذا المفكّر... المفكّر الحقيقي هو الذي يظل على صلة بالناس، بالشارع، بالمقاهي، بالتفاصيل اليومية مهما كانت سخيفة... عليه أن يعاني من انقطاع الكهرباء، وضجيج الشارع وأن يستمع لشكاوى الأهل من فساد التعليم، وأن يعرف ماذا يعني الا يتمكن موظف أن يطعم أولاده اللحم إلّا مرة في الشهر.. المفكّر يجب أن يلتصق بالناس، وبعد ذلك يشيّد نظرياته... أما صديقي الذي يعيش في الضفة الأخرى من العالم في بيت مؤلف من ثلاث طوابق، بيت مترف، ويقود سيارة فاخرة، ويذهب إلى الجامعة ليحاضر في الطلاب، ويتابع الأخبار من خلال شاشة، ثم يكتب نظرياته، فثمة خلل فظيع في إنتاجه...

ثبت لي ذلك حين صرت ألاحظ كم يبلبله منظر متسول في الشارع، كان يصرخ غاضباً بالمتسولين كما لو أنهم مسؤولين عن تشويه المدينة وإقلاق راحته، وتشويه الصورة التي رسمها للعالم...

لكن، أليس هذا الرجل نعمة... أستنطق جسدي منذ لقائي به، أستنطق جسدي لأتأكد من عواطفي تجاه الرجل الذي وضع خميرة التغيير في حياتي، ثلاثة أشهر مرّت على لقائي به، صار لحياتي معنى، انتظار هاتفه اليومي، وعوده أننا سنلتقي في بيروت وواشنطن وباريس، أحس أنه من نعم الحياة عليّ، يا،، لا يوجد ما هو أكثر روعة من أن يحبّك قلب كبير، ووسط نظرات الشك لأمي وأبي، كنتُ أحس بسخرية ولامبالاة من مشاعرهما، وأحس كيف يشتعل قلبي مندفعاً نحو ضياء

بعيد. نسيتُ أن هذا الرجل عجوز بعمر والدي، إنه كيان كبير، حنون، محب وقادر على تغيير حياتي... أحسه انتمائي، كما لو أن حياتي سهم متجه نحوه، هل صرتُ حقاً أسيرة عاطفة جياشة هي أقرب للامتنان منها للحب، أختبر كم غدوت رقيقة، أرشح بالرضى والسعادة، سعادة بسيطة عذبة، كضحكة طفل، كتمايل وردة في حديقة. إن هذا الرجل يعني لي وعداً بحياة أفضل، وحين أخبرني أنه سيكون في بيروت في أوائل شهر نيسان، وبأنه حجز لي غرفة في فندق جميل، وسيعرّفني بأصدقائه... انتابتني حالة من هياج الفرح... بيروت، بيروت، هل سأزور بيروت حقاً، ياه هذا الرجل يستحق أن يُحبّ، ما همّي إن كان عجوزاً، فأنا أصلاً أعيش وحيدة، لا يوجد رجل في قلب حياتي.

• • •

بيروت

قبل سفري إلى بيروت بأيام، انتابتني حالة غريبة من هياج الفرح، لم أكن أعرف أن الفرح مرهق لهذا الحد، ولم يعد شوقي له كشعور لطيف مستمر، بل صار كالقصف، كنور مبهر يحرق، ويُبهر بومضات متقطعة، أعلنت أمام والدي أنني مدعوة عدة أيام إلى بيروت لزيارة الأميرة السعودية. . . هل صدقوا؟ لا يهمني فأنا مستعدة أن أشيّد عالماً من الأكاذيب كي ألقاه.

لم أنم تلك الليلة السابقة لسفري، عشت ساعات شاقة من الانفعالات العنيفة المتناقضة والمتضاربة، تتقاذفني مشاعر بين فرح شديد إلى قلق عظيم، أتأرجح بين التفاؤل والتشاؤم، أهنئ نفسي على علاقتي مع الكهل المشهور، وألومها بأن ما أفعله هو أكبر ورطة سأورّط بها نفسي.

حملتُ حقيبتي الصغيرة العتيقة، وبقلب عاشق يخفق بالإثارة جلستُ قرب السائق الذي سيوصلني إلى بيروت التي سأزورها لأول مرة في حياتي.

هل أصابتني بيروت بصعقة الحب حتى قبل أن أدخلها؟ بالتأكيد، وإلّا كيف أفسّر إحساسي أني مسحورة من كل ما تقع عليه عيناي، السيارة تطوي الطريق بمحاذاة الجبل الموازي للبحر، الجبل المزروع ببيوت جميلة متناثرة، تمثال العذراء مريم الشامخة فاتحة ذراعيها لاحتضان البشر جميعاً، لتشفيهم من أهوائهم وتصالحهم مع بعضهم. . .

أتأمل تمثال العذراء بوَله، تدمع عيناي من دفقات الحب في قلبي، أرجوها أن تساعدني في تحمّل الانقلاب في حياتي، مسحورة بخيم الفجر البائسة، وحبال الغسيل المثقلة بثيابهم الملونة والعتيقة، أتذكر قصيدة محمود درويش "وطني حبل غسيل" أنتبه لروعة هذا المعنى، بدا كل شيء هشّه خلف ظهري تماماً، وحين قرأت عبارة: يا سيدة لبنان صلّي لأجلنا، انهمرت ببكاء لم أستطع السيطرة عليه، بكيتُ لأني وعيت دفعة واحدة بؤس حياتي وقبحها، سنوات القهر والاختناق، ساعات الدوران والتسكع في شوارع وأزقة قذرة... الشجارات العنيفة التي تستنزف قواي مع أهلي، والمرات التي لا تحصى التي كنتُ أهجّ من البيت حاملة صغيري البائس، لتوه في الشوارع أو نقصد الحديقة البائسة والتي لا تضم نبتة خضراء، بل بضعة ألعاب مخلّعة، وجيوبي الخاوية دوماً، وأحقادي على شح الراتب ومشاعر الحرمان المديدة التي زجتني رغماً عني في غواية نهب المشفى، والوجوه الكريهة لقاسم، وطريقته في إعطائي المال بعد أن أسلّمه الأدوات والخيوط الجراحية، إصراره أن يرمي لي رزمة المال كما نرمي عظمة لكلب... كم بدت حياتي بائسة ومهينة وأنا محاصرة بهذا الجمال الساحر، الذي جعل عينيَّ تدمعان من شدة التحديق، أخشى أن أرمش كي لا أفوّت منظراً... آمنتُ أنه لا يمكن لإنسان أبداً أن يقيّم ما عاشه إن لم يصبح خارجه.

كان وجه ابني يرتسم أينما نظرت، رأيت تمثال العذراء مريم يحتضنه، ورأيته يلعب مع أطفال الغجر، رأيته في زوارق الصيادين، أعبد هذا الصغير، وأحزن أني مضطرة للكذب عليه، لكن هل يمكن أن أبوح له بالحقيقة بأني ذاهبة للقاء رجل في عمر جده يجمعني به هوى ملتبس، هوى يتوس بين أن أكون كائنة أو كشيفة؟!

ياه، هل يعقل أن أصرّح بحقيقة أفكاري لصغيري... لقد وعدته أني

سأحضر له الكثير الكثير من الهدايا، لكنه ابتسم قائلاً: لا تطيلي الغياب.

حين توقف السائق أمام فندق روتانا جيفينور صعقت، سألته: هل انت متأكد أن هذا هو الفندق؟! لعل هناك فندقاً آخر يحمل هذا الاسم...

ضحك السائق وقال: لا يوجد في بيروت سوى روتانا جيفينور قرب الجامعة الأميركية.

لكن أي حلم مستحيل هذا؟! هل حلمت يوماً أن أدخل فندقاً مُترفاً كهذا؟!

موظفة الاستقبال الأنيقة رحّبت بي، وأكّدت أن هناك حجزاً باسمي، رجل أنيق يتقدم مني ويحمل حقيبتي، المصعد الأنيق يبث موسيقى رومانسية ويرشح بعطر الصنوبر.. تذكرتُ المصاعد في مشفى القنارة، رائحة القمامة وزنخ الطعام الرديء تفوح منها، وغالباً ما تكون متعطلة!. ومن شرفة غرفتي في الطابق السابع تأملت بيروت بافتتان وعشق، كما لو أن شخصية أخرى عاشقة تقمّصتني، هل عشتُ في عمرٍ مضى في هذه المدينة؟! وإلا ما سرّ هذا الهوى الملتهب الذي يدفع الدموع إلى عيني!

سيصل الثامنة مساءً، أمامي وقت طويل لأرتاح، فتحتُ حقيبتي لأعلّق الفستانين الأنيقين اللذين استعرتهما من صديقتي، تذكرت الوجوه التي أحبها وأهرب منها.

تداعى كياني فجأة، وجلست على السرير العريض وانهمرتُ بالبكاء، بكاءً مبطناً بإحساس غامض بالفجيعة، بكاء قلب مجروح، وروح تتألم من الكذب... كيف أقول لهم إني في زيارة للأميرة؟! أية مهزلة هذه؟ أبكي قرفاً من كذبي ومن نفسي... أم لعلني أبكي من

التعب... غرقت في النوم بعد عاصفة البكاء، نوم عميق، لا أحلام ولا كوابيس فيه. أيقظني إحساس بالجوع، لكن توتري زال تماماً، وبدأت أستوعب المعجزة التي أعيشها... ومن لائحة أنيقة بجانب السرير عرفت أين المطعم...

دهشت من الترف والتنوع في الأطعمة، عذبتني شراهتي، كنتُ ألتهم دون مضغ يُذكر كميات هائلة غير متجانسة من اللحوم والأسماك والحلويات، ووجوه أحبائي هناك تلوّح من البعيد، كما لو أنها ترمقني عاتبة... أكلتُ كوحش جائع، واجبرتُ نفسي ان اتقيأ كل ما أكلته، ثم عدتُ بعد ساعة لأكل إنما بشكل معقول.

جلست في ركن من الصالون الفسيح للفندق، أستمع لعازف غيتار وطلبت كأساً من البيرة... وحين حلّت العتمة وجدتني أهوي في قنوط غريب، أشعرني هذا الفندق المُترف كم أنا غريبة ودخيلة، فهذا المكان لا يشبهني في شيء، وأنا اعتدتُ على أمكنة تشبهني، بسيطة وفقيرة ومُضجرة لكنها تشبهني... فكّرتُ بالرجل الذي انتظره كم أحسستُ بنفور منه، من هذا الغريب؟! أي جنون أن أقبل دعوته، تذكرتُ يوم أعطاني الألف دولار، والموبايل... والأشهر الثلاثة المشحونة بالأحلام والأوهام! ما الذي قذفني إلى بيروت سوى الوهم، سوى الهروب؟ يا للورطة! يا للورطة!... كنت أعنّف نفسي بلا رحمة وأصرخ بألم: أيصل بك التهور يا مجنونة أن تسافري إلى بيروت للقاء عجوز! رجل التقيته صدفة، ساعدك بلباقة، فبنيت أحلاماً وورطت نفسك في قصة غريبة!! يا إلهي كم أنا مُضللة؟! لم أستطع إخراس هذا الصوت المؤنب إلا حين رأيت سيارة كحلية تتوقف عند مدخل الفندق، ويترجل منها كهل مربوع القامة مقوّس الكتفين، يضع قبعة أنيقة على رأسه، انتفضتُ كأن أفعى لسعتني وأنا ألهث: أهذا هو! أهذا هو! ياه كم هو عجوز... فكّرت

أنني خلال الأشهر الثلاثة حين كان يتصل بي يومياً، كان خيالي يقوم بإكساء صوته قامة رجل شاب، أما الآن فالحقيقة تصفعني، تمنيتُ لو تنشق الأرض وتبتلعني.. هربتُ من نفسي بالركض نحوه، ربما أردت أن أتأكد أنه حقيقة، فتح ذراعيه لاستقبالي، غزتني رائحة أعرفها، أحفظها، أخزنها في أعماقي، أحتاج كل فترة أن أفتح نوافذ روحي كي أطردها، غزتني رائحة لا أخطئ فيها: رائحة الشيخوخة.

تأملتُ وجهه بحرية وهو يقدم جواز سفره الأميركي لموظفة الاستقبال ورغم المودة التي ترتشح في قسماته، فإن وجهه خالٍ تماماً من الفرح، فيه شيء من قسوة، ربما تلك القسوة التي يملكها المفكرون.

سألني إن كانت غرفتي مريحة...

ضحكت طويلاً، فكّرتُ أن أردّ عليه ساخرة: أتعرف لم أحلم يوماً بدخول فنادق بهذه الفخامة.

قال لي بأنه حجز لنفسه جناحاً مؤلفاً من غرفتين وصالون، لأنه سيستقبل الكثير من الأصدقاء: وسيكون له معهم عملٌ مهم.

فكّرتُ أنه ثري كما يبدو، والتمعت فكرة خبيثة في عقلي: هل سيكون لي حصة من ثرائه؟ زجرتُ نفسي على طمعي، طلب إليّ أن أنتظره ريثما يضع حقائبه في غرفته.

تأملت مشيته البطيئة، وكتفيه المقوستين، والنادل الذي ناداه يا عمّ...

عدتُ إلى كأس البيرة، جرعت ما تبقى منه بجرعة واحدة، وأنا أتساءل بقلق: ما الذي ينتظرني؟

• • •

كنت أجد لذة عظيمة في انجذابه لي، كم يرضي غروري أن يتعلق

بي رجل مشهور، ترى ما الذي يجده فيّ؟ لكني رغم اطمئناني له ورغبتي بالانتماء إليه، إلا أني أخشى شيئاً غامضاً فيه. إحساس مبهم بالخطر يداهمني من وقت لآخر، كما لو أن نبوءة شؤم سوف تتحقق بيننا.

لا أنسى تلك النظرة الطويلة المُتعبة التي تأملني بها حين سألته: ماذا أعني لك؟ نظرة رجل متعب وحيد، مرهق بالشيخوخة تطل من عينين فقدتا بريق الشهوة للحياة وللأنثى، عينين تقصفت معظم أهدابهما، وتجعد جلد الأجفان... نظرة تعني أني الدفء الذي سيبدد صقيع شيخوخته وأني فرحه الأخير قبل أن ينتقل لعالم الموت القريب جداً.

أسبوع قضيته معه في بيروت أحسسته دهراً، سميته أسبوع المخاض، لأن كمّ التحولات والاكتشافات التي عشتها تعادل خبرة سنوات - كما قدّرت - أية نعمة أني التقيت رجلاً حياته غنية كل هذا الغنى، رأيتُ برفقته بعلبك وجبيل، وفاريا، وضهور الشوير، وصيدا، وصور، كل يوم ننطلق - أنا وهو - مع شلّة من أصدقائه إلى أحد الأمكنة - نزورها - ثم نتغدى في مطعم فاخر، ونعود مساءً إلى الفندق، نرتاح قليلاً ثم نخرج للعشاء مع مجموعة من الأصدقاء... كنتُ أخزّن كل شيء إلى داخلي كي أستعيده على مهل فيما بعد، حين أعود إلى مدينة التحنيط، ولأني عاجزة عن استيعاب الأحداث والمشاعر الكثيفة التي أعيش في قلبها... أحياناً أجدني أصرخ، ما الذي يجري، ما الذي يجري!!.. هل حقاً أعيش هذا الترف الرائع... أتأمل وجهه بين أصدقائه، ما الذي يدهشني في وجهه، ربما تعبيره الذي ينمّ عن فخامة وثقة بالنفس، وأنا لم أعد أتعرّف وجهي، أحسه غريباً عني حين أتأمله في المرآة، ثم لم أعد أعرف إن كان يسعدني أم يشقيني أنه يتأملني بوّله!

لم يعترف لي أنه يحبني، ربما لأنه يجد الكلام سخيفاً، أو لأن سنواته التي تتجاوز السبعين تفرض عليه رصانة من نوع ما، لعله يخشى

أن يبدو مضحكاً وهو يقول: أحبك...

كنا كل صباح ومساء، نتبادل قبلات على الوجنتين، أحس باحتكاك وجنتي الصلبتين الحارتين، بوجنتيه الرخوتين الفاترتين، كنا نقف في منعطف، أو مأزق، كلانا ينتظر ما سيأتي، أو الشكل الجديد لعلاقتنا، وكلانا لا يجرؤ على الإقدام...

اعترف لي ذات مساء، بعد أن شرب كأس النبيذ الثالثة، بأنه عنين، وبأنه خضع لعملية استئصال البروستات منذ عشر سنوات، وبأنه يعاني من سرطان الدم، لكن الأطباء يطمئنوه بأنه من النوع الذي يتطور ببطء شديد وبأنهم يحكمون السيطرة على المرض. أحياناً تباغتني أسئلة من نوع: شابة في حيويتك وجمالك، كيف لا تكون على علاقة مع رجل يوازيها في شبابها وحيويتها؟! أضحك ساخرة وأقول: لا يوجد صدقني لا يوجد.

يهز رأسه متأسفاً: هذه جريمة، فالحب والجنس فرح، فرح كبير.

أبتلع غصة قهر، وأطلب إليه بيرود أن يغيّر الموضوع.

كان يسألني أسئلة شديدة الخصوصية عن حياتي، ليس بدافع الفضول، والتلذذ بمعرفة تفاصيل حياتي، بل لأنه يحبني ويرغب أن يعرفني أكثر، وأنا - وسط دهشة نفسي - وجدتني لأول مرة في حياتي لا أكذب أبداً، بل أقول الحقيقة عارية حتى دون أن أغطيها بورقة التوت...

• • •

فكّرت قبل أن أستسلم لسلطان النوم، أن الصدق والكرامة وجهان لعملة واحدة، كنتُ سعيدة، أحس بالامتنان والاحترام لنفسي التي اختارت الصدق، ولم أجد في كل ما قلته ما يسيء إليّ وينقص من قدري... لكنه رجل عظيم في الواقع يقدّر اعترافات امرأة... أحسستُ بألم وضياع وأنا أتخيل أننا غداً مساءً، سنفترق، هو سيطير عائداً إلى

واشنطن وأنا سأرجع إلى مدينة التحنيط، وحقيبتي منتفخة بالدولارات، يا للباقته حين يعطيني مالاً. لي ظرف أنيق قدّم لي ألف دولار، قائلاً إنها هدايا لابني، أما هداياه لي فمؤثرة لدرجة البكاء... عطور ماكياج، شال حريري، قبعة رائعة من الشامواه، أغاظه ضحكي، حين علّقتُ بأننا هناك لا نلبس قبعات. فهزّ رأسه متأسفاً كعادته حين يرغب أن يعبّر لي عن احتقاره للعقلية ونمط الحياة هناك.

فأجابني ظهراً ونحن نتناول الغداء معاً، ونتفق على موعد لقائنا الثاني، وأؤكد له أن لا داعي للقلق عليّ، وبأن السائق سيمر بي السادسة مساءً، وبأنه رجل مهذب وحذر في القيادة... فأجابني بجملته المعترضة القصيرة: أتقبلين الزواج مني؟ أنتِ الآن كل حياتي، صدقيني، وإن لم تقبلي فلن أزعل، فأنت لا تزالين شابة وجميلة، وتستحقين أن تتزوجي رجلاً من عمرك، لن ألومك إذا رفضت، وسنظل أصدقاء... لكني فكّرتُ بك طويلاً، وبالتجارب المهينة المقرفة التي مررتِ بها، فكّرتُ أنه يليق بك أن تعيشي مستوى آخر من الحياة، مستوى راقٍ يليق بك... أمامك أشهر لتردي عليّ أؤكد لك أني لن أزعل من رفضك وسنظل أصدقاء...

لبثت لحظة تحت وطأة الصدمة، لدقائق عجزتُ عن التنفس، لكأن كل ما بيننا مجرد تمثيل أو لعب... أيطلب مني الزواج حقاً هو الذي صرّح لي أنه عنين وبلا بروستات! هو المصاب بسرطان الدم! ثم هو المفكر المعروف بوضوح ذهنه وثورية أفكاره، والأهم المؤمن بتحرر المرأة ومساواتها تماماً مع الرجل!! غريب أن اللحظة التي أعيشها أغرب من حلم! ماذا عليّ أن أجيب، استبد بي غضب أخرس، تمنيتُ لو أصرخ به كيف تطلبني للزواج وأنت عاجز! ألم تقل لي بعظمة لسانك أنك عنين ومريض؟! ألا تتوقع أن أخونك إذا تزوجتك! أم أن ذلك لا

يهمك؟ فهو محكوم بسعادة الوهم! لم يعد يملك سوى حفنة من الأيام، يتمنى أن يعيشها متدفئاً، حتى لو كان الثمن سقوطه في براثن الأوهام الرومانسية!!

لكن لِمَ كل هذا الغضب والإحساس بالمهانة، إنه رجل واقعي يعرض لي كل امتيازات حياته، يحق له أن يُحب وأن يستدفئ بحب امرأة... الحب مشروع للإنسان في كل عمر، وليس حكراً على الشباب... سخرتُ من نفسي: أرأيتِ ماذا قدّم لكِ حب الشباب من إهانات لا تخطر ببال.

ما الذي سينقصني إذا تزوجته، الحب والجنس!! وهل عشتهما بشكل لائق وإنساني هناك ألا يعني ارتباطي به، رفع حياتي من مستوى إلى مستوى... هل أفوّت فرصة نادرة، الزواج برجل قادر على فتح كل الأبواب الموصدة... ما عدا باب قلبي.

ألِلى هذا الحدّ يهمّ القلب؟ كم من العِبر استخلصتها من قصص الناس الذين سمحوا لقلبهم أن يقودهم، فتدمروا... لكن، يا إلهي إنه عجوز، عجوز جداً.

• • •

تزوجته بعد تفكير طويل ليس فيه، بل ببيروت التي لم أعد أقوى على بعدها والتي تفجّرت فيّ حيوية هائلة وحماسة لأشياء رائعة كدت أنساها، تزوجته لأني أردت أن أتزوج بيروت.

استنكر أهلي قرار زواجي من رجل يكبرني بأكثر من ثلاثين عاماً، ولم يكن بإمكاني تزوير عمره، لأن شخصاً مرموقاً مثله عمره معروف من خلال كتبه والمقالات التي كُتبت عنه، رفضتُ أن يأتي إلى مدينة البلادة، لا أريد أن يراه أحد من الجيران أو الأقرباء، سأعفي نفسي من

تعليقاتهم اللئيمة: انظروا عريسها العجوز.

أكثر ما يهمني ابني، رجوته أن يفهم أن ارتباطي بهذا الرجل العظيم ليس زواجاً بالمعنى التقليدي، بل هو تحسين لمستوى حياتنا، وبأنني سأنقله إلى أفضل مدارس بيروت، لكنه رفض بشدة أن يترك مدرسته ورفاقه، رفض أن يفترق عن جده وجدته فهما الأسرة والأمان، ولن يعني له شيئاً هذا الغريب العجوز الذي أريد الزواج منه، ولم تفلح كل الإغراءات التي قدّمتها له في إقناعه، قال إنه لا يحق له أن يعترض، لكن عليّ الا ارغمه أن يغيّر حياته، ولم نجد سوى الحل الوسط، أن أزوره كل أسبوع وأن يزورني في العطل المدرسية، ورغم إحساسي بألم الانسلاخ الذي لا يعادله ألمأ عن ابني، إلا أني لم أستطع أن أدير ظهري لبيروت، كنتُ متكهربة بهوى عنيف نحو مدينة الحرية، المدينة التي أحيتني من رمادي، وكان العجوز مفتاح بيروت، خاصة بعد أن قرّر أن يعيش ما تبقى من عمره فيها، واستأجر بيتاً ساحراً في منطقة رأس بيروت، بيتاً فسيحاً بديعاً أقرب للسماء منه للأرض، أينما تحركت فيه أرى بحر بيروت الساحر، ومن إحدى شرفاته أطلّ على شارع بلس الصاعد بقوة باتجاه الجامعة الأميركية...

حين سافرت إلى بيروت وحيدة ليعقد قراني على المفكّر العجوز، كان قلبي يخفق بهوى عظيم لكورنيش بيروت، ولمنارتها التي تمسح الفضاء بشعاع من حنان لسوبرماركت أبو خليل، لشارع الحمرا، لمقهى دبيبو، للروشة، لمحلات الأشياء الرخيصة المستوردة من الصين، حتى لحاويات القمامة... كان قلبي مثقلاً بهوى كل شيء في بيروت، ما عدا الزوج العجوز.

• • •

ليلة الدخلة!!

في زاوية معتمة في ذاكرتي، أحاول طمس صور ليلة الدخلة، لكن كلما أصررتُ على طمسها تتألق بتحدٍّ كبير، كما لو أنها مشبعة بمادة مشعة... يُفترض أننا عروسان، وجناح فخم محجوز باسمينا في فندق الميريديان في بيروت، قلبي منقبض بشدة، أسمع صوتاً هامساً يرتد إلى ما لا نهاية عبارة: أهنا زوجك! أهنا زوجك! تُدخلني هذه العبارة أكثر فأكثر بشيء من عدم التصديق! أول شيء قام به حين اختلينا في الجناح المُعدّ كل شيء فيه لراحة عروسين، أنه أخرج من جيب بنطاله علبة صغيرة تحتوي على أقراص زرقاء، ابتلع حبتين، وقال لي بصوت مُطفأ، ودون أن تعبر وجهه ابتسامة وملامحه تعبّر عن جدية هائلة: هذه حبوب الفياغرا، هل سمعتِ بها!!

أحسستُ بما يشبه الصدمة، لكني سيطرتُ على صوتي، وحاولتُ أن أبدو سعيدة، قلتُ: بالطبع سمعتُ بها...

قال بصوته الذي لا يحملُ أي انفعال: سنرى إن كانت فعالة.

وجلس بكامل ملابسه مقابل التلفاز، يقلّب المحطات، حتى استقر على حوار سياسي ساخن يناقش حق العودة للفلسطينيين.

كنتُ مأخوذة كلياً بفخامة الفندق، ومصعوقة من المفارقة الرهيبة بين تلك الفخامة التي تفتح الشهية للحياة والحب، وتوقظ الغرائز التي عاشت طويلاً في غيبوبة، وبين هذا الرجل الميت الروح المأخوذ كلياً بالبرنامج السياسي، والذي ينتظر الفعل السحري لحبتي الفياغرا!!

ماذا سأفعل في هذه الورطة؟ الشيء الوحيد الذي كنتُ متأكدة منه أن عليَّ تأجيل مواجهة ذاتي وأحاسيسي، لأن لحظة تقييم ما يحدث لم تكن قد حانت بعد.. فأنا في قلب الورطة، متورطين - هو وأنا - في ترقب الفعل السحري للفياغرا.

وجدتني أتذكّر ذلك اليوم البعيد، حين سافرت إلى دمشق، واضطررتُ للمبيت في فندق حقير، يقع في زقاق قذر، بناء الفندق قديم، بسقف عالٍ ونوافذ مُخلّعة من الخشب، ورائحة عفن متخمّرة في الجو، رغم علب معطرات الجو المتناثرة في الزوايا. وكل عدة غرف مشتركة بدورة مياه، والغرفة بعشرة دولارات لي الليلة. لسوء حظي كانت غرفتي قرب المطبخ، وعليَّ كي أقصد الحمام أن أجتاز الصالون والمطبخ حيث ينحشر الخدم الفضوليون، يراقبونني بعيون وقحة، ونهمة. المرحاض وسخ ومقرف، بابه عبارة عن لوح خشبي عتيق مرتفع عن سطح الأرض ما يكفي بسهولة كي يتلصص أي فضولي قذر.. لذا وجدتُ نفسي مضطرة للتأقلم مع هذا الوضع المُخزي، وصرتُ أتبوّل في المغسلة العتيقة في الغرفة، أحضر كرسياً، أقف عليه كي أتمكن من التبول في المغسلة، متحاشية مواجهة صورة وجهي المنعكسة في مرآة مكسورة وعتيقة.

لا أفهم لماذا عاودتني تلك الذكرى المُهينة بهذا الوضوح العاري، وأنا جالسة بجانب عريسي العجوز مذهولة، أتأمله كم هو مندمج بالبرنامج السياسي...

فكّرتُ أنه لو كان أصغر سناً وذا صحة جيدة، لامتدت يده تداعبني، ولاندفع يقبّلني وينزع ملابسي بنفاذ صبر كي يلتحم جسده بجسدي.

تفاقمت مشاعري بالتورط، واحترت ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل آخذ

دشاً وألبس قميص نومي الشفاف القرمزي، عصف الغثيان بأحشائي، هل يستحق هذا الميت أن أغويه؟ هو الذي انطفأت شهواته ليس للمرأة فقط، بل للطعام والشراب والسَهَر! لِمَ تزوجني إذاً؟ ما حاجته للزواج؟ لعله يُنشد الدفء، ربما مثل الدفء الذي تشيعه فيه بطانية من الصوف!

ورغم عدم رغبتي، فقد قررتُ من باب الفضول أن ألبسّ قميص نومي الشفاف وأرشّ العطر بكثافة على عنقي وصدري، وعدتُ للجلوس بجانبه، التفتَ إليَّ لبرهة وقال: يا سلام. وعاد للانخطاف للبرنامج التلفزيوني. تأملت تلك اللقطة المُهينة، أنا بجانبه بكامل أنوثتي الفوّارة، والقماش الحريري منحسر عن فخذي وهو جالس كتمثال واضعاً يديه المتخشبتين المبقعتين ببقع الشيخوخة الداكنة فوق ركبتيه مأخوذاً كلياً بالتلفاز، ومنتظراً الفعل السحري للفياغرا!

فجأة انفجرتُ بضحكٍ عاصف، ساخرةً منّا نحن الاثنين، متذكرة أن هذه ليلة الدخلة، وقلتُ لنفسي شامتة بأنها ليلة الدخول إلى الجحيم، تأملتُ باقة الورد الأحمر البديع التي وضعتها إدارة الفندق في زاوية الصالون، وزجاجة الشمبانيا الغاطسة في الثلج، وقد رُبط عنقها بشريط وردي أحسه كالرسن!

سألني ممتعضاً عن سبب ضحكي، فقلتُ له أنني تذكرتُ حادثة مضحكة، فلم يسأل ما هي، ولم يبدُ عليه أنه راغب بمعرفتها... قررتُ التزام الصمت هو أيضاً تحصّن بصمته، لدرجة بدأت أشعر باختناق حقيقي إذ بدا الصمت كالأبدية.

تفرّجت على نفسي كيف أغوص مزيداً من الغوص في هوّة من الكآبة والذهول وأخيراً انتهى البرنامج عن حق العودة للفلسطينيين، وقد ترك في نفسه ألماً وغضباً ارتسما على وجهه بتكشيرة ألم. قام عن الأريكة بتثاقل بعد عدة محاولات للوقوف، شاكياً من تيبسٍ في ظهره،

لبس عباءة نومه، وتنهّد وهو يقول كأنما يخاطب نفسه، ولا يكلمني: ياه، كم أحس بتعب.

فتحتُ زجاجة الشمبانيا، وقدّمت له كأساً، رفضها لأنها تزيد حرقة معدته طلب إليّ أن أعطيه كأساً من النبيذ الأبيض المشروب الوحيد الذي لا يضايقه حين يشربه. وبعد أن شرب كأسين بصمت، وأنا أراقبه وابتسامة بلهاء مرتسمة على وجهي، أعلن لي دون ذرّة أسف أن الفياغرا لم تعمل أبداً وبأن حالة من الموت الكامل تصيب جسده.

قاطعته مؤكدة له بكل طاقتي على الرياء بأن الأمر ليس مهماً على الإطلاق وبأني سعيدة بمجرد وجودي معه.

طلب إليّ أن أجلس بجانبه في السرير، وأن أداعب زغب رأسه حتى يغفو. وحدثني أن هذه العادة ترجع إلى طفولته، فلم يكن يغفو إن لم تداعب أمه أو جدته شعره.

اعتلينا سرير الخداع الزوجي، والمرآة العريضة تعكس مشهد المهزلة، كانت يده اليمنى تداعب بآلية ردفي الأيسر، بحركة نصف دائرية يكرّرها إلى ما لا نهاية، كما لو أنه يُسلّي نفسه بمسبحة، اضطررتُ للاحتجاج أخيراً، إذ بدت لي تلك الحركة أبدية إن لم أوقفها.

غرق في النوم أخيراً بعد مداعبة طويلة لزغب رأسه. وقمتُ أنظر من النافذة العريضة إلى أضواء بيروت المُغوية، تفتقت بذهني فكرة العشق، لم أكن بحاجة فعلية لرجل، فمشاعري المصعوقة أبعد ما تكون عن هذا الهاجس، لكن بدا العشق مجرّد مكمّل للموقف، مجرد إكسسوار، لا بدّ منه للوحة: الفندق الفخم، الشمبانيا، الترف المخملي، الورود الحمراء، وامرأة شابة تلبس ثياباً مغرية، وتنتظر الحب! ترنحت أفكاري بين فندق دمشق الحقير حيث كنتُ أبوّل في المغسلة، وبين فندق ميريديان بيروت... هناك فاحت رائحة البول، وهنا تفوح رائحة عجز

الشيخوخة! أتراني محكومة بهاتين الرائحتين؟

وحيدة على شرفة لفندق فخم أطلّ على بيروت من علٍ، أشرب شمبانيا باردة وأتأمل أضواء بيروت فيخفق قلبي بهوى عجيب... أعزي نفسي، ألا تستحق بيروت كل التضحيات! أليست نعمة كبيرة أن أعيش في قلب هذه المدينة النابضة بالحياة!

وبطاقة خيالي وبمساعدة شمبانيا باردة برّدت مشاعري الملتهبة بالغضب والهوى الغامض... غرقت في النوم، لأستيقظ في ساعة متأخرة على جعير المذياع والتلفاز معاً، احتجت للحظات كي أستوعب المشهد الجديد، المُسمّى زوجي يؤدي طقوس نظافته اليومية بقوة أدهشتني!

• • •

كيف يمكن وصف يومي في بيروت. إنه أشبه باحتفال أفيق في ساعة مبكّرة مبتسمة، أية معجزة أن أفيق مبتسمة! أتذكّر ملامحي المتجهمة البائسة هناك، كيف كنتُ أحاذر أن ألمح وجهي في المرآة كل صباح، كي لا أُحبط أكثر من تعبير اليأس والإحباط المرتشحين في ملامحي...

ألبسُ ثيابي الرياضية الزرقاء، أدسّ مالاً في جيبي، مالاً جديداً: الدولار... صرت أحلّل أحاسيسي فالدولار يعطيني إحساس أني مالكة، أما العملة الأخرى فتشعرني أني مملوكة... ألقي نظرة على الصالون الفسيح الأنيق غير مصدقة أني أعيش في هذا الترف، أعقص شعري، واهبط من الطابق العاشر - حيث اشعر أني أعيش كأميرة أقرب للسماء مني للأرض - إلى أرض الواقع، امشي بمحاذاة كورنيش بيروت، ومسامي متفتحة للحياة، أجبر نفسي على الإحساس بذاتي، ذلك لأني أحس باستمرار أني أطير، أو أحلّق في فضاءات لا يحدّها عائق، وحالة

من عدم التصديق تلبسني دوماً، أخاطب نفسي بلهجة مؤكدة: هذه أنتِ، تبدلت حياتك هذه أنتِ الممرضة المسكينة المحبطة الفقيرة، انتقلت بغمضة عين إلى الجنة، إلى بيروت، زوجك رجل مهم، وتسكنين في بيت ساحر، أجمل بيت في الدنيا..

في الواقع، أحس بانخطاف وذهول وأنا أتنقّل في غرف هذا المنزل الساحر، ففي كل زاوية أقف فيها أرى البحر، بيتٌ يشبه قلعة الحرية.. أسير بنشاط فوّار على طول الكورنيش، أشعر أني أخوض غمار الحياة، ولم أعد واقفة عند الضفة، وكل صباح أتأمل بافتتان روعة الحياة هنا، الحرية... يا للكلمة المُسكرة... ترى ماذا تشبه؟ هل تشبه هذا الرذاذ المنفلت من أمواج الشاطئ في حوارها الحر مع الصخور؟ أم تشبه تراقص أشعة الشمس على صفحة الماء الفضي أو الأزرق وأحياناً الأخضر؟ أم تشبه ذلك الطريق الطويل الطويل، الذي أنعطف في نهايته إلى سوبرماركت أبو خليل، حيث أشتري كماليات السعادة. وأقاوم غصة قهر وأنا أتذكّر السوق المركزي في مدينتي، حيث تفوح منه روائح القمامة، وأمعاء الحيوانات، وكيف كنتُ أمشي بحذر كي لا أتزحلق بسخام القمامة...

أم أن الحرية هي تحديداً ذلك القلب الأحمر الأشبه بحبة كرز مثيرة طازجة نبتت داخل قلبي المُتعب؟

ابتكرت تعريفاً جديداً للحرية: فالحرية هي أن تشعر دوماً أنكَ مُعافى، أن تشعر أنك استبدلت قلبك الذي نخره الخوف والحزن واليأس، بقلب جديد يغسله كل يوم رذاذ بحر بيروت، ويدفأ بشمسها...

مُفتتنة بسعادتي، وشجاعتي في مواجهة الانقلاب الذي حدث لحياتي، أسير كل صباح، وأعود إلى قلعة الحرية محمّلة بالأغراض،

غير ناسية منقوشة الزعتر التي يحبها الرجل الذي اسمه زوجي. الرجل المليء بالصمت والأفكار، والذي أعطاني مفتاح السعادة، قائلاً لي تمتعي قدر استطاعتك. لكني تجاهلت تتمة عبارته بشرط أن أكون أنا في قلب كل شيء.

لم يكن وارداً بالنسبة لي أن أنتبه للشطر الثاني من عبارته، لأني كنتُ أعَبُّ من هذه السعادة المباغتة بشراهة - كنت أحس بصدمة المعجزة، وأحياناً كنتُ احتاج أن اقرص خدّي وفخذي كي أشعر أن ما أعيشه حقيقة، وكم من المرات وجدتني أقفز حتى يهدني الإعياء، كي أحرّر نفسي من مشاعر غبطة عارمة لا أتحملها... اكتشفت أن للفرح وطأة أشد من وطأة الحزن، وأنا التي تغيّرت حياتي بضربة سحر، صعب عليّ التأقلم مع واقع لم أحلم به يوماً.

كان مثلي يشعر أن معجزة هزّت حياته، فهو الموغل في كآبته وعزلته، وَجَدَ الحب والحنان يغمرانه، وجد زوجة شابة تدفئ ما تبقى من أيامه وتطرد البرد من شيخوخته، معجزته أنه وجد الحب الأخير السخي والدافئ، أما معجزتي فهي أني وجدتُ الحرية، وبين حبه لي، وحريتي التي قبضتُ عليها بأصابعي وأسناني، ولد كائن عجيب، كائن مخيف، أشبه بمسخ يملك طاقات تدميرية جبارة، فما يريده حبي وامتلاكي، وما أريده الانطلاق والحرية اللذين لا يحدهما عائق، ولا يقيمان أي اعتبار لأي كان.

لم أكن أعرف أن صراعاً شرساً وضارياً سيولد بين حبه لي وتوقي للحرية لدرجة بدا حبه لي مبطناً بعبودية حقيقية، وبدت حريتي أشبه بقنبلة موقوتة مستعدة لنسف كل ما يعترض جموح تحققها.

جنين مشوّه نشأ بيننا، توضحت ملامحه يوماً بعد يوم. إنه باختصار حقد مخبأ وراء الحب، أو حب يبطن الحقد كبطانة غير مرئية.

هل ألوم نفسي؟ أم ألومه؟ أم الأفضل لكلينا أن نلوم القدر!

لو حاولت أن أعبّر عن علاقتي به بلقطة واحدة، لتخيلتُ الصورة التالية: هو جالسٌ إلى طاولة قراءته وكتابته، يصارع أفكاراً، يخربش ويخربش حتى يكتب جملة، وصوت الموسيقى الكلاسيكية يلعلع لدرجة اضطر لسدّ أذني بالسدادات المطاطية التي صرتُ أستعملها مذ عرفته، وأنا جالسة على الأريكة الواسعة في الصالون الفسيح أرنو إلى بحر بيروت كسجينة، وأُعمل تفكيري المُستفز باختراع عدة حجج تبدو منطقية للفرار من سجنه... يُحب وجودي بجانبه، يعطيه - كما يقول - إحساساً بالأنس والدفء والمشاركة، أبتسم له، فأنا لا أطيق أن أبقى بجانبه، لديّ رغبة مستمرة بالفرار منه، أحياناً أحس بالعجز، فلا ينجدني عقلي بأي عذر للهروب، فأبقى مسمّرة مكاني، أتأمله كغريب بعينين فاترتين حاقدتين، وأندهش أن عينيّ الرافضتين الحاقدتين، هما ذاتهما اللتان ترنوان إليه بحب زائف! يا للنفاق المُقرف، لكن كيف أتخلّى عن حريتي، عن ذلك الترف الجميل، كيف سأتخلّى عن بيروت التي لم أعشق رجلاً مثلها! أتظاهر بالقراءة، أشغل نفسي بترتيب غرف ترتبها خادمة تزورني بشكل يومي. أحياناً يرهقني الصمت، فأفتعل حديثاً اضطرارياً معه، فيخرسني بإشارة من يده، لأنه غارق بأفكاره. أكظم غيظي وأجدني أكيلُ له سيلاً من الشتائم الفاحشة الخرساء وأصمت...

لم أكن أعي وقتها فظاعة أنانيته، كان أنانياً إلى الحدّ الذي لا يلحظني، ولا يعنيه أمري، ولطالما فكّرت فيما بعد - وبعد أن تحررتُ من وهم السعادة - ترى ألا يخطر بباله أن يتساءل ماذا أشعر أو أفكر، وأنا جالسة لساعات في الصالون أرنو إلى البحر، أو أتجوّل في البيت الفسيح الرائع، أو أدخل سراً إلى غرفتي حيث أجري اتصالات هاتفية مع رجال يمثلون مشروع عشّاق؟

تأخرتُ كثيراً لأدرك أنه لا يلحظ شيئاً يخصني، أو يخص من حوله، لا يرى إلا نفسه، مشغول بذاته لحدّ الهوس - دون أن يدري ربما - غايته تأمين كل ما هو ضروري لراحته، وأنا كنت أكثر ما يريحه.

ولكني غالباً ما كنت أنجح في اختلاق سبب للفرار، فأقترب منه كما تقترب مراهقة من أبيها المتسلط، وقلبها يرتعش خوفاً من افتضاح كذبتها. وبصوت عذب منافق مبطن بالغنج والشوق، أطلب منه أن أخرج إلى السوق لأني سأشتري أشياء تلزم ابني وأهلي...

وأعده بحماسة أني لن أتأخر، أحدّق بوجهه المتصلب الملامح وأنا أكلمه.. لا تبدو عليه استجابة أو أي ردّ فعل، رجل من رخام - هذا ما أحسه - فتتجمدني يدي، وأبدأ بمداعبة وجهه المترهل، وزغب رأسه الأبيض، وأجبر نفسي أن أقبّل رأسه قبلات حماسية وأنا أقاوم رائحة الشيخوخة، صارخة بكل نفاق روحي: يا سلام شو هالنظافة...

يرضخ أخيراً لرغبتي، ويوافق أن أخرج، ألجم فرحي، وأضبط إيقاع خطواتي المتقافزة فرحاً، وأنا أغادر قلعة الحرية، ألوّح له وأنا على عتبة الفرار بأني سأحضر له مفاجأة يحبها، متجاهلة أنه لم يعد يرغب بشيء، لأن شهواته قد انطفأت كلياً.

ما أن أفرُّ من البيت حتى أشعر أن قلبي كجرو صغير، يقفز فرحاً، وأنا ألحقه ضاحكة، ونغني معاً: ارتحنا، ارتحنا، ارتحنا... كنتُ أكرّر هذه الكلمة إلى ما لا نهاية حتى تهدأ روحي من اصطخاب المشاعر العنيف داخلها. وحتى أتأكد أني فررتُ حقاً من سجن حضوره الخانق.. لكن تظل صورته جالساً إلى طاولة الكتابة كصنم، يصارع أفكاراً شاخت أكثر من جسده، مستغرقاً بذاته لساعات دون أن يلتفت إليّ، تلاحقني... آه الاستعمار الحقيقي هو أن تسكنك فكرة، أو وجه...

كم تعذبتُ كي أطرد صورته الساكنة في تلافيف دماغي، كنتُ

أغمض عيني هرباً من صورته، فتتوضح معالمه أكثر في شبكية عيني...
أين المفرّ؟! أين المفرّ؟! أتسكع في شوارع بيروت، باحثة بإلحاح عن شيء لا أعرفه شاعرة أني أسيرة هوى غامض مُحيّر، وكلما كان ضجيج الشارع عالياً أحسستُ بمتعة، إنه صخب الحياة، يا لروعة ضجيج الشارع اللامتجانس، النزق، والحار، أصوات باعة، لعلعة مذياع، شتائم صراخ، سلامات حارة، ضحك صاخب، بكاء طفل... هدير سيارات، صوت ارتطام أو سقوط... ضجيج حي، ساخن، بشري، تفوح منه روائح حياة، عرق، وعطر، وخبز وبنزين، أما موسيقاه الكلاسيكية فتشعرني بالموت... موسيقى راقية للموتى!!

كنتُ أقاوم بشراسة أنانية تعلّقه بي، أشعر أن غايته أن يقصّ أجنحة حريتي، وأنا كنت كطائر فزع أهرب من زاوية إلى زاوية حتى لا أفقد قدرتي على التحليق في سماء الحرية، لكنه كان مصمماً بأنانية شيخوخته أن يحوّلني لطائر ثقيل مقصوص الجناحين، مُصر بأنانية إيمانه بعبقريته أن يعطيني امتياز أن يكون لفضائي دائرة لا تزيد مساحتها عن أمتار ومركزها هو. دائرة تموت على عتبتها أحلامي الوردية المختنقة برماد كآبته. قمة إحساسي بالحرية كان حين أنتهي من جولة تسكعي وأجلس في إحدى مقاهي الرصيف في شارع الحمراء، وأطلب النيسكافيه أو الكابوتشينو، وأحياناً أغامر وأطلب الأركيلة متجاهلة إحساسي بالزمن، فلأتأخر، وليغضب زوجي العجوز... كنتُ أحس بالعار حين أرى شاباً وشابة يسيران بجانب بعضهما، يتكلمان ويبتسمان، أفكر أن هذا هو الطبيعي، صورة الشباب المتقاربين في العمر تصفعني وتشعرني بالخزي من الوضع المهين الذي حشرتُ نفسي فيه، فتمرّ بذهني صور أحتقرها وأمقتها، صوري متمددة بجانبه في سريره المرتفع، شاعرة أني طافية في فراغ، وقد خدّر الكحول أعصابي كي أتحمّل لمسات العجوز يداه، كيف

ساحترم نفسي؟ كيف سأفهمها، كيف أنجح في كبح كل هذا الغضب والاشمئزاز وأصابعه المتخشبة تجوس جسدي الطري، وجلدي منكمش تقززاً، كنتُ اغمض عيني وأكزّ على أسناني كمن يقاوم ألماً عنيفاً، ولم تكن لمساته تحرك شهواته، ذلك أن شهواته ماتت، كما ماتت كل طاقاته الحيوية، لكنها لمسات، يحاول من خلالها إيقاظ ذاكرته أو أحاسيسه عن عالم المرأة، ذلك العالم البعيد البعيد الذي هرب منه منذ سنوات طويلة... أحس أصابعه الزاحفة ببطء فوق جسدي أشبه بعناكب كبيرة، وحين تمتد إلى مخابئي الأشد خصوصية ورغم الحيل العديدة التي كنت أعتمدها كي أعيق وصولها - تنفلتُ مني صرخة رفض عظيمة، فيعتقد - أو يحلو له أن يعتقد أنها صرخة النشوة!

كم تساءلت وأنا بجانبه، وهو متمدد في سريره الفخم بوضعية الجلوس، وكرشه الرخو، وثدياه المتهدلان على مرمى نظري، كم تساءلت إن كان ذلك يشبه الموت. ولطالما تمنيت لو يكون الموت أرحم من هذا الجحيم!

لا يمكن أن نقدّر فظاعة التقدّم في السن، ما لم نعش يوماً بعد يوم مع عجوز! لكن هل كان زوجي كهلاً عادياً؟ هناك كهول تشع منهم الوداعة واللطف، أما زوجي المغرور والمتكبّر، فروحه مشبعة بالكآبة والنزق، شخصٌ لا يُطاق في الواقع، شخص قادر على تسميم حياة من حوله تسميماً بطيئاً حتى يصل من يعيش معه إلى حافة الانهيار... كم كنتُ أفكر بزوجته الثانية التي أدمنت على الكحول، والتي تردّدت شائعات أنها ماتت منتحرة، كم من المرات شعرت بتقارب عجيب بيني وبين روح تلك المسكينة التي لم أرَ سوى صورها، تبدو امرأة وديعة، تحب الحياة، عاطفية، وجميلة جداً، كيف أمكنه أن يهملها ويُهمّشها، وينبذها خارج حياته، أحياناً يبلغ توحدي مع روح الميتة حداً أشعر أني

أسمع بوحها لي ورجاءها أن أنتقم لها من رجل حقود متكبّر... يرى نفسه محور الدنيا... يعبد ذاته بل يؤلهها.

مشكلتي الأساسية أنني لم أقدّر حجم الأذى الذي يحلّ بي يوماً بعد يوم من مشاركتي العجوز أيامه! كنتُ أعتقد أنني بفراري كل يوم لساعات من بيته، فإنني أحمي نفسي من سموم كآبته، يا لغبائي، كان يجب أن أعرف أنه يستحيل أن أبتلع السم دون أن أتسمم، حتى لو رغبت إرادياً أن أقاومه... كم من المرات أنهكني التسكع في شوارع بيروت، متمنية لو أكون برفقة شاب من عمري، أو يقاربني في العمر، لا تزال روحه نضرة، ويملك شهية للحياة، ومشاريع وطموحات، يده دافئة، تمسح على وجهي بحنان، صوته حار وحيوي وليس مثل صوت العجوز أحسه خارجاً من أعماق كهوف عزلته.

وفي المصعد كان عليّ أن أبدّل ملامح وجهي، أن أتمثّل القناع الذي يجب أن أواجه به العجوز... غالباً ما أراه بانتظاري، واقفاً وسط الصالون، بكتفيه المقوسين، ويداه في جيبي بنطاله الواسع، يرمقني بعينيه المتعبتين العابستين، نظرة تعني: لقد تأخرتِ. فأجبر نفسي على الابتسام، وأتدفق بحديث يشبه الزقزقة لأوهمه أني سعيدة، وبأني اشتقت إليه، كنا نجلس للغداء، أقاوم مشاعر عنيفة بالإحباط وأنا أتأمله كيف يأكل ببطء يدمر أعصابي، وبانعدام شهية تام، وكيف تثور ثائرته ويبرطم بشتائم لا أفهمها إذا لوّث ملابسه، بل صار يستحيل أن يأكل شيئاً دون أن يلوّث قميصه وبنطاله، وحين اقترحتُ عليه أن يضع منديلاً طويلاً على صدره وفي حضنه جنّ من الغضب، فاضطررت للاعتذار له. كان يسألني ماذا فعلتِ بهذه الساعات، فأختلق له حوادث وحوارات وهمية مع باعة، وناس التقيتهم في متجر أو صيدلية.

نبهتني أحاديثي المُختلقة معه للقُنية العالية للكذب، الكذب إبداع

حقاً أحياناً فإن تنجح في خلق عالم لاواقعي وتقنع به من حولك، بل تمتعه، فهذا هو جوهر الإبداع... ثم صرت أجري اختبارات على نفسي ومدى امتلاكها تلك الموهبة فأستمتع من مدى تأثره، وينهال عليّ بأسئلته المستوضحة، في تلك اللحظات أشعر أنه واقع في قبضتي، وبأني انتصرت على المفكّر الشهير.

بعد الغداء كنا نرشف الشاي الفاتر كملاقتنا على الشرفة غالباً، كل منا يحاول أن يحزر ما يدور في ذهن الآخر، أحياناً أتساءل: ترى ألا يخطر بباله أني أخونه أو أواعد رجلاً أحبه؟! ألا يخطر له لو يتبع خطواتي؟ لكني كنتُ متأكدة أنه لن يفعل، حتى لو راودته الشكوك، لأن الشيخوخة جعلته متسول عاطفة وحنان وهو يحتاجني بكل أنانية روحه، وليس من مصلحته اكتشاف أسرار أخفيها عنه... الكذب أكبر رحمة، وليس ما يجرح كالحقيقة... أذكر جدتي رحمها الله، كانت تقول لنا دوماً حين نقسو عليها بالكلام: أحب الكلام الحلو، حتى لو كان كذباً... وكنا نصرخ مستنكرين كلامها: عيب أن تفضّلي الكذب على الحقيقة، فتكرّر كلامها بلهجة رجاء: أحب الكلام الحلو.

معها حق جدتي... الكذب مبطن بالرحمة، أما الحقيقة فتشبه حدّ السكين تجرح وتُدمي.

كنتُ أسأله عما قرأه أو كتبه، فإذا كان بمزاج حسن - وهذا نادر - يحكي لي همومه، وبأنه ما عاد قادراً على الكتابة كالسابق، وأن طاقته الذهنية في تراجع كبير... كنتُ أصغي إليه بذهن شارد، وأنا أفكّر بعدة أفكار في الوقت نفسه، أفكار تصب كلها في تأمل هذا الزمن الذي يجرنا إلى تصرفات أبعد ما تكون عن اختياراتنا، والذي أبدع أساليب اغتيال الفرح في قلوبنا.

الشاي الفاتر يصبح بارداً، له طعم الوحدة، أرنو إلى البعيد، حيث

البحر وحده لا يزال يملك القدرة على السخرية، عارفاً أكثر منّا ما يعتملُ في نفوسنا، في تلك اللحظات أشعر أني أنقبّل علاقتي معه لأني لا اريد أن أعود إلى هناك، حيث احتضرت روحي على مدى سنوات من أمراض الضجر والفراغ والسخف والفساد، ولا أجرؤ أن أفكّر بترك بيروت بيروت المغوية الفاتنة، والتي أعطتني أروع ما أحسستُ به: الحرية...

أحياناً تمتد قيلولته ثلاث ساعات، يسترخي جالساً على الأريكة العريضة في الصالون، يطلب إليّ أن أحضرَ له منشفة صغيرة يغطي بها عينيه، أو عصابة النوم الزرقاء الداكنة تختفي عيناه، وينفرُ فاه قليلاً، وأحسه غارقاً في غيبوبة... أجلس غير بعيدة عنه، أراه دوماً سواء حدقتُ به أم هربت بعيداً عنه، صورته محفورة في داخلي، تستعبدني، تضطهدني، لا مجال للهروب منها، فهي وشم لا يُمحى... أنقّل نظري بينه وبين البحر الحر غير البعيد، وأقيس هبوط معنوياتي السريع، تبدو لي هذه اللقطة غير منطقية وأبدية، كما لو أنها تحدث في حلم، يتفجّر الضجر في أعماقي كنزيف مفاجئ، يتقمّصني المزاج السوداوي ذاته - الذي يتقمّصه - تحاصرني الأسئلة ذاتها: مَن هذا الرجل؟ هل تزوجته حقاً؟ أي جنون أن أهدر شبابي معه... لكن، كم أحاول الهروب من هذه اللكن، وكلما هربت منها تحاصرني أكثر فأستسلم لها، وأكمل العبارة.. ولكن ما البديل؟ كيف كنتُ أعيش هناك!!؟؟

● ● ●

شهرزاد

لم اكن أعرف أني سأوّلد آلية ذاتية - وأنا أشارك المفكّر أيامه - آلية ذاتية تمنعني من تأمل أعماقي، كان يجب أن أحدث قطيعة مع تلك الإنسانة التي كُنتها، لأستأنف حياتي الجديدة التي لا تشبه حياتي القديمة بشيء... كنتُ أشعر تماماً أنني تجاوزت شخصيتي إلى إنسانة تتشكل يوماً بعد يوم... لو أردت أن أختصر علاقتي معه بصورة، فإن الصورة الوحيدة التي تحضرني هي التالية: أنا وهو نجلس عصراً في شرفة منزله البديع المعلّق بين السماء والأرض، هو يجلس في الأرجوحة الفخمة التي ثبّتها كما ثبّت كل شيء في حياته، يلبس عباءة رقيقة تشف عن جسده الرخو المتهدل الذي يحرّك فيّ غثياناً لطيفاً وشفقة، ويحرّك من ناحية أخرى غروري حين أقارن جسدي الفتي بجسده. يدخّن سيجاراً رفيعاً ويرشف نبيذاً بارداً أبيض، ونظره ثابت على بحر بيروت وأنا بجانبه، أدخّن سيجاراً دون متعة وأكبح مشاعر جامحة بالرغبة بالفرار، وخيالاتي تتوه هناك في وسط بيروت حيث أتخيّل مئات الشبان والشابات تفوح منهم رائحة الحياة، بينما زوجي يذكرني كل لحظة بالنهاية... أفكّر أن كل شيء بديع في هذا البيت، الإطلالة الساحرة، حيث بحر بيروت يحتضنني كيفما تحركت، المنارة الشامخة التي تمسح الفضاء بشعاعها الأحمر النحيل، هسيس الموج، ومنظر المتريضين، الأثاث الرائع للبيت... كل شيء في هذا البيت الساحر مُعدّ لإدخال البهجة إلى القلب، ما عداه، زوجي العجوز.

يطلب إليّ أن أحضر ماء الزهر، أدخل المطبخ، أسخن الماء، وأتأمل كؤوس الكريستال مختلفة الأشكال والأحجام، وزجاجات المشروب الأنيقة، أعترف أن هذا العجوز علّمني ثقافة المشروب والطعام، لم أكن أعرف السومون فوميه ولا الكافيار ولم أذق من قبل الكاماباري والفودكا، والكوانترو... تنفلت مشاعر كآبة عارمة من صدري ألجمها بقوة، أتذكّر ابني فيكويني الشوق، أعزي نفسي أني سأسافر إليه بعد أيام محمّلة بالهدايا... أعود إلى الشرفة، أقدّم له كأس ماء الزهر راسمة ابتسامة النفاق على وجهي، أسخر من نفسي: أتسمين هذا زواجاً!... يطلب إليّ أن أحدّثه عن الهتاك، تفتنه قصصي، لا أعرف ما الذي يدهشه فيها لدرجة الإبهار، وكنتُ أستمتع أني شهرزاده، وأني أنقله إلى عوالم، وأعرّفه بشخصيات لم يلتقِ بها في حياته...

كنتُ آخذ نفساً عميقاً وأقول بمزاج ساخر: كان يا ما كان... هناك مشفى مقرف قذر... فيزجرني أن أتكلم بجدية... آخذ رشفة من كأس الويسكي الذي صرت أعشقه في بيروت، وأختار قصة من مئات القصص المتراكمة في أعماقي...

أحكي له عن الأطباء، كيف يخربشون توقيعهم الصباحي على دفاتر التوقيع ويسرعون إلى عياداتهم الخاصة، ولا يعودون إلّا ظهراً، ليخربشوا توقيعهم أيضاً... أضحك وأنا أرى علامات القرف والانصعاق على وجهه... فأنتشي حماسة وأتابع:

- طيب ما رأيك لو قلت لك إن هناك أطباء لا يأتون أصلاً إلى المشفى، بل يقوم زملاؤهم بالتوقيع عنهم...

فيحتدّ ويقول: مش معقول، هذا سلوك مقرف، كيف، كيف يرضون بهذا السلوك الحقير! ألا يحترمون عملهم...

فأرد شاعرة أني أنتصر عليه بالضربة القاضية: أين أهمية الراتب؟!

- وما راتب الطبيب الاختصاصي هناك؟

- الحدّ الأعلى 300 دولار؟!

- غير معقول، إنه راتب عامل تنظيفات هنا...

- حسناً هل أحكي لك عن ممارسات هؤلاء الأطباء...

- بالتأكيد، قصصك عجيبة غريبة...

- أتعرف أن أطباء العيون مثلاً يطلبون إلى المريض أن يشتري عدسة للزرع داخل العين بعد استخراج الماء الزرقاء، سعر العدسة 25 دولار، لكن الطبيب يرسل المريض إلى التاجر، ليبيعه العدسة بـ 150 دولار أو 160 حتى، ويتقاسم الطبيب والتاجر الأرباح مناصفة، تصوّر المريض المسكين الذي غالباً يستدين ثمن العدسة لا يعرف أنه يدفع ثمنها أضعافاً مضاعفة...

هناك أطباء ربحوا مئات الألوف من مجرد عمولتهم في زرع العدسات، يهزّ رأسه علامة الأسف والألم، ويقول إنه غير متصور أن حجم الفساد كبير لهذه الدرجة...

أحكي له عن الممرضات اللاتي يقطّعن الفاصوليا، ويحشين الكوسا والباذنجان في المستوصف،.وعن بؤس أطفالهن اللذين يحضرونهم إلى حضانة المشفى البائسة... أصف له مراحيض المشفى الطافحة بالبراز والقذارة، وعن قذارة الأروقة والأسرة والجدران، عن الفوضى، والضجيج... أتدفق كلاماً، وأحس بمتعة الوصف، أحس أن قصصي تتحدى نظرياته، لقد اعترف لي ذات مساء بأن عليه أن يستمع لقصصي قبل أن يكتب عن أزمات ومشاكل الشعوب العربية.

منذ انتقلت للعيش معه، التصق بي الشعور بالشرف... شعور يدغدغني، أفكر طوال الوقت أية صدفة عجيبة جعلت قدره يتشابك مع قدري... لكن مشكلتي الأساسية كانت أنني أحاول إقناع نفسي دوماً أنه

رجل عظيم، لدرجة اعتقدتُ أن أهم ميزات الرجال العظماء أنهم ينهكون قلوبنا من الضجر، الضجر الذي خبرته معه لا يشبه أشكال ضجري الكثيرة والمتنوعة، فهو حالة دائمة من الإحساس بالعقم والاختناق، لا أعرف لماذا أشعر دوماً أنه يريد أن يعطيني انطباعاً بأن كل عبارة صادرة عنه هي شيء خارق، فمثلاً يسألني بأسلوبه المتعالي: ما المشروبات الروحية التي يشربها الناس عندكم ـ كما لو أن ناس مدينتي من كوكب آخر ـ فأجيبه بحماسة كما لو أنني أمام لجنة امتحان بأن الناس الفقراء يشربون مشروبات روحية رديئة ورخيصة، وأجد نفسي أحدثه عن فقر الحياة هناك، وكيف أن المتع الوحيدة المتاحة للناس هي الجلوس في مقاهي بحرية رخيصة وتدخين الأركيلة، وأنه لا توجد نشاطات ثقافية حقيقية، لا مسرح، لا سينما، لا محاضرات قيمة... ناس يسرحون في الشوارع كقطيع يرعى العشب... يهزّ رأسه علامة الأسف، ويتنهد بحرقة تنهدات طويلة تدل على نفاذ صبر من الوضع المزري للشعوب العربية.

ارغب ان امزج حديثي بشيء من الدعابة، أقول له بأني أسمي الناس في مدينتي: بشعب البيجاما، لأنهم يقضون كل أوقاتهم في منازلهم يلبسون البيجاما، وبعضهم يخرج من منزله ويشتري الأغراض من السوق وهو يلبس البيجاما.

يقاطعني مصعوقاً: غير معقول...

فأضحك، أنطوي من الضحك، ليس من تعليقاته، بل بسبب الهوة الكبيرة بين عالمه وعالمي هناك، عالمي الحقيقي الذي أنتمي إليه، والذي اكتشفت كم أحبه وكم هو متجذر بأعماقي.

كيف أصف علاقتي ببيروت، لا أحس أني أسافر من مدينة إلى مدينة، بل أنتقل من حالة إلى أخرى، من شخصية إلى شخصية أخرى،

فتلك الإنسانة التي تستيقظ في بيروت ليست أنا، إنها امرأة مُشرقة، مبتسمة، متفتّحة كوردة الحرية، تلبس ثياباً رياضية زرقاء، تدسّ في جيبها نقوداً كثيرة تشعرها بالأمان، نقوداً قدّمها لها زوجها العجوز، الذي تسمّيه في سرها ـ ضريبة عشقها لبيروت ـ تدهن وجهها بطبقة من الكريم المضاد للشمس، وتهبط من الطابق العاشر إلى الشارع الموازي للبحر، حيث تمشي لساعة أو ساعتين، ويدها تمسح الفنار الحجري لبحر بيروت.

المرأة التي أصيرها في بيروت لا تشبه تلك التي أكونها في مدينة التحنيط، لا تشترك معها إلّا بالذاكرة، ولولا الذكريات لولدت إنسانة جديدة، لكني أتذكّر طوال الوقت وأنا أمشي بمحاذاة بحر بيروت، وقلبي يخفق بحبٍّ فائض لتلك المدينة التي سحرتني وما قدرت على فك سحرها، أفكر بهناك، تحفّ بي صور كثيفة للمشفى البائسة والممرضات المتحلقات حول فطورهن الفقير، لروائح المجرور العابقة في المشفى... تحفّ بي صوري، متجهمة الملامح، بشعري القذر الذي لم أمشطه منذ أيام، وتسكعي في أزقة مدينة أكرهها لأنها صورتني ولأنني صورتها... أتذكّر ساعات احتضاري من الضجر وحرماني العاطفي المديد المديد، أتذكّر ليالي الأرق الطويلة، وابتلاعي أنواعاً مختلفة من المنوّمات، أتذكّر الاستيقاظ فجراً بقلبٍ ثقيل ثقيل، فأقف أمام المرآة حائرة كيف سأتحايل على يومي الذي أعرف أدق تفاصيل ساعاته!!

في بيروت يتملكني شعور بأني منفصلة عن الحياة هناك، وغالباً ما تنتهي رحلة المشي بسوبرماركت أبو خليل، أستمتع بأناقة البضائع، أحمل سلة وأملأها بالمشتريات ولا أنسى حاجات العجوز، الحليب قليل الدسم وبعض الفاكهة، وأنواعاً من الخوخ تساعد أمعاءه الكسولة على الحركة... أعود إلى بيته أتعرّق سعادة، غالباً ما يكون في غرفته

يمارس طقوس استيقاظه المعقّدة، تمارين رياضية خفيفة، ثم الحمام الصباحي، وبعدها جهير التلفاز والمذياع معاً... أضع الأغراض الكثيرة في غرفتي، أتخيّل سعادة أحبائي هناك حين سأجلب لهم كل تلك الهدايا، أتجه إلى المطبخ الأنيق، لأعدّ القهوة، ياه ما أجمل الحرية، ومن نافذة المطبخ العريضة، وفيما أنتظر غليان الماء يسرح نظري مفتناً دوماً، مفتناً أبداً ببحر بيروت، يتوقف قلبي للحظات عن الخفقان كأنه يستوعب دفعة واحدة معنى الحرية... كما لو أن للحرية مذاقاً شديد الغرابة والعذوبة ينسكب فجأة في فمي...

ياه لو كان المكان لي وحدي، لي وحدي، دون أن يشاركني فيه هذا العجوز... يقطع خيالاتي وقع خطواته البطيئة، أنظر إلى وجهه المتجهم وجه عاجز عن الابتسام، أمازح نفسي يبدو أن العجز الجنسي والعجز عن الابتسام صفتان متلازمتان، أبادره بتحية الصباح، في معظم الأحيان لا يرد، فأحس بسخرية منه ولا أبالي، بل أزداد بهجة وأنا أشير إلى منقوشة الزعتر التي أحضرتها له في آخر رحلة تريضي... يسألني بصوت ميت، كم ساعة مشيت، أقول ساعتين... أحسه يحسدني على طاقتي، يقول بصوت بارد: اليوم نحن مدعوان إلى العشاء عند فريد

أرد: عظيم...

أسأله: هل نمت جيداً. يقول: لا بأس.

أرغب أن أقترب منه، أمسكه من كتفيه وأهزّه: ما بكَ، ما بكَ، تظل بحالة تجهم ألا تستطيع رسم ابتسامة على شفتيك...

لكن فورة غضبي تنطفئ، وتغمرني شفقة ناعمة عليه، مسكين مسكين حقاً، ترى هل يعرف ماذا تخبئ تلك المرأة التي تشاركه أيامه القليلة؟! هل يعرف كم تضمر رغبات وشهوات وأحلام؟! ما شعوره وهو يدرك أن المستقبل أمامي عريض وواعد وسخي، وأن مستقبله المؤكد هو القبر!!

ما شعوره وأنا أتمزق صحة وسعادة وشباباً، وهو يفتح علب أدويته، يخرج حبة إثر حبة إثر حبة ليبتلعها... مدججة بصحتي ونضارتي، أتأمله مجعداً من الأمراض والشيخوخة... أية علاقة ملتبسة جمعتنا معاً؟! هل يحلو للقدر أن يلهو!

ألحقه إلى الشرفة، أرشف قهوتي وأتأمل طريقته في قضم الخبز المحمّص أكبت رغبة بالضحك، هل يملك العجوز الهمّة لقضم الخبز؟! أفكر أن أقوى شعور في العالم هو شعور الشفقة، ربما لذلك أنا معه، لا يزال جسدي ساخناً رطباً بعد المشي الممتع، جسده يفوح برائحة صابون ميت، أفكر أنه رجل ميت.

أتجه إلى الحمام الخاص بي، أرمي ثيابي أرضاً، أقف تحت الدوش، أدعك جسدي بالليفة والصابون، تعبرني رعشات رغبة، أفكر لو كان شاباً لكان لحق بي إلى الحمام، والتصق بي تحت الدوش، ولانصهر جسدانا في شبق وهوى...

أحياناً أتعمّد أن أترك باب الحمام موارباً، فلا يخطر له اختلاس النظر حتى، لعله غير قادر على ذل المقارنة...

ألبس ثيابي الأنيقة أرش العطر المؤجج للرغبات، أراه جالساً إلى طاولة كتابته وبشعور صافٍ بالعبث المطلق، أقف خلفه، وأسجن رأسه بين ذراعي، وأتعمّد أن أضغط رأسه على نهدي المتمردين، أداعب زغب رأسه، وأتنشق رائحته بعمق وأنا أقول بلهجة تمثيل متقنة: يا سلام شو هالنظافة... أحس كيف يستكين كطفل، شاحناً حواسه الذابلة لتخزين ملمس امرأة، عطر امرأة، تهديه شيئاً من الدفء والحياة. تنسيه ولو للحظات كم هو قريب من النهاية...

ألاطفه وأداعب زغب رأسه، تلك الحركة التي تجعله يسترخي وينام، أعرف أني أنجح برشوته بهذه الطريقة، فأستأذنه للانطلاق في

الشارع الذي أعبده والذي أسميه شارع الحرية... الحمرا...

كيف سأصف مشاعري الغريبة الجديدة، وأنا أمشي بخطوات متقافزة، غير مبالية بالطريق القاسية الصاعدة بين رأس بيروت وشارع بلس، أشعر أن السعادة تكتسحني، كما تكتسح الريح كومة من القش وتبعثرها، لا تبقى في روحي أية شوائب من كآبة أو قنوط، يبدو لي ضوء الشمس ينهمر دفئاً ملوناً يغزو قلبي ويلامس شراييني، أعجز عن كبح ابتساماتي المُحبة لكل شيء، كل شيء، قطط الشوارع، المتسولين، السائقين المتضجرين على أبواب الفنادق والسوبرماركت ينتظرون الزبائن... الأكشاك الصغيرة لتبديل العملة... كل شيء حولي فتي وحيوي وشاب، النهار أشبه بشاب مفتول العضلات، يتدفق صحة ونشاطاً، أدندن بأغنيات وأتدفق شوقاً لابني، أتمنى لو يكون معي، أبرّد أشواقي نحوه بأن أشتري له أشياء كثيرة أعرف كم ستسعده، أتذوق بعمق وباستمتاع كلي معنى أن أملك القدرة على الشراء، حقيبتي منتفخة بالدولارات، لا أشعر بأي تأنيب ضمير حين أختلس مالاً من جيب العجوز، أعتبر كل ماله حقي، ألا يكفي أني أعيش معه، من حسن حظي أنه لا يلاحظ أنني أختلس ماله، لأنه يضع رزمة في جيبه، ولا ينتبه كم يصرف...

أشتري أشياء كثيرة، حلي تقليدية، أحذية، هدايا، قمصان، ليس لحاجتي لها بل للمتعة التي يعطيني إياها صرف المال، أجلس في أحد مقاهي شارع الحمرا أشتري جرائد، أطلب كابوتشينو، أحس بإغواء لا يقاوم لأن أحب، لأن أتحدث إلى رجل حميم، لأن ألمسه ويلمسني، تعضني الوحدة، ويتقوض بلحظة كل عالمي المتفائل المبتهج... وفي قلب الخراب أرى العجوز ماثلاً في قلب كل شيء، في مركز حياتي، ترتسم صورته جالساً إلى طاولة كتابته يصارع أفكاراً ونظريات ما عادت

تلقى الاهتمام والتقدير السابقين، تتناوب مشاعري بين غضب من اغتصابه لحياتي ــ كما أشعر ــ وبين شفقة عارمة، إذ يبدو لي مسكيناً وواقعاً في قبضتي، في قبضة امرأة جشعة، متطلبة، لم تره سوى مطية لتقفز من حياة إلى حياة، من مستوى حياة وضيعة إلى أرقى شكل ممكن للحياة...

أرشف الكابوتشينو، وأفكر بأصدقائه الرائعين، يخترقني سهم رغبة نحو سلام، أتجرأ وأقرّر اقتحام عالمه، في مكان ما بأعماقي يستيقظ هوى أكّال نحو الرجل الذي يمثله سلام، وتبدو لي فكرة كتابة رسالة له أشد إغواءً ودهشة من كل مظاهر البهجة والحيوية حولي... أطلب من النادل أن يحضر لي عدة أوراق أنقده بخشيشاً يجعله يهرول ليحقق طلبي، تبدو لي حياتي الماضية تحيطني كدائرة كبيرة، وأنا متربّعة في المركز، امرأة جديدة، أتعرّف على صفاتي الاقتحامية المتهورة، لا أبالي ما سيكون ردّ فعل سلام على رسالتي، لكن شعوراً مقلقاً يدفعني للشك إذا كان الضجر واليأس يوّلدان في النفس كل هذه الشجاعة المتهورة، لكن عليّ بالاعتراف بتلك الغبطة الهائلة التي أحسستها وأنا أكتب له، كنتُ أكتب لسلام بحماسة وفرح وصدق شاعرة أنه ليس هناك من متعة أكبر من تحقيق أفكار مجنونة. أغامر وأطلب كأس نبيذ بوردو، والساعة لا تتجاوز الحادية عشرة صباحاً، النبيذ الأحمر، يجعل روحي تتوهج... أبدأ بالكتابة وقلبي يخفق بهوى المغامرة أكثر من هوى الحب، ومنذ الأسطر الأولى شعرتُ أن اللغة ليست لغتي، فاجأتني التراكيب اللغوية المفخّمة والتي لا تشبهني، كنتُ بحالة كمن انتقلتُ من جاذبية إلى أخرى وللحظة أحسستُ وأنا أكتب له كما لو أنني أقوم برحلة داخل نفسي واصلةً حتى جذوري.

صفعته منذ البداية بعبارة حبيبي سلام، غير مبالية بتهوري الشجاع،

شامتة من صوت العقل الذي حاول بقوة زجري ومنعي من الكتابة... يا لضلالي، كيف صدّقت أنني يمكن أن أغزو قلب رجل بمجرد رسالة، ما أن يقرأها سيقع في حبي! لم أستطع أبداً تمزيق تلك الرسالة، ربما لأنها شاهدة على زمن ما، على حالة نفسية كنتُ أعيشها...

حبيبي سلام..

أتساءل بدهشة من قال إن الرصانة فضيلة؟ فرصانتي لم تقدّم لي سوى الكآبة...

صدقني لقد تصارعتُ مع نفسي بعنف كي لا أكتب لك وأعترف بحبي، لكنني قرّرت أخيراً أن ينتصر قلبي، فأنا لا أريد أن أستسلم للمألوف، وللاعتبارات الاجتماعية الكثيرة التي تخنق كل المشاعر والبهجة في النفس... أظنك لاحظت أني أحبك، من نظرتي المتوهجة المتركزة عليك طوال الوقت، من اتساع عيني وأنا أحدّق بك بافتتان، كما لو أن عيني تتحولان إلى يدين للإمساك بك... كنتُ أتشرّب كل كلمة تقولها، وأسحر بكل حركة تصدر عنك، فيسري في أعماقي سهم حارق من ألم المُتعة...

أشرب النبيذ الأحمر، أنتَ من علمتني دون أن تدري لذة النبيذ، أنت الذوّاقة ولديك أنواع فاخرة من النبيذ... هل ستسألني لماذا أحببتك، وأنا بالكاد أعرفك ولم ألتقِ بك إلا مرات قليلة ووسط حشد من الناس؟!

معك حق في سؤالك، وأنا نفسي لا أعرف الجواب بدقة، بل أعتقد أنني أحببتك حتى قبل أن ألتقيك، فاسمك يتردد دوماً، سلام الآن في نيويورك، سلام في باريس، سلام في عمان، أو في دُبي... فأحس أن اسم سلام أشبه بجناحين، جناحي حرية حلمتُ بهما طوال عمري، جناحي حرية ساحرين يمكنهما تغيير مصيري... مصيري الذي هو

معاناتي، ودون أن أعرف أية تفاعلات معقدة تمّت داخل روحي، وجعلتني مرتبطة بك بلغة الروح - أنتَ جسّدت حلمي الأبدي المتمثل بلقطة واحدة بسيطة: حلمي بالفرار من كل شيء، حلمي بالسفر إلى أصقاع غريبة... صدقني يا سلام لم يكن بمقدوري أبداً أن أجمّل حياتي، ولم أكن أقبل أن أنهزم وأتأقلم مع الواقع، لذلك عشت سنوات شبابي بشعور مؤلم ولا إنساني من الغضب ونفاذ الصبر، أحسُّهما يطبقان على رقبتي يخنقاني... أتصدقني إذ أعترف لك أني صحوت ذات يوم لأجد نفسي بحالة توتر، والدموع تملأ عيني، جلستُ أرشف القهوة، مستعيدة تفاصيل وجهك، بدقة وشوق لاذع، تذكرت ضحكتك السريعة، وأسنانك الناصعة والبروز الخفيف الجميل في فكك العلوي، وطريقتك في شرب النبيذ، ولطفك البارد معي حتى تلك الزهرة الزرقاء الصغيرة جداً المعلقة في ياقة جاكيتتك الكحلية تذكرتها... وكما تُشخّص الأمراض، شخصتُ حبي لك، الحالة واضحة ولا مجال للشك، فأنا متيّمة بك، وأنا مصرة على دخول حياتك، عارفةً أني سأحرّك فيكَ مشاعر كثيرة أصيلة وغافية قد يكون الحب إنقاذاً لي من واقع وضيع سخيف، لكنه سيكون بالنسبة لك، كما لو أنك تخبئ النبيذ الفاخر للأخير... لا تستهن بعواطفي، عواطف معتّقة منذ سنوات طويلة، نقية وصافية وليس فيها شائبة منْ غش أو تمثيل، عواطف تشبه الألماس، ستكون لك وحدك... لو تعرف الإحساس الحار المتيقظ الذي يحدثه بي مجرد لفظ اسمك، ذات يوم كنتُ أعبر الشارع، ووجهي معتم، سمعت أحدهم ينادي: سلام، سلام أتعرف ماذا شعرتُ لحظتها: أحسستُ أن كل كياني سقط في دوامة، بي توق إليك كل لحظة...

هل عليَّ أن أمزق هذه الرسالة؟ بل سأسمح لروحي أن تسافر إلى أقصى سماء جموحها، مستعدة لتحمل رفضك، أو صمتك المزدري،

مستعدة أن تتهمني أني مزقت حياتي - لكن لو ترى وجهي كيف يتوهج وأنا أفكر بك ستعذرني.

اعتقدت أن هذه الرسالة إبداع ما بعده إبداع، وأنه سيُصعق بكلماتي وسيخر صريع الهوى!! لم يجب، ولم يتصل بي... اعتقدتُ أنه يعيش صراعاً مع نفسه، لكن الزمن الذي يوضح كل الأمور أكّد لي أن إهماله لي متعمّد... وأنه يفهمني بصمته وتجاهله لتلك الرسالة أني لستُ موجودة لا في فكره ولا في قلبه... لم أتألم!! ولم أتحسّر على هذا الحب الرائع الذي لم يتحقق! بل بدأتْ حالة غريبة تنتابني، إذ ابتدأ توهج حبي له يخفت حتى تلاشى، وتقبلتُ تلك الصفعة برضى تام وبشيء من الراحة، كما لو أني أتوق لها بأعماقي! عجيب أمر النفس البشرية، مع الوقت شعرتُ أني راضية كلياً عن النتيجة، وحمدتُ الله أنه لم يتقّد لغوايتي...

أفكّر الآن ما الذي دفعني لهذه الرسالة المجنونة والحب الهائج واللامنطقي والمجنون.. لماذا أصررتُ على اقتحام حياة سلام عنوة، ودون أن أبالي بظروفه... حين أحاول جمع المواد الأولية من الأفكار والحقائق لأبرّر لنفسي هذا الهوى الاقتحامي المجنون، لا أعثر على أفكار ولا على حجج، بل تتوالد في خيالي صورهما، متداخلة، متقاذفة، تلعب لعبة تبادل الأدوار، صورهما، أبي وزوجي... أليست مفارقة مُلغزة أن يكونا في نفس العمر. أتذكّر صبري اللامحدود حين بدأ أبي يقلع أسنانه الضعيفة، وكم عانى من طقم أسنانه، الذي سبّب له آلاماً فظيعة في اللثة، أتذكّر الطقطقة المرتفعة التي يحدثها طقم أسنانه حين يأكل، طقطقة تهرس أعصابي وأنا جالسة مقابله آكل كاظمة عاصفة من الغضب والرفض في كياني.

وأذكر بأسى السنوات التي كنتُ أرافق فيها زوجي إلى المشفى،

حيث نقضي نهاراً كاملاً، في فحوصات مخبرية وشعاعية، وكيف كنا نستريح في استراحة المشفى ظهراً فأجد نفسي وسط شيوخ متعفنين من الشيخوخة، ويكون دوري أن أحتفظ بابتسامتي وحيوية صوتي، وحدبني اللذيذ، الذي يمتصه بوجهه الجامد الساكن، ونظرته التي تعكس فراغاً موحشاً، هو ذاته يجعل روحي تلتهب بهوى مغامرات مجنونة... سلام يعني لي الحياة التي أتوق لعيشها، إنه جناحا الحرية وحين أسمع أنه في نيويورك، أو دبي، أو الهند، يتحلّب ريقي لتذوق هذه الحياة الغنية وبالتالي لتذوقه هو.

كم أحزن حين أفكر بتجاهله لتلك الرسالة، ثم إعادتها لي عن طريق سائقه، ليته ناقشني بها، واعتذر عن حبي، أما هذا التجاهل التام، فهو أقسى إهانة يمكن أن تتحمّلها عاشقة...

لكن هل كنتُ عاشقة حقاً! مسكينة أنا، كنتُ أعيش بحالة لهاث وهوى لحدوث شيء مميز ورائع، قادر على امتصاص زخم عواطفي وأفكاري، وطاقة شبابي المحبوسة في قمقم...

لكن رفضه القاسي والصامت، علّمني أن أرى بوضوح، كيف أن كل شيء يذهب إلى حتفه. ذرفت السماء دموع التأثر، تندى وجهي بدموع السماء ودموعي، أسرع النادل يعطيني مظلته، وقبل أن يتكلم، بادرته قائلة: شكراً لك، سأبقى قليلاً، فالمطر ليس غزيراً.

تحت مظلة سوداء عتيقة، وبجواري أركيلة تطلق أبخرة الذكريات، منخمصة داخل نفسي أواجه ما أخاف مواجهته: حياتي.

ذكّرني جلوسي وحيدة في الحديقة، أحتمي من المطر بمظلة سوداء كبيرة، بذلك اليوم الرهيب حين كنتُ في واشنطن، وحدهما المطر والبحر يغسلان الصدأ المتراكم فوق ذكرياتي، ترى هل أملك شجاعة مواجهة ذلك اليوم البعيد؟ ياه يستحيل أن أتذكر واشنطن دون أن أستعيد

ذلك الرعب النقي، كان يوماً عاصفاً، الريح غاضبة لدرجة تكاد تقتلع الأشجار، السناجب تقفز مجفلة وتختفي، تكسّرت الفوانيس على الشرفة، تضاعفت كآبتي لأني لم أستطع أن أبدّد بضع ساعات في المشي والتسكع في شوارع اتخذتها ملاذي وملجأي من قسوته السادية... اضطررتُ بسبب العاصفة أن أبقى في البيت، وتمنيتُ لو تحصل معجزة ويكون لطيفاً بالحدود الدنيا...

لكن الطقس العاصف فاقم مزاجه سوداوية، فمن نظرتي الأولى إليه، عرفتُ أن وجهه لا يبشّر بالخير هذا الصباح، وجهٌ قاسٍ كأنه محصّن ضد الابتسام، تناول إفطاره، ونزل إلى القبو دون أن يكلّف نفسه طبعاً بالالتفات لتلك المرأة التي تعيش معه، فكّرت أنني لو كنتُ حيواناً لاضطر للاعتناء بي، وقفت عند النافذة أتفرّج على الريح تصفع الأشجار بلا رحمة فأتمنى بكل روحي لو تحملني العاصفة بعيداً، فكل شيء أرحم من البقاء في دائرة المفكّر!

صاعدة، نازلة على الدرج الخشبي بين غرفتي، التي هي غرفة زوجته الثانية المتوفية، وبين الصالون، جمّدني صراخه: صدّعتِ رأسي بخطواتك. ألا يمكن أن تهدئي!

احتميت بغرفتي، تربعتُ على السرير، أحدّق في الفراغ، لأستحضر وجوه أحبتي، لأعتذر لهم عن قسوتي وضجري من حياتهم... فجأة رنّ الهاتف، ولم يكن من عادتي أن أجيب، لأني لا أتقن الإنكليزية، ولأن لا أحد يتصل بي، إذ لا أصدقاء لي في واشنطن... فقد عزلني عزلة تامة عن الناس، لكن لا أعرف أي فضول دفعني لأرفع السماعة، وكم ابتهجتُ حين سمعت صوت سيدة تتكلم العربية، من حسن الحظ أنه لم ينتبه أني أتنصت كانت السيدة تتحدث من عمّان، وقد حزرتُ أنها وزوجها من أصدقائه الأعزاء والقدماء صوتها مرتشح بقهر كبير، لدرجة

تضطر من حين لآخر إلى التوقف عن الكلام مبتلعة غصّة ألم أو لتسيطر على صوتها، امرأة تتألم بقوة من تصرفات زوجها الذي يهينها ويحقّرها منذ سنوات دون أن تعرف السبب، تقول بأنها لم تقصّر معه، وكانت زوجة مثالية طوال ربع قرن، وأخذت تسرد تصرفاته المهينة، كيف أنه منذ سنوات لم يتوجه إليها بكلمة، وحين تخاطبه، لا يلتفت إليها، وإذا اضطر أن يبلغها أمراً، فمن طريق وسيط، إما أولاده أو الخادمة... وقد بذلت جهوداً جبارة لتعرف سبب تعامله اللاإنساني معها فلم تنجح...

كنتُ أقبض سماعة الهاتف بقوة، وقلبي يطرق بإثارة هائلة، ترى ألا يشعر زوجي بالخجل وهو يسمع شكوى تلك المرأة، التي تصفه بطريقة غير مباشرة... هل أراد القدر أن يساعدني بطريقة ما... كم كنتُ متلهفة لأسمع ردّه، وبعدَ بوح المرأة الطويل، صمتتْ منتظرة جوابه، لكنه أصدر همهمة غير مفهومة، وأخذ يتأتئ بطريقة مضحكة، قبل أن يعرب عن دهشته وألمه مما سمع، وختم كلامه الموجز بأن الرجال وحوش أحياناً... وبأنه لم يتوقع أبداً أن صديقه الفنان والعبقري في الرسم، والأستاذ الجامعي في مادة العلوم السياسية، يكون بهذه القسوة العجيبة...

انتابتني رغبة خبيثة أن أخرق المكالمة وأصرخ به، أنت أكثر وحشية وسادية منه. لكني كبحت رغبتي المجنونة... يبدو أن كلامه أدخل شيئاً من الطمأنينة إلى قلب المسكينة خاصة حين وعدها أنه سيكلّم صديقه الذي سيزور واشنطن كأستاذ زائر لمدة ثلاثة أشهر.

اعتقدت أن هذا الاتصال سيضعه في مواجهة مع نفسه، لكنني فوجئتُ به يتناول غداءه وحيداً، تاركاً الصحون المتسخة بأنانيته لأنظفها، ثم صعد إلى غرفته صافقاً الباب وراءه بقوة، وظلّ حبيس غرفته لساعتين، ثم خرج لابساً معطفه الثقيل وقبعته الصوفية، وقفازين من

الجلد الأسود، تخيّلتُ أنه سيخنقني لابساً قفازي الجريمة، خرج دون أن يلتفت إليّ، وسمعتُ هدير سيارته يبتعد... أسرعت إلى الهاتف، اتصل بأحبتي هناك، استمد الدفء من صوتهم، أحتاج لصوتٍ بشري يقيني من الجنون، لن أفهم أبداً لماذا كنتُ أضحك وأبدو مفرطة المرح وأنا أكلمهم، لدرجة حسدوني على نعمة أني أعيش في واشنطن، لكن لم يفهموا لماذا كان صوتي يرتعش بقوة من حين لآخر، مغالباً دموعاً سخية تغسل وجهي كراحة من حنان...

• • •

كنتُ استغرب كيف لايشعر بالخجل وهو مستلقٍ في فراشه عارياً تماماً، وجسده الرخو الضامر والذي يحرك غثياناً عاصفاً في روحي، فخذاه الضامران الأملسان وقد ألصقهما بقوة ببعضهما مخفياً عضوه الهزيل بينهما، كنتُ أعتلي فراشه والتصق به وأنا بحالة جمود تام، شاعرة اني بلا روح، ومن نافذة شرفته العريضة يلوح لي بحر بيروت الأسود مشفقاً شامتاً، وشديد الاغواء كي ارتمي في مائه يخلصني من دَنس العجوز...

كنتُ انفصل عن المشهد، وأتفرج على العجوز العاري المهترىء، وقد اسند ظهره إلى ثلاث وسائد كبيرة، والمرأة الشابة بجانبه وقد تجمدت ملامحها وثبتت نظرتها الذاهلة على بحر بيروت الداكن، لم تكن المهزلة متمثلة بهذا الخداع الفاضح فوق الفراش، بل لأن العجوز يعتمد على المرأة الشابة أن تثيره، وتستنهض من جسده المطفأ مشاعر دافئة عَرفها ذات يوم بعيد.

كنتُ أعجب لحاله، فهو رجل لم يعد يشتهي امرأة، إنما يرغب ان يحرّض في جسده الميت شهوة ما، تُشعره انه لا يزال حياً، كان يتنهد

بإعياء وهو يطلب إليّ ان أتعرى تماماً، فارمي قميص النوم جانباً بحركة ملل، يبتسم بمرارة وهو يتأمل جسدي ويقول بسخرية : خسارة.

كانت أصابعه المعروقة تداعب شعري، او تنزلق إلى نهدي، مُداعبة آلية بالتواتر ذاته، وبحركات تبدو أبدية، حركات تذكرني برّقاص الساعة، وكنت أتفرج عليه وهو جالس كصنم ويده منفصلة عنه تنتهك جسدي، وأتأمل ثديي الذي أحسه منفصلاً تماماً عني، ككائن لا يخصني ولا تربطني به صلة، وأصابع يده الاشبه بالاخطبوط... أجبر نفسي على التحمّل، وانتظر ان يوقف هذه الحركة، لكنه لا يفعل كما لو انه يدور حبات مسبحة في يده إلى مالانهاية...

افقد قدرتي على التحمّل، فأنتفض بغضب مكتوم، وأتظاهر اني تعبتُ من الوضعية ذاتها في الاستلقاء، يتفجر خبثٌ مُعربدٌ في أعماقي.

حين ازور ابني وأهلي وألتقي بصديقاتي الصابرات الممرضات، أحس ان الدفء يغمرني كما لو ان شمساً دافئة طال احتجابها غمرت جسدي البارد فجأة... أستلقي على الفراش الذي طالما لعته وكرهته، الفرشة الثقيلة من القطن المرصوص والتي عمرها أكثر من أربعين عاماً، اعتذر لها عن أحقادي واحتقاري لها، استمد منها الطمأنينة والدفء... أمد يدي حتى أقصاها، وأداعب شعر ابني الغافي في السرير المجاور لسريري... أفكر اني احبه وانني أتمنى لو لا انفصل عنه ابداً لكنني سأؤمن له مستقبله عن طريق زواجي من العجوز، أفكر بزميلاتي الممرضات اللاتي تركن أطفالهن وسافرن إلى السعودية ليعملن هناك سنوات لتأمين مصاريف الأولاد... احداهن صارت مدمنة على الفاليوم لأنها لا تستطيع ان تعيش ان لم تسكن باستمرار أوجاع أشواقها لأطفالها...

احياناً استيقظ مذعورة، متنبهة لرعشات رعب تعبر جسدي، إذ أعي

بعمق كيف أتحمّل طبع زوجي النزق، وصمته المتعالي الذي يدوم اياماً، وتلك النوب التي تنتابه من رغبته بتجريحي وإهانتي دون سبب... أكثر ما يدهشني انني قد اتخذتُ قراراً لا واعياً بأن اقبل كل شيء يصدر عنه، لأنه المُفكر !! كما لو ان كلمة مفكر التي تسبق اسمه تعطيه فوقية سلفاً...

وأنا بعيدة عنه، أجلس في المقهى البحري الرائع الفقير ذاته، أدخن الاركيلة وأفكر بترف عيشي مع العجوز، في البيت الساحر المعلق بين السماء والأرض أتفرج على تلك الانسانة، أنشر صورها على المدى الأزرق... عجباً أي عيش هذا !!

كنتُ أعيش معه عيشاً متقطعاً، باذلة كل ما بوسعي كي لا اشعر بالمهانة، كي أعطل أحاسيسي، وأنبّه نفسي لمزايا العيش معه، ألا يكفي انه فتح لي أبواب بيروت وانني سأحصل على الجنسية الاميركية قريباً، وسأعطيها لابني... ألا تستأهل بيروت تضحيات عظيمة كي تضمنا إلى صدرها !

أعرف تماماً انني تحملته وتحمّلت قرف شيخوخته، لأنه ارتبط على نحو تام ببيروت، فأن أكون وأنزرع في بيروت يعني ان أكون في بيته... وان أعود إلى مدينة البلادة حيث ضاع شبابي، يعني ان اخرج من بيته.

أغمض عيني لأكثف إحساسي ببيروت، كما لو انها روح تتجمع في ذرات تزداد تكاثفاً والتحاماً... استسلم لسحر الخيال وأتوغل في زمن مدينة تسحرني.

ياه ما أمتع التنفس في بيروت، لم أكن افهم فيزيولوجية الشيخوخة، هل هو متألم ان حياته على وشك النهاية وهو المصاب بسرطان الدم !! أهذا سبب تجهمه الدائم، لكنني عرفت من أصدقائه ان هذا طبعه في شبابه ايضاً.

أبتسم وأنا استعيد يومياتي معه، كيف اجلس ملاصقته على الأريكة العريضة التي تعطيني احساساً بالترف، أمامنا النافذة العريضة بعرض الحائط، يسرح نظرنا عبرها مرتاحاً عند خط المدى، مفتنين ببحر بيروت الذي يحتضننا كيفما تحركنا في بيته الساحر، أحس ان نظرتي تلتقي مع نظرته من خلال الحركة الناعسة لأمواج البحر، يتناهى إلى سمعي صوت الحياة بعيداً غامضاً كأنه قادم من عالم آخر، أتأبط ذراعه النحيلة، لا يبدو عليه أي ارتكاس، لكني أحس بارتعاش الخوف في أعماقه انه يخشى الموت، ويتشبث بي كما لو كنت أؤجل موته بطريقة ما.

موسيقاه الكلاسيكية تصيبني بالكآبة، تشعرني بالتشتت... أركز احساسي في مساحة التماس بين ساعدي وساعده، اضغط على ذراعه قليلاً، لا يبدو انه انتبه لتلامسنا، أتأمل بطرف عيني وجهه الذابل، بجلده الترابي المبقع ببقع الشيخوخة البنية الداكنة، وأهدابه الشاحبة القصيرة وقد تساقط معظمها، وذقنه المترهلة... فجأة اشعر كم هي مأساوية الحياة، ويملؤني صوت موسيقاه توتراً يصعب احتماله، أتمنى لو تنقطع الكهرباء، فانا لا اجرؤ على إطفاء المسجلة... اذ ان بيننا تواطؤاً خفياً بأن رغباته وما يريحه ويسعده هو هدفي...

أحياناً يستوقفني تعبير عابر في نظرته، تعبير سرعان ما يتلاشى، شيء ما في نظرته يجعل قلبي يرتعش بقوة... انه يائس وخائف من النهاية، كما لو انه سيخطو خطوتين وينتقل لعالم الموت.

أبو الهول الصامت - هكذا اسميه في سري - الذي لا يتكلم إلا نادراً، لكنه مُستمع بامتياز، يتذوق حديثي كما يتذوق نبيذه الأبيض البارد ومن افخر الأنواع. يحب ان احكي له قصصاً عن الهُناك... أتدفق بالقصص، ترسم كلماتي ألواناً وأشخاصاً وأمكنة، أشعر بالإثارة والمتعة وأنا أتفرج عليه متنبهاً لكل كلمة أقولها... أحسه حين يسمعني كأنه

يتفرج على فيلم سينمائي شديد الإثارة... أجلس بجانبه أداعب زغب رأسه، وهو كتمثال يرنو إلى البحر، صامتاً، جامداً، ولولا بعض تنهدات تنطلق من وقت لآخر من صدره لاعتقدتُ انه ميت.

بعد ان يغفو حوالي التاسعة مساءً، أفرد أجنحتي وأطير، ورغم اني أقف بلهفة منتظرة المصعد لأهبط من الطابق العاشر الى الأرض، إلا أني أشعر اني أطير، كما لو اني عصفور اكتشف ان باب قفصه مفتوح، فقر منتشياً بحريته شاعراً ان السماء له، والبحر له... والأغصان والبشر والدنيا كلها... أطير في بيروت من السعادة، من نشوة الإحساس بالحرية، يصعب ان اصف نشوتي في بيروت، يكفي ان أقارن بين الطريقة التي امشي فيها في بيروت متقافزة، مرحة سعيدة، أدندن بأغنيات، وأوزع ابتسامات للمارة، للقطط، لإشارات المرور ولحاويات القمامة، وأتخيل نفسي كيف أسير في مدينة البلادة مهدودة القوى مسحوقة النفس، يائسة، بل حائرة في يأسي، لا اعرف كيف سأهرب منه، عارفة انه يستحيل ذلك لأن يأسي هو ظلي... لكن لماذا أعذب نفسي بالأسئلة ؟! لماذا أتساءل الى مالانهاية ما الذي جمعني بالمفكر العجوز المتكبّر القادم من وراء المحيط، والذي أراد ان يعيش ما تبقى من سنوات عمره القليلة في بيروت ؟ عارفاً انه لن يعيش طويلاً لأنه مصاب بالسرطان، ما الذي أراده مني ؟ هو المدجج بأفكاره ونظرياته التي تحوّلت إلى كتب عن الشعوب العربية التي لم يعش معها ابداً... وأنا القادمة من القبر، من التحنيط والعزلة والقهر والموت الفكري والروحي، لكنني المحتفظة بنقرة أمل في قلبي، في أعماق روحي شيء يرفض الموت، يتجلى بقلق منهك... لا يهم كيف التقينا، لكن بالتأكيد كان كل منا بالغ الأهمية للآخر... لقد اعترف في لحظات حميمية بأنني أهم وأروع مافي حياته، وانا سقطتُ في هوى كل

شيء في حياته، كتبه، بيته، اصدقائه، أفكاره، تجاربه الحياتية، إلا هو... لكن ألا يجب ان اعترف من باب النزاهة ان شعوراً يشبه الحب قد جمعنا، شعور عذب حقيقي لا يمكن إنكاره، لا يهم أي اسم نطلق عليه... والا كيف أفسّر تلك اللهفة اللاهثة التي كانت تهز جسدي كلما عبرتُ الحدود واقتربت من بيروت، وكيف ترشح راحتيّ بندى النشوة وأنا استعجل المصعد كي يصل الطابق العاشر، حيث يكون بانتظاري واقفاً حاملاً فوق كتفيه النحيلين المقوسين ثقل أشواقه المتخمرّة لامرأة دافئة اقتحمت حياته كمعجزة... امرأة تؤجل موته...

أدخل بوجه ساخن متورد من السعادة، أضع حقيبتي الحمراء العتيقة ارضاً واقترب منه وأنا اضحك، يبتسم خجلاً ويضمني بين ذراعيه الواهنين، اللذين سرعان ما تدّب فيهما قوة عجيبة، فيضغطني إلى صدره دون ان يتفوه بكلمة لكن أشواقه تحاصرني وتدغدغني كما لو انها وخزات ناعمة...

ثم يسألني بعد وقت يبدو لي طويلاً : كيف كانت رحلتك؟! هل تعبت؟

فأقفز في الصالون الفسيح، وعيناي تتأملان بحر بيروت بوَله، وارتمي مجدداً بين ذراعيه، وأنا أتنشق رائحة صابون الغار التي تفوح من جلده، واصرخ : أتسأل ان تعبتُ؟! ما هذا السؤال... في بيروت لا اعرف ما معنى التعب، ادخل حقيبتي الحمراء إلى غرفتي، لأول مرة أتذوق معنى ان يكون لي غرفة تخصني، أرى الأشياء التي تركتها كما هي، الزهور الحمراء الاصطناعية زجاجة العطر، لفافات الشعر، السلسلة الذهبية المنتهية بقلب مرصع بأحجار ملونة، ثيابي الرياضية الزرقاء.

للحظة انطفىء، أفكر انه لو كان شاباً رشيقاً للحقني الى الغرفة،

ولتبادلنا عناقاً حاراً، ولمارسنا الحب، لكنه ينتظرني في الخارج واضعاً نظارة القراءة على عينيه الذابلتين، غارقاً في تقليب الصحف الانكليزية والعربية، منتظراً ان أبدل ملابسي واخرج إليه، أعد القهوة لنشربها معاً في الصالون او على الشرفة ان كان الطقس لطيفاً... نرشف القهوة وسط رذاذ كلماتي التي تنعش روحه المتعبة من الوحدة والكآبة... ومن وقت لآخر لا أستطيع كبح ضحكة تنفلت من بين شفتي، ضحكة تعني : أي قدرٍ عجيب جعلنا نلتقي، هو القادم من واشنطن حيث عاش نصف قرن هناك، متبوءاً في شخصية المفكر الأكاديمي، وأنا القادمة من مدينة البلادة الأشبه بمقبرة.

لطالما ارقني هذا السؤال : هل يحتاج الرجل والمرأة الى وهم الحب كي تنشأ بينهما علاقة؟! وهل الحدود واضحة بين وهم الحب والحب؟! وماذا تفيد هذه التساؤلات حين تشتبك حياتان وقدران؟!

لا أنكر انني كنت أحس بإثارة شديدة في بداية علاقتنا، إثارة من نوع خاص سببها احساسي المستمر اللطيف بأنني مصدر فرح عظيم وامتنان لعجوز لم يتوقع ابداً ان يكون القدر كريماً معه في آخر عمره، وهو المريض بالسرطان... احساسي انني مصدر الدفء والفرح والسعادة لرجل ذي شأن مشهور ومفكر... كنتُ أتفرج عليه كيف يمتص كل كلمة تصدر عني، يمتص دفئي، ونضارتي، وشبابي كما لو انه يتمنى ان يلبسني، ان أغطيه، ان أقف حائلاً بينه وبين الموت الحاضر أمامه كل لحظة.

كنتُ أحس وأنا أضم جسده الضامر النحيل المهترىء اني أهبه الحياة، انني خالقة وانني عظيمة، وكانت تلك العلاقة الغريبة والاستثنائية تعطيني نشوة هائلة تنتشر على ماضيّ كله وتمحو كل ندوب الألم واليأس فيه.

نهاية حياته المؤكدة والقريبة كانت اكبر حافز لي لأعشق الحياة، لم يخطر لي في البداية انه ينتهك جسدي، حين يلمسني ويطلب إليّ أن أتعرى، فيتفرج على جسدي بانبهار وأسى، ثم يلمسني بتعبد وانبهار...

كانت مشاعري في تلك اللحظات مشوشة ومختلطة، كنت أتفرج على حالة غريبة لم أعشها ولا اعرف كيف عليّ ان اشعر.. لكن في لحظات كثيرة كنتُ اشعر كما لو ان الزمن قد توقف عند الذروة.. كما لو ان ذروة الزمن رجل عجوز مريض بالسرطان، يداعب جسد امرأة شابة بكامل صحتها...

عليّ ان اعترف ان هذا الرجل المتكبر والمتجهم دوماً قد علمّني بطريقة اجهلها تماماً كيف أتحدى الخوف... من مثله بيّن لي ان كل قصة بسيطة أحكيها له عن الهُناك هي شيء ثمين، ثروة لا تقدر بثمن.

في حياتي لم اشعر بمزاياي وطاقاتي كما شعرتُ وأنا معه، كان مابيننا شيء عظيم متفرد أعجز عن استيعابه، كما لو انني ـ أنا وهو- حجر الأساس في مشروع عظيم... معه كنتُ اشعر اني قوية، وموهوبة وان هوّة هائلة تفصلني عن حياتي هناك... وانني سعيدة لأني مزروعة في حياته وفي بيروت... هنا في بيروت أحس بالعافية والنضارة والصحة... هناك أتقوقع واكتب وأتحنّط من اليأس...

في الواقع بدأتُ وجوداً جديداً معه، بامكاني ان احكي له كل شيء، كل شيء هذا حقيقة شعوري نحوه، يستحيل ان أريه شفقتي عليه واشمئزازي من جسده، كلانا يعرف ان حياته انطفأت، وان كيانه يبس كغصن مقطوع، لكنه ظل محتفظاً بروح عنيدة قاسية متكبرة، وظلت روح النضال الكامنة في نفسه تفتنني رغم جسده المستسلم للهزيمة.

كان يتناول أدويته كل صباح بشيء من الاحتقار للمرض والدواء،

كما لو انه مترفع عن مصابه، كنتُ ارشف قهوتي وأنا أتأمله بنظرات مفحصة شاعرة ان كل حياتي وكياني في حالة اختبار... ما الذي افعله هنا، مع المفكر...

لماذا هربتُ من حياتي هناك لأشاركه أيامه المثقلة بالصمت الثقيل والمعاناة مع مرض سيهزمه قريباً... ما الذي يدفعني لأقاوم ضجري الخانق معه... ومع ذلك لا أستطيع أن اتركه... شعور قوي يلحمني به... لعلي احتاج ان أتشبه به، ان امتلك روحه العنيدة الجبارة... أحس وأنا معه انني قوية، ولا افتقد الشجاعة... واعرف ان ثمة تغيرات كبيرة تحدث في روحي لا اعرف تفاصيلها لكنني متأكدة انها ستأتي بثمارها قريباً... لا اعرف متى ولا كيف؟!

كنا متكاملين بطريقة مذهلة، فهو متخمّر بالمعرفة والحكمة والخبرة، وأنا بركان من المشاعر والأحاسيس الخام العفوية والطازجة... وكنا ـ كل على حدة ـ نعرف ان تزاوج كيانينا وروحينا سيوّلد مخلوقاً مدهشاً، وكانت مهمتي رعاية هذا المخلوق.

كان هذا الرجل أشبه بنبوءة حياتي، لقد أعطى حياتي ذات الطول والعرض فقط العمق... بعد ان عرفته تعلمّت سبر أعماقي وفهمها وتحليلها... معه احقق التوازن الذي عجزتُ دوماً عن الوصول إليه... رغم إدراكي ان العيش معه يعني تحمل سلسلة من الإهانات ونوباً من الاختناق من الضجر، لكنني لم أتردد لحظة في الاستمرار معه لأنه الوحيد الذي أهداني معجزة ان أعيش في مكان دون ان يفسد الماضي الحاضر، لا اشك لحظة اني ولدت ولادة جديدة في بيروت، وانني استقبل نهاري كطفل صغير يدهشه كل شيء، من مثل بيروت يهديكَ النسيان، من مثلها يرمم جروح الروح...

• • •

في كل مرة حين أؤمن ان كل شيء قد أنجز وأخذ شكله النهائي، تفاجئني الحياة بتوقعات تطيح بحساباتي وتوقعاتي، هل كنتُ أتوقع ان مجرد ورقتين وقعتا صدفة بين يدي ستحرفان مسيرة حياتي... كان مجرد راكب، لمحت وجهه عرضاً في المرآة الأمامية لسيارة التاكسي التي تقلنا إلى بيروت، وكعادتي كنتُ أحجز مكان راكبين وأجلس قرب السائق... وهو كان احد الثلاثة الذين يجلسون في المقعد الخلفي... لم ينطق بكلمة طوال السَّفَر، وحين ترجلنا عند الحاجز الحدودي صدرت عنه تنهيدة نفاذ صبر، وقال مخاطباً نفسه : الله يلعن الحدود والحواجز.

أنزله السائق في شارع برج حمود، رأيته يتعمد حاملاً حقيبة متوسطة الحجم لكنها منتفخة، وضع السائق حقيبتي في الخلف مكان الرجل الصامت... وحين وصلتُ إلى بيت العجوز الساحر، انهمك السائق بنقل حقيبتي الكبيرة إلى المصعد وأحضرت الحقيبة الصغيرة من المقعد الخلفي، حانت مني التفاتة إلى ارض السيارة فرأيت ورقة مطوية، ولا اعرف أي فضول دفعني لالتقاطها، وعرفتُ انها سقطت منه، فتحتها على عجل لأعرف ان كانت اوراقاً هامة، لكن منذ السطر الأول شعرتُ ان أنفاسي تتسارع، كأنني أنخطف إلى زمنٍ مضى، زمن مشترك بيني وبين هذا الغريب... ارتعشت يداي من الكهرباء الخفية في الأوراق، دفعت الأجرة للسائق، وحين هم بالانطلاق، استجمعت شجاعتي وسألته :

– من يكون هذا الراكب الصامت الذي نزل في برج حمود؟

وكي لا اترك لخيال السائق ان يُقحمني باتهامات أسرعت أوضح بانه يشبه أخ صديقة لي.

قال : انه طبيب سوري يعمل في احد المشافي في بيروت، ويسكن

في شقة ببرج حمود. لم أجرؤ ان اسأل ما اسمه؟

حين دخلتُ البيت داهمتني رائحة الشيخوخة، وبدا ترف الأثاث باعثاً على البأس، كانت جهينة تمسح بلاط المطبخ، وزوجي العجوز يجري مقابلة صحفية مع صحفية شابة تنظر إليه بافتتان، لم يغير من وضعيته حين دخلت، ولم يعكس وجهه أي تعبير بقدومي... أحسستُ بمتعة كبيرة بسبب سخريتي من غروره المضحك أيريد ان يفهمني انه غير مبتهج بقدومي، حسناً، لن أبالي، ولن اقترب منه واقبله متظاهرة اني اشتقت إليه، سأصفعه أمام ضيفته وأتسلل إلى غرفتي...

طلبتُ من جهينة ان تعد لي القهوة وتدخلها إلى غرفتي... وقبل ان أتربع على سريري وأفرد الورقتين أمامي، اتصلت بحبيبي الوحيد أطمئنه انني وصلت بالسلامة، وأؤكد له انني لن أطيل غيابي، بضعة أيام وأعود بعدها لأبقى معه اسبوعين.

رشفت القهوة، شاحذة كل قواي لأقتحم عالم الطبيب المجلل بالصمت، وقبل ان اقرأ تأملت خطه، حروف مرتبكة، كأنها متعثرة بشيء ما يقلق روحه... وكلما توغلتُ في القراءة كنتُ أدرك اني لم اقرأ بهذا التركيز والانخطاف من قبل، ومن شدة حرصي على ما قرأت، وجدتني اجلس إلى طاولتي لأنسخ ما كتبه الطبيب الصامت:

"كان نجاحه يضطهدني، يشعرني كم أنا مسحوق ومخذول، أشعر ان وجوده فيضٌ من نور ووجودي ضباب، لستُ سوى انعكاس باهت له، هو الأصل هو التمثال الراسخ وأنا مجرد صورة، مجرد سراب.

مدججٌ بنجاحه، بعملياته، بمرضاه، بثقته بنفسه التي تجعل الهواء حوله يتذبذب بإشعاعات من لمعان نجاحه، نجاحه يتراكم فوق قلبي كطبقات من حصى ثقيلة، أتلاشى في حضرته وأذوب، أكتشف اني لاشيء، لاشيء، يتحطم احساسي بذاتي، أحس عيني قمراً فارغاً

ميتاً، وعيناه تبرقان بوميض النجاح.

لا أقوم بأي فعل، متحنطٌ في عيادتي الأشبه بخرابة، كراسٍ نتأت مساميرها لم أغيّرها منذ دهر، جدران تقشر طلاؤها، أحس بتعب مميت رغم انني لا أتحرك من مقعدي منذ ساعات، تعبٌ بسبب النزف البطيء والأليم لروحي الغارقة في فراغ.

أقارن زمني بزمنه، تمر ساعاتي فارغة كتثاؤب طويل، أما زمنه فيتدفق حيوية في كل ساعة ينهمر عليه المال والنجاح والشهرة، يحوم حوله المرضى والمعجبون، المؤمنون بتفوقه وعبقريته، انتظرُ فتات مائدته، انتظر ان اسرقَ بعض نجاحه، زمني متجمّد، زمنه يتدفق كشلال.

ما ان ألقاه كل صباح حتى أحس بسرطان الغيرة يعتصرُ أحشائي، أنطوي من ألمي يتجسد أمامي فشلي كقزم مشوّه أمام بهاء نجاحه الأشبه بانسان خارق، أتوق ان اتماهى معه، أن أكون جزءاً منه، أن اسرقَ روحه وأكونه، لأتذوق عظمة النجاح لأنسى ذاتي ولو للحظات، أحس كيف تشحن عيناي بالدموع دون ان ابكي عارفاً انني لو بدأت البكاء على نفسي، فلن يتوقف سيل دمعي.

يحكي عن مرضاه وعملياته كأنها جزء من حديث عادي عن الطقس والطعام، يجعلني حديثه البرّاق الرائع كخرقة عتيقة مرمية على عتبة باب نجاحه، أستقبل حديثه بابتسامة وقلب يدمى من سهام الغيرة.

طوال الوقت أحس حديثه يسحقني، ولا املك أية سلطة للتحكم بمشاعري، وحده خيالي يسعفني، ينقل من احساسي بالانهيار والدونية، أتخيّل انه مصاب بالسرطان وسيموت، او انه صار مشلولاً بعد حادث سيارة، او انه فجع بأحد أولاده، وبالبت بهم كلهم... تتفتق كل

خيالاتي لتصوره مهزوماً منكسراً، مثلي تماماً... لايتساوى بي إلا بطاقة خيالي.

لكن من قلب لهب الغيرة يبزغ شعاع مختلف لا يحرق ولا يؤذي، شعاع حب حقيقي له، انا أحبه ومعجب به، انه يفتنني ويأسرني ويمثل لي عظمة النجاح والتفوق، ياه أتمنى لو أكونه، وفي نهاية طعم مرارتي اللاذعة، أتذوق طعم نجاحه الحلو. ما يملكه حقيقي، ما املكه سراب، أوهام، وخيالات.

سنواتي متجمدة، ليس في قلبها تغيير، جيوبي خاوية، أدس يديّ المتكورتين فيها، وأقدّر ماذا أستطيع ان اشتري بنقودي القليلة، أحس بطمأنينة الحيوان الذي يجد طعامه كل يوم، أصاب بالذهول حين احسب المال المتدفق عليه من العمليات، ومن المرضى الذين يقصدونه بالعشرات كل يوم في عيادته، يتذمر من كثرة العمل، يتوق للراحة، يتمنى ان يرجع إلى بيته قبل منتصف الليل... ما يدّخله يوم احتاج الى سنوات طويلة كي أدخله ؟!

تصيبني تلك الحقيقة بالشلل التام، أحس اني أتلاشى وأذوب اتمنى الموت، أتمنى فناء البشرية، ورغماً عني أجد أفكاري ومشاعري وكياني تأخذ منحى وحيداً، الموت... في الموت عدالة، أكتشف غباء الناس حين يخافون الموت، من مثله يحقق العدالة ؟ من مثله يطفىء نار الغيرة المفترسة ؟ لكن أليس الخاسرون وحدهم من يطمعون بعدالة الموت ويؤمنون بها ؟!

مزاجه متوثب دوماً، مزاجي مطفأ كمزاج الخاسرين والفاشلين، أطرُق في حنائي العتيق متأملاً عمق فشلي، تتسع مسامي لاستقبال ذبذبات صوته، ضحكته، صوت رشفه للقهوة على عجل قبل ان يدخل غرفة العمليات، يمر في الرواق الطويل المنتهي بغرفة العمليات

كالفاتحين، كالأبطال المنتصرين تلحقه دعوات أقرباء المريض، وتتعلق النظرات المفتنة به بذيول ردائه الأخضر..

أمرّ بجانبه، لايلحظني احد، لايبالي بي أحد، أشعر انهم يتبادلون نظرات سخرية حين أمر، لا حاجة بي ان اسمع تعليقاتهم الجارحة، لكن أذني تطنان بصدى عباراتهم : مسكين ليس عنده مرضى، لا احد يقصده ليجري له عملية.. عيادته تُصفر بالوحشة والفراغ، يصادق الغبار المتراكم فوق الأثاث العتيق وفوق روحه.

متربعٌ في قمة مملكة الفشل أتفرج على نجاحه، أعوي من ألم الغيرة، أضغط بقوة براحتيّ على بطني كي أسيطر على وجع أحشائي المعصورة بعضّات الغيرة.

لستُ الوحيد الذي تنهشه الغيرة من هذا النجم، ربما أجد عزائي وسطهم، فأنا واحد من آلاف مؤلفة، قطيع محبط عاطل عن العمل، راتبنا بالكاد يكفي الخبز اليومي شهاداتنا الجامعية تحوّلت لأدوات لتذلنا وتحقرّنا، وقتنا يطير في الثرثرة...

كل صباح نتجمع حول طاولة بطالتنا، نرشف فنجاناً اثر فنجان من القهوة التي نذوب فيها مرارتنا واحباطنا... كلامنا كالهدير، لايتمخّض عن شيء... أتفرج على أنفسنا كيف يوحدنا الفشل، وتوحدنا أكثر، الغيرة من النجم... قلوبنا نخرها القهر وهدّها اليأس، نبتسم بوجوه بعضنا مدّعين المرح والفرح، عارف كل منا كم ننافق لا نكّن وداً حقيقياً لبعضنا بل مشاعر كره تفوح رائحته في الهواء... وجوههم مرآة وجهي، وجوهنا متعبة ذلك التعب الشاحب الباهت : تعب البطالة.

يدخل النجم مكللاً بالنجاح، أحس نجاحه كهالة نور حول وجهه، كل كلمة من كلماته تفيض حيوية، أي عبارة يقولها ترسّخه في ارض الواقع، وترسخنا نحن في الأوهام هو الأصل ونحن الظل... لاحظتُ

انّنا جميعاً نتظاهر بالسعادة حين نكون في حضرته، كما لو انّنا نحصّن أنفسنا بطريقة لا واعية تجاه طغيان شخصه المتألّق المُبهر بنور النجاح... لم نكن نفهم لِمَ نتخذ آليّة دفاعية ونحن في حضرته كما لو انّنا أشبه بقناديل الماء الهشّة التي سرعان ما تتلاشى تحت سياط اشعاعات نجاحه...

لا كيان لنا، لا أثر، لا فعل... نشرب عدة فناجين من القهوة ليس لحبّنا لها، بل لأنها الوسيلة الأمثل لتبديد الوقت، نلوك أحاديث متذمرة متكررة لا جدوى منها عن الفساد والفاسدين، ثم نغادر المشفى، وهو يدخل غرفة العمليات يعمل عملية تلو الأخرى، وكل عملية تزيده قوة وحيوية وتألقاً، وتترك في روحنا ثقوباً تنزّ منها طاقاتنا الحيوية... كلما ازدادت عملياته، يزداد يأسنا، وتعبنا واحباطنا... ما ذنبه ان كان نجماً لامعاً، ما ذنبنا ان صرنا غبار.

أتفرّج على جلساتنا الصباحية كم نكره بعضنا، ربما لأن كلاًّ منّا مرآة فشل الآخر نتظاهر بالمحبة والمودة والتعاطف مع مشاكلنا، بينما قلوبنا تتراقص فرحاً لأية مصيبة تهبط على احدنا... علمتني مملكة الفشل انه لا يمكن للفاشلين ان يحبوا أحداً حتى انهم يكرهون أنفسهم، كل منا يعرف ان أحاسيسه هي ذاتها أحاسيس الآخرين تجمعنا الأحلام المُجهضة ذاتها، لم نجمع ثروات ولم نصبح أغنياء من ممارسة الطب... ألتقي بالكثير من زملائي في سوق الألبسة المستعملة، نهرب من المواجهة وان لم نفلح بالهروب، ندعي اننا نشتري ثياباً لأسرٍ مستورة... يفوح من حديثنا الكذب والنفاق، وكلها صور متعددة لألم حارق مستمر يحرق أعماقنا بلا رحمة انه ألم... *

انقطعت العبارة، يبدو ان هناك صفحة او أكثر ضائعة... لماذا هزتني كلماته لهذه الدرجة، كما لو انها تعنيني وتخصني، كما لو اني

كتبها، لماذا شعرتُ ان حياتي تتقاطع مع حياة هذا الغريب، ندمت لأني لم احفظ وجهه، ولم أتبادل معه أية كلمة طوال السَفَر.. لكنه كان يحيط نفسه بشرنقة تعزله عمّا حوله، ورغم ان الراكبين بجواره لم ينقطعا عن الحديث مع السائق، فانه أبدى صموداً وصراحة كي لا يشارك بالحديث. فهمتُ الآن صمته، فهو صمت احتقار... لكن يا للكتابة الصافية كالألم النقي، يا للكلمات المؤثرة الصادقة التي تعرّي النفس بلا خجل ودون ان تبالي بحجم الأذى الذي تحدثه في النفوس...

ترى أين بقية الأوراق؟ ولمن كتبها؟ هل سيفتقدها؟ بالتأكيد سيعتقد انه أضاعها او نسيها في مكان ما، أو لعله نسيها تماماً... أتراه يكتب دوماً؟! ومن هذا النجم الذي تحدّث عنه! ترى في أي مشفى كان يعمل؟! ولِمَ هو محبط ومتألم لهذا الحد... ثم كيف قذف نفسه في بيروت... كيف استطاع أن يؤمن عقد عمل؟

لم أتمكن ان أجيب عن هذه الأسئلة، لأن زوجي استدعاني، وقال بصوته المرتبك والواهن اننا سنخرج للغداء مع الصحفية... تمنيت لو اعتذر وأتعلل بتعب السفر، لكني تراجعت لسبب وحيد غير منطقي، اذ قد أكون محظوظة وألتقي بالغريب الذي كان لي الحظ ان اقرأ ما كتبه، غير عارف اية بلبلة أحدثها في روح امرأة أضاعت نفسها.

• • •

لا اعرف لِمَ كنتُ انتظر كل يوم ان ألتقيه صدفة؟ لماذا خلقتُ هذا الوهم في نفسي؟ هل أريد ان ادخل شيئاً من الإثارة في حياتي؟ أتنتاب البشر نوب غيرة من أبطال الأفلام او القصص حين يلتقي البطل مع البطلة صدفة، وينشأ عنها حب او أحداث مثيرة؟! لكن هل حقاً خلقتُ وهم انتظاره، أم انني أكن شعوراً حقيقياً غامضاً تجاه هذا الغريب،

شعوراً أقرب للحدس بأن ثمة شيء جوهري يجمعني به كما لو انه أنا بطريقة ما ! كما لو ان حياتي تتقاطع مع حياته في نقاط كثيرة.

قرأت الورقتين مرات عديدة، محاولة كل مرة ان أتلصص من خلال الكلمات على حياته... انه طبيب مُحبط ويائس ومتألم، تنهشه الغيرة من هؤلاء النجوم الذين لمعوا في الطب وصاروا نجوماً، وحققوا ثروات...

كل يوم حين أتسكع في شوارع بيروت، تحديداً الرملة البيضاء، وشارع الحمرا كنتُ أتوقع ان أصدفه، ورغم اني لم احفظ وجهه بدقة، إلا انني كنتُ متأكدة انني سأعرفه ما ان ألمحه... بعد شهرين من انتظاري لتلك الصدفة، خفت حماسي واحسستُ انني افتعلت كل هذه القصة المفبركة، أية سخافة ان اشعر ان ثمة أشياء كثيرة تربطني مع غريب لمجرد ان ورقة سقطت منه، وتفجر سؤال خبيث في داخلي شامتاً ساخراً : ما أدراك انه هو الذي كتب الأوراق؟! لعل هذا مقطع من قصة او رواية، لعل شخصاً آخر كتبها؟!

كنت عائدة من سلسلة مشترياتي في شارع الحمرا، ثياباً رياضية لإبني، حذاء رياضي له ولي، كنزة قطنية لأمي، حين ترددتُ هل ادخل إلى المحلات الرخيصة التي تعرض بضائع متنوعة من الصين وهونغ كونغ، في الواقع لم يكن يلزمني شيء، لكني كنتُ أحب هذه المحلات كثيراً، ليس لرخصها المدهش بل لأني اشعر بدفء غريب فيها، كما لو ان تلك السلع الرخيصة تخفض من قيمة نفسها رأفة بالناس المساكين المكتوين بحمى جنون الأسعار... ومعظم الأشياء التي كنتُ اشتريها كانت تنتهي إلى ان أوزعها على الفقراء او ارميها...

وضعتُ أغراضي في الأمانات، وحملت السلة البلاستيكية، وقلبي يخفق بالإثارة، كان المحل ممتلئاً ببضائع متنوعة، شموع، دمى رخيصة، ألعاب، حمالات مفاتيح رائعة، صحون بلاستيكية مختلفة

الأحجام وذات نقوش بديعة، فكرت ان هناك جمالاً وأناقة مع الرخص... فجأة هوى قلبي قبل ان أميّز وجهه، كان كاتب الأوراق يتأمل أنواع الصوابين ويشمّها... اقتربت منه تفرستُ في وجهه محاذرة ان يلحظني، لم أتوقع ان ترتعش يداي هكذا، ويهزني انفعال قوي مباغت وغامض... ولا اعرف لماذا نظرت في ساعتي لأحفظ التوقيت الدقيق للحظة التي التقيه فيها...

كنت أتخيّل انني حالما ألتقيه سأهرع للتحدث إليه، لكني احسستُ بارتباك شديد سمّرني في مكاني، أي جنون ان اقتحم عالمه وأباغته بأني قرأت اوراقاً خاصة به؟ ما أدراني ألا يؤنبني، او ينظر إليّ بسخرية ويوليني ظهره دون ان يعلّق بكلمة!

مشى خطوات ليضع في سلته أشياء متنوعة، بقيت في مكاني مبلبلة تتنازعني رغبتان، الهروب، واقتحام عالمه... وعرفتُ اني سأغامر وأتحدث إليه، اخرستُ عقلي المؤنب كعادته كلما حاولت ان اخترق المألوف ولحقته، قذفت كلمة مرحباً بوجهه، فالتفتَ إلي مستطلعاً، كانت نظرته حيادية، وعيناه جميلتين أحستهما حزينتين... تشجعتُ وقلتُ له: لا تلفت أقول مرحباً لك.

لم يبتسم، بل رد ببرود: مرحباً.

قلتُ له: أتسمح ان آخذ لحظات من وقتك.

قال: تفضلي.

قلتُ: لا أظنك تذكرني، لقد سافرنا منذ شهرين إلى بيروت، كنتُ اجلس في المقعد الأمامي، وأنت في المقعد الخلفي.

قاطعني وقد ابتسم فجأة: اجل تذكرتك.

شجعتني ابتسامته لأدعوه إلى فنجان قهوة في شارع الحمرا القريب جداً من المحل.

سألته : لدي ما أقوله لك، أتقبل دعوتي لفنجان قهوة.

لم يتردد رغم دهشته التي حاول إخفاءها، قال بلطف مرح : لِمَ لا.

استأذنني ليساعدني في حمل الأكياس...

جلسنا في الويمبي، طلبتُ القهوة، وطلب الاكسبريسو...

قدرتُ لباقته حين لم يسألني أي سؤال شخصي... أنا التي لدي ما أقوله، وليس هو.

قلتُ : أظنك تتساءل ماذا سأقول لك...

ابتسم : لا، لستُ مندهشاً كما تتصورين، يكفي اننا من مدينة واحدة.

وفي اللحظة ذاتها قلنا : اللاذقية...

ضحكنا حين لفظنا الاسم في الوقت ذاته.

كنتُ اشعر ان من واجبي ان أدير دفة الحوار، سألته : هل تعمل في مستشفى في بيروت.

قال : اجل منذ سنة فقط.

لم يبدُ الارتياح على وجهه، لأني لاحظتُ فجأة كيف تعكّرت ملامحه، كما لو انها تعكس حضور أفكار مزعجة.

قلتُ له : أنا أعيش في بيروت منذ سنة تقريباً، حكيت له عن عملي في المشفى.

بدا عليه الاهتمام وسأل : حقاً ؟ غريب كيف لم نلتقِ؟

- اعتقد ان السبب انني عملت لسنوات طويلة طبيباً في قسم الإسعاف الليلي، أي كنتُ أداوم من التاسعة مساءً حتى الثانية بعد منتصف الليل.

لم افهم سبب سعادتي العميقة بالتحدث إليه، ورغم ثرثرتنا، والقهوة التي احسستُ بطعمها ألذ مما مضى وأكثر كثافة، فقد كنتُ أتفرج على

أعماقي بوضوح كنتُ محتفية به، كما لو انه صديق طال انتظاري له، ولم يكن في قلب سعادتي أي جاذب جنسي او عاطفي، لم يحرّك هذا الرجل أي هوى لدي، ولم يدغدغ انوثتي لكنه لامس أعماقي بقوة، كما لو ان جوهراً انسانياً مشتركاً بيننا، تعجبتُ انه لم يسألني لماذا دعوته لشرب القهوة، وما الذي أود أن أقوله له...

كنتُ أتأمل واجهات المحلات الجذابة في شارع الحمرا، والمارة، ونور الشمس يغمر المكان بدفء لذيذ، بدت الحياة جميلة على نحو لا يصدق، أية متعة ان نمشي ونشرب القهوة ونجلس في مقاهي الرصيف، ونتبادل الحديث مع النادل، ونقتحم أسوار بعضنا ونتشيء صداقات، رن هاتفه الخليوي، فانهمك بحديث خافت، تأملته من زاوية عيني، خفق قلبي لأني وعيتُ برؤية كاشفة انه وحيد بكل معنى الكلمة حتى صوته بدا منبثقاً من قاع العزلة، شيء من روحانية في ملامحه، بل شعرتُ انني لو أطلتُ تأمل وجهه فسأقرأ معاناته كلها.

رغبتُ ان أكثف احساسي بالسعادة، فطلبتُ من النادل ان يحضر لنا شراب الجلاب الذي يشتهر به هذا المقهى، لم أسأله رأيه، لأني اعرف انه سيرفض وسيحس بالحرج ان ادفع عنه، رغبتُ بقوة لو اهديه قميصاً وحذاء...يا ترى ما سر تلك الحماسة للغريب ! أي غموض يكتنف النفس البشرية يا ترى؟!

حين وضع النادل كأسي العصير أمامنا، وحبات الصنوبر تطفو على السطح كجزر صغيرة تباعد بينها قطع الثلج، قال لي بهدوء : هذا كثير...

فكرت انني ان لم انطق بما أود قوله هذه اللحظة فلن امتلك الشجاعة فيما بعد...

قذفت عبارتي وأنا أحدق بوجهه بتفحص وتركيز : أتعرف، لقد

بحثتُ عنك طويلاً وأملت ان ألتقيك صدفة، كما حصل اليوم، والسبب الورقتان اللتان كتبتهما...

قطب قليلاً علامة عدم الفهم، ثم سأل: أية ورقتين.

قلتُ: حين نزلت في برج حمود، وضع السائق حقيبتي مكانك، وعندما أوصلني الى البيت، رغبتُ ان أساعد السائق، ففتحت الباب الخلفي للسيارة لأحمل حقيبتي ولمحت الورقتين، ليس من عادتي ان آخذ أشياء لا تخصني، لكنني اعتقدتُ انها قد تكون اوراقاً رسمية وهامة...

رغم هدوئه ورشفه لعصير الجلاب بتلذذ، محركاً كرات الثلج بسبابته، فقد وصلني اضطرابه، وبلحظة شعرنا ــ وفي الوقت ذاته ــ كيف انهار جدار بيننا وانفتح نفق بين قلبي وقلبه، وروحي وروحه، شعرتُ به كيف يفتش عن الكلمات المناسبة، لقد أحرجته وفاجأته، تأسفت له من قلبي، وقلتُ انني لم أنو ابداً التلصص على حياته، لكن كلماته مسّتني في العمق، وانني شعرتُ منذ قرأتها بحاجة ماسة للتحدث إليه، وانني كل يوم كنتُ ابحث عنه في رحلة تسكعي.

لا اعرف ان كان ينصت اليّ ام كان يحاول التذكر جيداً ماذا كتب... أشعل سيجارة ونظر اليّ كأنه يراني للمرة الأولى وسألني: لماذا أثرت بك هذه الكلمات لهذا الحد؟

- لا اعرف، لكني شعرتُ ان ما مررتَ به وعشته من معاناة مشابه إلى حد بعيد مع معاناتي.

ابتسم: المعاناة واحدة بين كل البشر، كل واحد يعتقد ان معاناته مختلفة، لكن في الواقع المعاناة واحدة، الكل يشعر بالمشاعر ذاتها من القهر واليأس، والأمل ايضاً.

فكرت بكلامه، قد يكون محقاً، سألته: ألستَ غاضباً مني لأني

قراتُ الأوراق؟

قال وهو يتأمل شاباً يتوقف قرب حاوية قمامة ويهم بالنبش بمحتوياتها : لم يعد من شيء يغضبني.

استأذنته ان اسحب سيجارة من علبة الجيتان الأبيض، قال وهو يمد لي العلبة العفو، تفضلي، آسف لم أسالك ان كنتِ تدخنين.

أشعلَ لي السيجارة فنفثت الدخان بتلذذ وقلتُ له : أنا لا أدخن، لكني احياناً ارغب ان أدخن سيجارة.

حلّ بيننا صمتٌ مشحون بكهرباء، كما لو ان ثمة تبادل شحنات خفية بين روحينا فكّرتُ ان هذا الرجل غارق في يأس هادىء، وبأنه ما عاد يطلب شيئاً من الحياة.

عجبتُ انه لا يملك أي فضول ليعرف من أكون، وهل أعيش في بيروت، هل انا متزوجة ام عازبة؟! لقد لبى دعوتي إلى فنجان قهوة... دون ان احرّض في نفسه أي فضول، لكنني لم اشعر بالمهانة، كان منكفئاً داخل نفسه.

لم اخرق الصمت كنت أتأمل ان يسألني أي سؤال شخصي، ابتسمت وقد راقت لي فكرة ان السيجارة تجمعنا، ننفث الدخان في الفضاء بيني وبينه كما لو ان حديثنا يتحول الى ضباب...

قرّب كأس الجلاب من فمه ورشف العصير بتلذذ، قال لي دون ان ينظر إلي، بل استمر يتابع الشاب الذي ينكش في حاوية القمامة.

- في اللاذقية لا يعرفون الجلاب.

وبآلية أجبت : إنهم لا يعرفون شيئاً.

أسعدني جوابي، بدت كلماتي تنسف كل تحفظ ورصانة مفروضة علينا كغرباء نلتقي لأول مرة... تابعتُ متحمسة : أتعرف، شيء ما

يسحرني في بيروت، لا اعرف ماهو، هذه المدينة ساحرة، وسر سحرها كونك لا تعرف أين يكمن، في بيروت اشعر ان مسامي مشرّعة للنور وللحرية، هناك ـ في اللاذقية ـ اشعر اني امرأة من إسمنت..

ضحك : تعبير جميل امرأة من إسمنت ! ماذا تقصدين.

- أحس بحالة من الجمود الذهني والرتابة القاتلة، اعجز عن الابتسام، أحس وجودي ثقيلاً، هناك تتلخص الحياة بعبارة واحدة، نواصل عيشاً كئيباً ونتنظر ان يحدث تغيّر يهبط علينا من السماء، ولسنا نحن اللذين نؤسس له...

في بيروت أمشي في شوارعها وأنا أتقافز فرحاً، أشعر اني سعيدة، سعيدة، أوزع ابتساماتي لكل شيء حولي، للناس، للقطط، حتى لحاويات القمامة...

منحني تدفقي في الحديث اماناً وقوة، كان ينصت بعمق لما أقوله، ولا اعرف ان كان يتفق معي ام لا...

أشعل سيجارة من أعقاب أخرى، لم أطق الصبر لأعرف رأيه، سألته : ألا توافقني الرأي... أليست اللاذقية خانقة.

- حين تبتعدين عنها لا تشعرين انها خانقة، انا اشتاقها كثيراً... اشتاقها كما لو انها أم او حبيبة.

- لكنك تركتها !

- أجل، أجبرتُ على تركها، لأني لم اعد أتحمّل الذل اليومي.

حين نطق بهذه العبارة، تجسدت بيننا الورقتان، ولم أكن مخطئة، لأنه سألني فوراً : هل يمكن ان تعيدي لي أوراقي.

قلتُ : بالتأكيد... لكنها ليست معي الآن.

انتظرت ان يقول : حسناً في المرة القادمة حين نلتقي.

لكنه ظل صامتاً... بدا لي يائساً ذلك اليأس اللطيف المستسلم كما

لو انه نهاية مطاف لحياة تغصّ بالمرارات...

غامرت وسألته : ألن نلتقي مرة ثانية لنحكي عن اللاذقية وبيروت.

ابتسم وقال : لم لا

- هل لديك أصدقاء في بيروت ؟

- لا... لدي زملاء في العمل، أما الصداقة فشيء صعب.

- معك حق.

- أشكرك على لطفك وكرمك، اسمحي لي، فلدي عمل في المشفى.

- بل انا التي تريد ان تشكرك، هل تسمح ان تعطيني رقم هاتفك.

- بالتأكيد... وأنت باليت تكرمي وتعطيني هاتفك.

تأملته كيف يعبر الشارع دون ان يلتفت اليّ... لماذا توقعتُ ان يلتفت ويلوّح لي بيده... تمنيت لو اركض وراءه وأناديه، وأقول له بأنني متزوجة زواجاً وهمياً من كهل كي اهرب من حياتي هناك، ورغبتُ ان احكي له كل شيء كل شيء، عن اختلاس الأدوات الجراحية، والسجن، والرشوة الباهظة للقاضي... لكني بقيت مسمّرة في مكاني أتابع الشاب الذي ينكش في القمامة كيف يمزق الأكياس، وينقّب في محتوياتها، غمرتني كآبة سرعان ما تلاشت ليحل محلها شعور خفيف بالضياع...

ما الذي أريده من هذا الغريب، هل أحاول ان أؤلف حياةً في بيروت، كما لو ان الحياة يُمكن ان تفصّل كما نفصّل ثوباً...

عدت إلى البيت المعلّق بين السماء والأرض، كان المفكر ـ أبو الهول ـ جالساً على الصوفا يرنو إلى البحر وأمامه كأس الشاي الذي لم يرشف منه إلا القليل، ودون ان ينظر اليّ كالعادة قال بصوته الميت : تأخرت.

أجبت بسخرية : هل اشتقت الي.

لم يجب، فدخلت غرفتي، رميت الأغراض على الأرض، وتمددتُ على السرير والموبايل في يدي، تأملت الرقم الجديد... وابتسمت، كنت مستعدة لكل الاحتمالات الممكنة بيني وبين هذا الغريب، فالمهم هو أن أقحمه في حياتي...

ما الذي يجمعني بهذا الغريب؟ سؤال يتخذ اشكالاً عديدة، والجواب واحد : الهروب، قد تكون أسباب هروبه مختلفة عن أسباب هروبي، لكن كل منا وصل إلى نقطة عدم التحمّل وفرّ إلى بيروت، أنا عن طريق زواجي من مفكر عجوز، وهو عن طريق عمله بشكل غير قانوني في مشفى، قال لي ان القانون الطبي اللبناني يمنعه من العمل الطبي ان لم ينتسب إلى نقابة الأطباء اللبنانيين، والانتساب يتطلب دفع الكثير من المال والخضوع لامتحان، لكن الكثير من الأطباء غير اللبنانيين تحايلوا على القانون ووجدوا طريقة للعمل تحت تغطية طبيب لبناني.

لم يعد هاتفي المحمول يفارق جيبي، أتوقع اتصاله كل لحظة، رغم انني اوهم نفسي انني لا انتظره، لقد بادرتُ بخطوة أولى جريئة معه، وعليّ ان احترم رغبته هل يريد ان نلتقي ثانية ام لا، لعله منزعج مني، فقد تلصصتُ على حياته حين قرأت أوراقه.

في كل مساء كنتُ اجلس مع زوجي مختنقة من الرفض والملل، شاعرة ان بيتنا حضوراً ثالثاً قوياً هو الموت، رائحة النهاية تفوح قوية في الجو، احضّر له عشاءه الخفيف وأضع في صحن خاص أدويته، يبتلعها بآلية وهو يزفر بضيق ونفاذ صبر، لا اعرف لِمَ يظل بحالة نفاذ صبر لشيء غير محدد ! يأكل بفقدان شهية تام بضعة لقمات وهو يقول لي : لم تعد لي شهية اطلاقاً على الطعام، أتظاهر انني قلقة على

صحته فأحثه ان يأكل المزيد. يزجرني، ويتجه الى غرفته ليقوم بطقوس الاستعداد للنوم، ينزع عدساته اللاصقة، ويخرج من فمه ثلاثة جسور يضعها في كأس يحوي ماءً معقماً، ويضيف إليه بضعة نقاط من دواء معقم، ثم يغرغر بماء النعناع، صارت رائحة النعناع تثير غثياني، يلبس عباءة النوم على جسده العاري تماماً، يعتلي فراشه العالي، ويجلس في السرير تسند ظهره ثلاث مخدات كبيرة، يضع المذياع في حضنه على المحطة ذاتها التي تبث أغاني الخمسينات والستينات الرومانسية.

يبدأ دوري عندها، اندس بجواره، والعتمة تعفيني من رسم قناع السرور والابتسام، وأبدأ بمداعبة زغب رأسه بآلية، احياناً يدب نملٌ خفيف في يدي من التكرار الأبدي للحركة ذاتها، وفي كل مرة - كما لو اني أنبه لذبه منعكساً - يقول لي ان تلك الحركة تساعده كثيراً على النوم. كنتُ اذعن لرغبته احياناً ان يداعب جسدي، ان تجوس أصابعه العنكبوتية المتخشبة وقد تحوّلت مفاصلها إلى مايشبه العُقد، يتلمس نهديّ وخصري، وبطني، ويبتسم متحسراً لأني من وادٍ وهو في واد كما يقول، ومن حسن الحظ انه فقد شهية لمسي في الفترة الأخيرة، رجل فقد شهية الحياة، وضمرت رغباته، هذا ما أعطاني سعادة خبيثة، في الواقع اختزلت مشاعري تجاهه بالسخرية، كل شيء يفعله حتى منظره يحرّض سخريتي.

حتى حين يجلس كل صباح إلى طاولة كتابته يصارع افكاراً ونظريات، يخربش ويرمي اوراقاً في السلة بجانبه، أحس بشفقة ممزوجة بالسخرية، لم تعد أفكاره ذات قيمة، دب عطبٌ ما في مناقشته للقضايا الجوهرية، كل النظريات والدراسات التي وضعها في كتب منذ سنوات، توهجت لفترة ثم انطفأت، كان مفكراً وفيلسوفاً مافي ذلك شك، لكنه كان بعيداً تماماً عن الواقع الحقيقي للناس، ظل منظر متسول

يبلبله، ومنظر حاوية قمامة تطفح بمحتوياتها في إحدى زوايا الشوارع يخرجه عن طوره... كان يتعامل مع الواقع من خلال واجهة زجاجية يقف وراءها ويتفرج على حياة الناس، يتعامل مع مشاكلهم كما يتعامل المخبري مع عيّناته.

علاقتي مع العجوز غريبة، إذ اشعر باستمرار انني انفصل عن ذاتي، أتحوّل لامرأتين، امرأة تعيش معه، وأخرى تتفرج على الثاني المزيف، حياة موحشة لاتعاطف، ولا ود، لا رقة، ولا حوار... لا شيء حقيقي بيننا، كل شيء زائف، وكنت متأكدة انه بأعماقه يعرف اني أمثّل، ويعرف انه يستحيل لامرأة متوهجة بالشباب والانوثة مثلي ان تحبه، لكن ادراكه لتلك الحقيقة لا يمنعه من توسل بقائي في حياته.

كنتُ أحسه أشبه بهيكل صلب، لا يشف عن شعور، عاجزاً عن الابتسام، وأنا امرأة فسدت حياتها، هربت من مدينة تحولت إلى سجن، ومن عمل تحوّل إلى جلاد لكنني أدركت بعد فترة اني هربتُ من سجن الى سجن، وقد يكون هروبي الثاني أقسى وأصعب، فهل هناك سجن أصعب من الشيخوخة ! وأية شيخوخة، شيخوخة مفكر أناني، حاقد، متكبر، متعجرف، وناقم.

ورغم انه يأوي إلى فراشه باكراً، إلا انني في الفترة الأخيرة صرتُ أدس له المنوم كي يغفو، ولأضمن ان نومه عميقاً ومتواصلاً حتى الصباح، أتنفس حرية حين يغفو، أحدث نفسي : الليل كله لي، لن يسممه العجوز.

أجلس في الشرفة العريضة التي تحيط بالمنزل بشكل حلقة كاملة، أرنو إلى المنارة كيف تمسح الفضاء وقلبي بشعاع دافيء من نور احمر، فترمم تشققات روحي وتلحم البؤرالمخربة في قلبي، وكل مساء أتساءل كم سيعيش العجوز؟! وأشعر بفزع حين أتخيل انه قد يعيش سنواتٍ

طويلة، ويمعن خيالي بتعذيبي حين أتخيل اني سأموت قبله، اتصل بابني، امتص صوته، اطمئن على دراسته، وأعده بزيارة قريبة وطويلة... ليته كان معي لأضمه إلى قلبي المتعب.

مرّ اسبوع على لقائي بالغريب ولم يتصل، شعرتُ بنقمة وحزن، لكني احترمت رغبته، لعله لا يريدني صديقة او حتى زميلة.

لا يحق لأحد ان يفرض نفسه على الآخر، لكن كنت متلهفة لأعرف الانطباع الذي تركته لديه، لعله غاضب لأني قرأت أوراقه...

وكعادتي حين افقد الأمل بتحقق شيء، تفاجئني الحياة بما يدهشني، فبعد عشرة أيام من لقائنا، وكنتُ قد سافرت خلالها الى اللاذقية لستة أيام، وأثناء عودتي وما ان عبرت الحدود لأضع البطاقة الخاصة بلبنان، حتى رن هاتفي وطالعتني الشاشة الزرقاء برقمه، تفجرت الحيوية في جسدي الكسول، وتوهج العالم حولي بنور مفاجيء...

سألني : اين انت ؟

لم اخف فرحي بسماع صوته قلت بفرح : الآن عبرنا الحدود.

- لقد سافرت الى اللاذقية اذاً ؟!

- اجل لستة أيام.

- وكيف هي؟!

- كالعادة، مدينة التحنيط.

ضحكنا، سألته ما إخباره، وكيف يسير العمل.

لم يرد، قال : كنتُ ارغب ان ادعوك اليوم لنشرب القهوة معاً، لكن...

قاطعته : أين ألقاك، سأكون في بيروت بعد ساعة ونصف على الأكثر.

- اسمعي، سيكون صعب علي ان نلتقي في شارع الحمرا، لكن

هناك مقهى جميل وسيعجبك في برج حمود، حيث اسكن، هل تمانعين ان نلتقي فيه.

- ابداً.

ما ان انهينا المكالمة، حتى اخرجتُ من حقيبتي علبة الماكياج، وأخذت أكحل عيني بحماسة، وأغطي وجهي بالفوندوتان، ورششت عطري المفضل الذي أهداني اياه العجوز، ارتسمت صورة الزوج المسكين في الفضاء حولي، يرنو إلي بعتب وغضب، قلت له ساخرة : هداياك لي من اجل رجل آخر.

نزلت في برج حمّود، غير مبالية بالحقيبتين أجرهما خلفي، كان بانتظاري في المقهى الذي أعجبني جداً لأنه يوحي بالألفة والحميمية، كما لو انه كوخ خشبي، وموسيقى يونانية خافتة تنبعث من الزوايا... لم أتردد لحظة ان أقدم لصديقي الشاب علبة الحلوى الفاخرة التي أحضرتها لزوجي. شكرني وهو يكرر: لا لزوم لها.

سألته : هل صاحب المقهى فنان.

- لا ، لكنه عمل بحاراً لسنوات طويلة، ثم قرر ان يرتاح.

كان رقيقاً ومبتسماً غير ما توقعت، وكم بدا مختلفاً عن المرة الأولى التي التقينا فيها، إذ كان يحاذر ان تلتقي نظراتنا، ويمضي الوقت بتأمل المارة، والشاب الذي ينكش في القمامة. الآن ينظر إليّ كأنه يتعرفني، في المرة الأولى احسستُ ان عينيه فوهتان في عتمة لا نور فيها، الآن نظرته دافئة.

سألته عن عمله فقال انه يعمل مع جراح لبناني، هزّ رأسه وردد : لا بأس، لابأس

قلتُ : كلمة لا بأس مطاطية.

قال : كل الكلام مطاطي.

أسرعت أرد معك حق، دون ان أفكر ان كان معه حق ام لا. ربما لأني كنتُ راغبة ان اتفق معه.

أشعل سيجارة فسألته: هل تدخن كثيراً.

- حوالي عشر سيجارات في اليوم.

- ليس كثيراً.

- لا، لستُ مولعاً بالتدخين، وانتِ هل تدخنين؟!

- لا، لكني صرتُ مولعة بالاركيلة، وهي أشد خطراً من السيجارة.

تدفق الحديث بيننا سلساً خفيفاً، ورغم بساطته فقد كنتُ اشعر ان كل عبارة تقربني منه أكثر، وكنتُ أقاوم هوىً أكالاً في نفسي لأسرد له قصة حياتي كلها.

لماذا ارغب بقوة ان يكون كاهن اعترافي؟ لماذا أريد ان اعرّي روحي أمامه، ولأية غاية؟

سحبتُ سيجارة من علبة الدخان دون ان استأذنه، سحبتُ نفساً وقررتُ ان يتخذ الحديث بيننا منحى أعمق، قلتُ: أتعرف، فكرْتُ طويلاً بالجاذب الذي يشدني إليك وعرفتُ ان السبب الجوهري هو الهروب.

ابتسم دهشةً: الهروب، مِمَّ؟!

من المدينة التي تحوّلت إلى سجن، من الراتب الحقير الذي يذلنا ويفقدنا احساسنا بالكرامة، من مشفى القذارة الحقير الذي دمّر طاقة روحنا وحيويتها، لا اعرف معاناتك بالتفصيل، لكني واثقة انها تشبه معاناتي إلى حد بعيد و...

قاطعني: مهلاً انت تقولين كلاماً خطيراً.

- أتنكر صحته.

- بل أوافقك تماماً، لكن ما أهمية هذا الكلام الآن.

أغاظني تعليقه، سألته باحتجاج واضح : أتقصد ان لا معنى لكلامي.

- لا تسيء فهمي، ما قصدته بالضبط اننا نشعر ان الزمن يمر سريعاً.

لقد هُدر شبابنا في التحمّل والقهر والإحساس المستمر بانعدام الكرامة، وكما قلتِ لقد تمكنا من الهروب، لكنه ليس هروباً مثالياً، فبيروت مدينة الأغنياء، انها تذل الفقراء ايضاً، المهم ماذا يفيدنا الآن ان ننظر إلى الماضي ونغوص في وحوله.

- أيمكنك ان تلغي الماضي؟

- للأسف لا، لكني أحاول ان أعطي نفسي للحاضر.

اكملتُ عبارته : والمستقبل.

ضحك ساخراً : أية سذاجة ان نعتقد بوجود المستقبل.

- هل افهم من كلامك انك يائس؟

- لا أحب الصفات، لا اظنني يائس تماماً، لكني حتماً لستُ متفائلاً. أنا أعيش يوماً بيوم بعد ان تخليتُ عن الآمال المعذبة.

- جميلٌ هذا التعبير : الآمال المعذبة.

- الأمل معذب دوماً.

- هذا ان لم يتحقق.

- نادراً ما تتحقق الآمال.

- معك حق.

كان الوقت يمر سريعاً، رشيقاً، بل كانت متعتي مضاعفة لأني اتفرّج بعين خيالي على العجوز ينتظرني كاظماً غيظه، اتصلتُ به ومثلتُ الغضب والتوتر لأن السيارة تعطلت.

قال بغضب واستياء : ما هذه السيارات المهترئة التي تسافرين بها.

قلت بلا مبالاة : هذا هو الموجود.

حكيت له عن زواجي الهروبي، فلم يعلّق، كنتُ متلهفة لأسمع رأيه الذي تمنيته ان يكون متعاطفاً معي، لكنه لم ينطق بكلمة، خفت ان ألح لأعرف رأيه بزواجي، فلست مستعدة ان اسمع كلاماً يجرحني، سألني : أتشربين الجلاب ما رأيك؟

مسّت تلك اللفتة الرقيقة قلبي، قلبي الذي نخره القهر المديد، وملأه العجوز بالأسى واليأس، تفجّر حقد كاسح في نفسي للعجوز، وأفزعتني المقارنة بينه وبين الشاب النضر المتفجر صحة وحيوية... ياه لم أكن اقدر مدى خسائري وهزيمة الأمل في روحي وأنا أشارك العجوز أيامه... يبدو اننا نعتاد الخسائر خاصة حين تكون تدريجية ومستمرة... لا نشعر كيف يُسحب البساط ببطء من تحت أقدامنا...

رشفنا عصير الجلاب اللذيذ، فقلت له : أتعرف هربتُ من جحيم إلى جحيم تزوجت العجوز المفكر والثري، معتقدةً اني انقل نفسي إلى مستوى حياة أرقى ولأضمن مستقبل ابني، لكن عيشي معه يدمر روحي، كيف سأقول، احياناً أفكر ان حياتي معه هي ضريبة العيش في بيروت.

- هل أنت متيمة بهذه المدينة؟!

- أنا اعشقها، حالة غريبة من هول مدينة؟ ترى ما سحر بيروت برأيك؟!

- بيروت ساحرة حقاً، لا تشبهها مدينة عربية... وأنا نفسي اعشقها واجهل سرّ هذا العشق.

- أحسها حقيقية، كإمرأة حرّة لا تسمح لأحد ان يذلها...ورغم كل الانتهاكات التي تتعرض لها هذه المدينة والتي تعرضت لها، فإن سحرها لم يخف ابداً.

وصفتُ له البيت البديع الذي اسكنه، المعلق بين السماء والأرض، والمحاط بالبحر، حكيت له عن صداقتي مع المنارة، واستمتاعي بشعاعها الأحمر النحيل يمسح الفضاء وقلبي المثقل بالأسى كل مساء، قلتُ له كل شيء بديع في هذا البيت إلا هو.

– لكنكِ قلتِ انك تنجحين في تهميش زوجك، في تغييبه بطريقة ما.

– ليس دوماً، أتعرف احياناً تنتابني نوب ذعر، اذ أتساءل أتراني اقدّر الأذى النفسي الهائل الذي يسببه لي العيش مع العجوز، واظنني لا اقدره تماماً لأننا لا نستطيع ان نعرف ما يحدث تماماً بأعماقنا حين نكون في قلب التجربة.

– وما البديل برأيك ؟

– لا اعرف، ماذا كان البديل هناك، في المدينة التي أذلتنا وانتهكتنا، ماذا كان البديل حين نقف كل أول شهر في طابور مهتاج جائع ساخط، ينتظر الملاليم من المحاسب لنسد جوع المعدة، أكنا نملك بديلاً ؟!

بحتُ له كيف تورطت مع شبكة الفساد، وكيف سجنت، وكيف دفعتُ رشوة كبيرة للقاضي، ضحكت بمرارة وأنا أختم حديثي :

– هل يمكنك ان تعرف كم بيتاً يوجد في بطن القاضي !

ربت بحنان على خدي، كنتُ أتدفق بالكلام بحرارة وبساطة، شاعرة بنشوة الاعتراف، وبتلك الخفة التي نشعرها بعد ان نتحلل من قصصنا الأليمة... كان يمتص كل كلمة أقولها... كان تعليقه : كلنا بالهوا سوا. كلنا بالهوا سوا.

كان يُصغي إليّ باهتمام وتأثر يستحيل ان يكونا مُفتعلين، توقفنا عن الكلام تاركين للموسيقى اليونانية الحارة ان تقوم بمهمة نقل الأحاسيس

والأفكار بيننا.

سألني : الا تحبين الموسيقى اليونانية ؟

- نعم، لكني لا اسمعها للأسف.

- انا مفتون بهذه الموسيقى، انها مشحونة بالشغف والصدق والحماسة، ومهما كنتُ مكتئباً فإنها تنجح دوماً بمؤاساتي.

أعجبني تعبيره فقلت : الموسيقى تؤاسينا أكثر من البشر أليس كذلك ؟

- احياناً.

شعرتُ ان كل الحواجز بيننا قد زالت فتشجعت وقلتُ له : صدقني منذ قرأت أوراقك وأنا اشعر اننا نتشارك ماضياً واحداً، نتشارك حياة لم نعشها كما نتمنى بل كانت طافحة بالمرارة والأسى.

- لقد كتبتُ الورقتين وأنا بحالة يأس قوية.

- أتقصد انك بالغتَ في وصف أحاسيسك ؟

- وقتها كان كل شيء في روحي مظلماً.

- كم من المُحزن ان يُجبر الإنسان ان يكره بلده !

- هذا أكثر ما يؤلمني، مدينتي التي طالما أحببتها وتمنيت ان أكون فيها محترماً وناجحاً وسعيداً، حقّرتني وأهانتني، وجعلت اللصوص والسفلة يتحكمون بحياتي ودفعتني رغماً عني للفرار، ولولا فراري لكنتُ انتحرت.

هوى قلبي إذ وعيتُ انه يتحدث عني، أ ظلمت عيناي وأنا أتذكر ذلك الزمن الثقيل حين كنتُ أفكر بالانتحار.

لم اجرؤ ان اسأله : لِمَ لم تصبح نجماً وتجني الملايين، مثل بعض زملائك الجراحين، لكني سألته بطريقة مواربة : أكنتَ تجري عمليات جراحية في المشافي الخاصة ؟

هزّ رأسه علامة الأسف، وعكست ملامحه تشنجات ألم قال : لا يمكنك طرح السؤال بهذه البساطة، حتى أجيبك يجب ان احكي لك القصة ببساطة، وأظنك تعرفينها وانا أبدأ دوماً كل قصصي بالتذكير بالراتب الذي هو وحدة القياس كما اسميه، انه المعيار لمستوى معيشة المواطن، وحين يتخرج مئات الألوف من الجامعة، أطباء ومهندسون ومدرسون، ويستميتون للحصول على وظيفة، ومعظمهم يدفع الرشاوي للحصول عليها، ويُحشر هؤلاء في مؤسسات كما يُحشر القطيع في زريبة، انتِ أدرى بوضع الأطباء في مشفى القنارة... المشفى تختنق بهم، وليست بحاجة إلا لنسبة قليلة من هذا الكم، في قسم الجراحة، كنا حوالي عشرين طبيباً والحاجة الفعلية هي خمسة او ستة، خنقونا بما يسمى سياسة الاستيعاب، قضوا علينا، فبدل ان يوظفوا خمسة أطباء براتب معقول يضمن للطبيب حياة كريمة، وظفوا عشرين طبيباً براتب الاحتقار، ونسبة كبيرة من هؤلاء لا يملكون الإمكانيات المادية لاقتناء عيادة وتجهيزها، والأهم من كل ذلك لمتابعة العلم، أكثر ما كان يؤلمني عجزي عن حضور المؤتمرات العلمية، لأن أي مؤتمر سيكلفني ثلاثة او اربعة أضعاف راتبي طبعاً لا أقصد المؤتمرات خارج سوريا، لأنني اصلاً لا اجرؤ على التفكير بحضورها.

توقف عن الكلام، وطلب من النادل ان يحضر له كأس عرق مع المازوات اليونانية اللذيذة. وسألني ماذا ارغب، قلتُ : سأجرب ان اشرب معك العرق في الصباح. لم يبتسم بل تابع بلهجة غاضبة قليلاً، حين يجد افواج من الجامعيين او لنقل غير الجامعيين أنفسهم في عمل يذلهم براتب لا يكفي ثمن الخبز، ماذا تتوقعين ان يحصل في المجتمع ؟

حدق بي منتظراً الجواب، ولم أكن راغبة ان اعلق، كنتُ متأثرة ومتلهفة لأسمعه لكنه أصر على جوابي فقلت : يحاول معظم الموظفين

ان يسلكوا الطرق الملتوية أي ان يسرقوا.

- برالو، انهم يدفعونهم رغماً عنهم للسرقة لأن هذا المواطن المسكين عليه ان يعيل أسرته ويؤمن طلبات أطفاله، وراتبه الكسيح بالكاد يكفي ثمن الخبز، فيضطر للسرقة، لكن السؤال الأهم : ماذا يفعل هؤلاء الذين لا يجدون ما يسرقونه ؟!

- يعيشون في قهر وذل.

- صحيح، لكن الأهم انهم يعيشون بحالة غضب مكبوت مستمر، حالة غضب أعمى يكتسح كل شيء، ينهش روحهم باستمرار كسرطان أكّال، ويجعلهم عاجزين عن الاستمتاع بشيء، يصبح نور الشمس يحرّض نوبة حقد في نفوسهم، الضجيج ايضاً منظر القمامة في الشارع، تتحول لغتهم الى شتائم، تتدفق الشتائم من فمهم باستمرار ولا يجدون من عزاء لهم سوى في صب أحقادهم وكرههم على الفاسدين وذوي النعمة، ولذتهم الوحيدة هي تسقط أخبار الفاسدين، وما يلم بهم من مصائب.

لدي صديق يقول كل يوم لابنه : كل البيوت الفخمة هي للصوص.

لا اعرف لِمَ يكرر هذه العبارة دوماً، حتى ان ابنه سألني ذات يوم : لِمَ ابي مولع بتكرار هذه العبارة؟!

كأسا عرق ومازوات يونانية لذيذة، شربنا نخب صداقتنا، كنتُ أحس بنشوة غريبة، نظرتُ في ساعتي الحادية عشرة والنصف، ضحكت وأنا أتلذذ بتذوق المشروب اللذيذ : أتعرف، في حياتي لم اشرب العرق صباحاً..

رفع كأسه : في صحتك.

- في صحتك... وفي حياتي لم أحس بسعادة نقية هكذا...

يبدو انني تسرعت في التفوه بهذه العبارة، لأني شعرتُ بارتباكه،

فصَمتَ كأنه يزن ثقلها في عقله، لكنه ابتسم وقال كأنه يتابع القصة التي بدأها.

- انا ايضاً سعيد بمعرفتك، لأنك تفهميني وتحسين بي، لو التقيتني حين تخرجتُ من كلية الطب، كنتُ شاباً ممتلئاً طموحاً وأملاً، والدي موظف بسيط، يفزعه غلاء الأسعار، ولم يكن قادراً ابداً ان يساعدني لأؤسس عيادة، كنتُ أتمنى أن أسافر إلى اميركا للاختصاص لكن السفر إلى أميركا كان يتطلب تحضيراً شاقاً وخوض امتحانات، المهم توفي أبي تاركاً أمي واخوتي الأربعة الذين لا يزالون في المدرسة فألغيتُ فكرة السفر والتحقت بقسم الجراحة في دمشق... عشتُ أربع سنوات في السكن الداخلي لمشفى المواساة وتخرجت حاملاً شهادة الدراسات العليا في الجراحة.

وفي دمشق كنتُ اعمل في بعض المشافي الخاصة كمساعد جرّاح كي أساعد أمي لأن الراتب التقاعدي لأبي كان على درجة مزرية من الهزالة... وبدأ جنون الأسعار وغلاء السلع والبيوت وكل شيء كل شيء... كنتُ أحس بالشلل، وأنا أرى القهر والحرمان في عيون اخوتي، وأرى دموع القهر في عيني أمي، فسافرتُ الى السعودية، وعشت هناك سبع سنوات، حتى تخرج اخوتي من الجامعة... وتمكنت من جمع ثمن عيادة، وجهزتها بالحد الأدنى لعيادة جراحية... وتوظفتُ في مشفى القذارة...

عب جرعة كبيرة من العرق، وأغمض عينيه متشبأ، ضحك وقال :

الباقي أنت تعرفينه، قلت كأني أتابع قصته : مشفى القذارة، تقصدها كل صباح، تخربش توقيعك على الدفتر، القيمة المقدسة الوحيدة في هذا المشفى هي التوقيع، عفواً ليس بالضرورة ان تأتي، فيمكن لزميلك ان يوقع عنك، بعض الأطباء يتغيبون لأيام وهناك من يخربش توقيعهم بدلاً

منهم، ثم تقصدون استراحة الأطباء في قسم العمليات، ويتحلق المحبطون مثلك، وتتالى فناجين القهوة ثم الشاي، والتدخين ويتدفق الكلام، كلام، ثم كلام ثم كلام... ثرثرة أشبه بهدير لا يتوقف، أشبه بصوت محرك رتيب، يكرر الصوت ذاته بآلية أبدية...

تشربون عدة فناجين قهوة ليست لاستمتاعكم بها، بل لأنها تساعد على قتل الوقت، نحن لا نعيش، لا نشعر اننا نعيش، بل نشعر ان علينا قتل الزمن، التملص منه، الهروب منه، لأنه أشبه بفم فاغر يهم بابتلاعنا، وبعدها تخرجون من مشفى القذارة وتتسكعون، او تذهبون الى عياداتكم بانتظار مريض ما، مواطن مسكين...

باغتتني الدموع في عينيه... لم يبك، لكن عينيه امتلأتا بالدمع... توقفتُ عن الكلام، اعتذرتُ له، لكنه ضحك وقال بأن عينيه دمعتا من دخان السيجارة، كررتُ اعتذاري وقلتُ اني لم اقصد ابداً تجريحه، لكنه قال :

- أتعرفين يا ايمان، يبدو اننا فقدنا القدرة على الفرح، لم يجرحني كلامك صدقيني لكني وعيتُ فجأة مقدار الألم والأسى في حديثنا أليس هذا مؤلماً.

- معك حق، فلنتحدث عن أشياء مفرحة، ما رأيك ان ادعوك غداً لحضور فيلم ساعات لنيكول كيدمان.

- غداً، انا مناوب في المشفى.

- ألا تستطيع ان تتغيب لساعتين.

- سيكون صعباً.

- طيب ما رأيك ان نحضره اليوم، لكن مساءً، حتى ينام العجوز.

- وان لم ينمْ.

ابتسمت، ابتسامة تعني انه سينام رغماً عنه، لأن جرعة المنوم التي

ارشها له في الطعام كافية لتغرقه في النوم لساعات طويلة.

كنتُ أحس بنشوة ليس لأنني أشرب العرق، بل لأنني اشربه صباحاً.

سألته : هل أنت راضٍ عن عملك في بيروت؟

- اجل، إلى حد ما، صحيح الراتب ليس كبيراً، وبيروت غالية جداً، لكن لابأس ضحك بصوتٍ مرتفع : أظنني سعيد أتعرفين لماذا، لأنني مللتُ مشاعر القهر واليأس، مللتها، مللتها، كاسك، كاسك ياصديقتي.

رن ارتطام الكأسين عالياً، مراراً... علا رنين هاتفي لحوحاً، غاضباً، كان زوجي يطلبني بإلحاح...

ابتسمت لصديقي الحميم، وعيناي ترشحان بالدموع، قلتُ له وانا اجمع أغراضي... العجوز ينتظرني...

لم أتعرف صوتي، كان يختلج باختناقات، وارتعاشات، بدا صوتي غريباً، كأنه صوت امرأة أخرى.

• • •

يبدو ان زوجي أسير حالة من جنون الغضب، لأن هاتفي الخليوي لم يتوقف عن الرنين. كنتُ أتأمل الشاشة الزرقاء وابتسم بخبث وانا أقول لصورة زوجي التي تنتهك خيالي لن أرد، لن أرد، سأذلك كما ذللتني مراراً بدون سبب.

وقفت عند باب الشقة الفخمة، وأنا أرهف السمع، توقعت ان تصم اذناي موسيقاه الكلاسيكية، لكني لم اسمع أي صوت، الشقة أشبه بقبر، اجتاحتني رغبة متهورة ان أعود أدراجي واتصل بصديقي، أحس بحاجة ان ابكي على كتفه، ماذا افعل على عتبة الشيخوخة، لماذا أهدر عمري مع عجوز يملؤني يأساً وقرفاً ومرارة.

كان بانتظاري بحالة مزرية من التوتر والألم، يشرب النبيذ الأبيض، وقد زرر قميصه بطريقة عشوائية مضحكة، هب للقائي متفرساً بوجهي، في عينيه نظرة غريق يتوسل لمنقذه ألا يتخلى عنه.

فجأة غابت أحقادي، وغمرتني شفقة عارمة نحوه، فتح ذراعيه وقال بلهجة توسل انفلتت من روحه رغماً عنه، تعالي... حين ضمني بين ذراعيه الواهنين شعرتُ اني كل دنياه، كل ما تبقى له في هذه الدنيا التي تلوّح له مودعة وتنفيه خارجها يوماً بعد يوم... كنتُ محتواة في جسده الهلامي الرخو المترهل، شاعرة انه يحتاج ان يمتص حيويتي وشبابي ليحيا، غير آبه بالآثار الكارثية التي يخلفها في نفسي.

• • •

خلقني الله من شوق، لأني أظل بحالة شوق لأشياء مبهمة وغير مبهمة، واضحة وغير واضحة، طول عمري لم اشعر بالرضى او الإشباع، وكان مصدر ألمي دوماً انني أريد الوجود حولي أكثر كثافة وحيوية وغنى، وفقر الحياة والإمكانيات في مدينة البلادة كان يفزعني ويخرجني عن طوري، كما لو انني اصرخ في وجه القدر : أهذه هي الحياة المقدسة، أهذه هي الحياة التي يستميت الناس للدفاع عنها ؟! كم هي باهتة وتافهة ولا نكهة لها في هذه المدينة، كم هي مُنتهكة وفاسدة كثمرة متعفنة.

اعتقدتُ اني أبدعت ابداعاً عظيماً حين وصفتُ الحياة في مدينة البلادة بأنها أشبه بثمرة متعفنة، فظاهرها لا يزال محتفظاً بشكل الثمرة، أما الداخل فقد أكله كلياً الدود والعفن، ولم أكن أمل من وصف كل من حولي بهذا الوصف، بتلك الصورة الإبداعية... لكن ها أنا قد نجوت بنفسي وهربت إلى بيروت... لكن أي هروب هذا ؟ العيش مع

عجوز، ثم أي مغزى ان نلتقي انا وهذا الغريب الهارب مثلي في بيروت! كيف لم نلتقِ ابداً هناك في اللاذقية؟!

لماذا أشعر ان هذا الغريب مرآة روحي، ولماذا أتخيّل دوماً حياته، وأحس بروحه ترفرف حولي... هل أحببته؟! أستطيع ان اجزم اني لم أحبه، فلا يوجد أي تجاذب عاطفي بيننا، ومع ذلك يلهو بي خيالي، حين يصورنا نتبادل قبلات غرامية. ما معنى هذه الخيالات، وأنا لا اشعر بأي جاذب نحوه، تُرى هل عُطب شيء ما في نفسي؟! هل صار خيالي مريضاً، هل المعاناة المديدة وتحمّل القهر والذل لسنوات يوهنان القدرات العقلية والشعورية للإنسان، فيصير الخيال مريضاً ويفرز صوراً عشوائية لا منطقية.

صرنا نلتقي، نحكي لساعات عن الهُناك، يتدفق الحديث بيننا، كما لو ان نفقاً ينفتح بين قلبي وقلبه وروحي وروحه، وكنتُ دوماً انجح بالفرار من العجوز، بأن أدس له المنوّم في عشائه، وانتظره حتى يغفو، ثم أطير، أطير، هكذا اشعر، كل مرة أغادر فيها البيت المعلق بين السماء والأرض.

النقيه، كما لو انني على موعد مع نفسي، كنا وجودين متقاربين، متماثلين، كما لو اننا وجهان لعملة واحدة هي القهر. كان حزني يتكيء على حزنه فيولد من تلامسهما فرح. معه كنتُ أشعر اني حقيقية، واني لم اضيّع روحي... مع العجوز أشعر بالتهديد دوماً، تهديد من خسارة روحي، من تشوه أحاسيسي لأني بحالة نفاق مستمرة، بحالة تقبل وضع لا أطيقه.

وحين قلت له ذات مرة: انتَ شفائي.

ضحك بخجل وقال: هل لديك ميول لكتابة الشعر؟

فلم اصدّق، لكن ظل إحساس مستمر يرافقني ان ثمة مغزى من

لقائنا، ولا اعرف سبب الحاح هذا الشعور وملازمته لي.

رجل وامرأة تعثرت حياتهما، في مدينة أحياها فخانتهما، وحين فرّا منها ليعالج كل منهما جروح روحه، التقيا... التقيا منخوري القلب، مثقلين بالخيبات، فهل يولد شيء من هذا اللقاء؟!

قد لا يولد أي شيء من لقائهما، لكن من المؤكد ان كلاً منهما يرمم تشققات روح الآخر بسبب القهر المديد.

لم تكن لقاءاتنا، لقاءات عادية بين امرأة ورجل بل كانت أشبه بجلسات التحليل النفسي حين يتدفق المريض ببوح صادق وحميم أمام الطبيب النفسي، لم يجد أي حرج من الاعتراف أمامي كيف كان يدس بطاقته وعنوان عيادته في يد المرضى الذين يقصدون العيادات في مشفى القذارة، وكيف كان يضطر لممارسات لا انسانية ومخجلة من الجشع كأن يقنع المريض بأنه بحاجة لعملية ظفر ناشب مثلاً، ويكون المسكين في غنى عن العملية، او يستأصل زائدة دودية غير ملتهبة بعد ان يقنع المريض الذي يشكو من ألم في خاصرته ان سبب ألمه هو التهاب في الزائدة الدودية... قال لي انه كان يحتقر نفسه كلما قام بهذه الممارسات، وبأنه قرر مراراً ان يتخلى عنها، لكن ذل الحاجة كان يدفعه إليها من جديد.

لكن أكثر ما اثّر بي اعترافه لي، والمرارة تقطر من صوته، بأنه كان يتحلى بروح مرحة، وكان كل أصدقائه معجبين بخفة ظله ودماثة طبعه، وبأنه يتحسر كثيراً على فقدانه تلك الصفة، لدرجة انه صار عاجزاً عن الابتسام تلك الابتسامة التي تشع من القلب ثم ترتشح في ملامح الوجه... قال لي بأن الحكمة التي تعلمّها من الحياة انه يستحيل على الإنسان ان يحافظ على حيوية روحه وتوقها للفرح إذا كان يعيش قهراً مادياً ونفسياً مستمرين.

كنتُ امتص عباراته واحللها، وأسقطها على نفسي واعية كم نحن متشابهان، ليس في الظروف التي مررنا بها فقط، بل في طريقة تأثرنا بها وتفاعلها معنا، لكني كنتُ احسده على دقته في اختيار العبارات، كما لو انه يصيب مركز الهدف مباشرة.

حدثني كيف اتخذ قرار فراره إلى بيروت، فلولا زواج اخته الصغرى من طبيب لبناني لما خطرت بباله الفكرة اصلاً، ولما تمكن من تحقيقها، لكن زوج اخته أمّن له عملاً في مشفى بتغطية من طبيب لبناني، انتقاله كان صدمة المعجزة في حياته، اعترف لي انه عاش الشهرين الأولين من عمله في بيروت في حالة صدمة، فكان عاجزاً عن التفكير حتى بأبسط الأمور، ومرّ بمرحلة عجيبة من النسيان، ينسى انه نظف أسنانه، وينسى انه ابتلع حبة سيتامول، ولكن أكثر ماأحرجه، نسيانه الفظيع لأسماء زملائه والممرضات حوله، فما ان يتم التعارف بينه وبين الزميل الجديد، ينسى للتو اسمه، ثم أصابته حالة من انقطاع الصلة مع الماضي، فلم يعد يتذكر أي شيء عن عمله في مشفى القنارة وعن بؤس عمله في عيادته الخاصة، كما لو ان ثمة فجوة هائلة بين حاضره وماضيه، كما لو ان لا وعيه يريد ان يكافئه ويهنئه بعمله الجديد، بأن يمحو كل منغصات الماضي... ولم يجد تفسيراً أكثر دقة وصدقاً من ذلك التحليل حتى نوب النسيان المخجلة، فعقله الباطن منهكٌ ومشغول إلى حدٍ بعيد في إيجاد أسلم طريقة لتخليصه من السموم المتراكمة في كيانه لسنوات طويلة، وليس النسيان سوى انجع وسيلة لتخفيف أذى الذكريات.

وبعد اشهر حين تأقلم مع عمله الجديد في بيروت، وتآلف مع المدينة، وعشقها وانشأ صداقة بينها وبين مقاهيها خاصة دبيبو في الرملة البيضاء، حيث يجلس متأملاً صخرة الروشة والبحر البديع، الذي هو ذاته بحر اللاذقية، لكن شتان ما بين مشاعره هنا، ومشاعره هناك... لا

يمكن المقارنة على الإطلاق في مقهى دبيبو وهو يرشف البيرة ويدخن، تمر أمامه حياته، ينفلت شريط الذكريات من ثقب في ذاكرته يشعر انه يطلّ على حياته من فوق، كما لو انه يتفرج عليها من نافذة طائرة يرى حياته كلوحة واحدة، وليس كشريط سينمائي لوحة التحنيط كما سمّاها، لوحة تمثّل صورته متجهماً يائساً غاضباً مُتهك الكرامة، خاوي الجيوب، جالساً محنطاً على كرسي في عيادته او في مقهى رصيف ـ لا فرق ـ يفكر للمرة المليون كيف يمكن ان ينجو طالما ان إمكانية التغيير نحو الأحسن معدومة ؟!

شوهه الغضب في مدينة التحنيط، شبكة الفاسدين التي لا تبالي بالقوانين بل تتباهى انها فوق القانون، تنهب، وتسرق بفحش ووقاحة، والناس تراقب ما يجري بصمت وخوف، شعبٌ بأكمله مذعور وخائف، شعبٌ بأكمله يمضغ الخوف كل يوم حتى يتحول الخوف إلى قات ؛ ما من سلوى لوجع القلوب إلا الكلام، كلام ثم كلام ثم كلام. . . ويمضي العمر على أمل التغيير، ولا احد يعرف كيف سيتم التغيير، هل سيهبط من السماء، او سيطلع من قاع القلوب المتورمة بالقهر ؟! مدينة التحنيط أفرزت قيماً جديدة، فانعدام الأخلاق هو القاعدة، السرقة شطارة، والعهر موهبة وقلة الذوق أساس التعامل بين البشر. . . " لا يمكن ان اصل ان لم اسحق عدة زملاء بطريقي " هذه هي القاعدة التي يتنفسها الناس جميعاً.

وحين قال لي : كنتُ أتسكع في أزقة مدينتي، تلحقني رائحة القمامة، شاعراً اني ضيعتُ نفسي، بل لستُ سوى ظل لنفسي، بكيتُ. أراد ان يتأسف لأنه يسبب لي الحزن. مسحتُ دموعي وقلتُ اني ابكي لأني تفوهت بالعبارة ذاتها ودون أي تحريف منذ مدة قصيرة.

في الواقع كان شيء من مَرح لذيذ في أحاديثنا عن الهُناك، لكن

حتى هذا المرح كان في جوهره حزن وأسى.

ذات مساء، كنا نتمشى على الكورنيش، ويدي تمسح الفنار الحجري لبحر بيروت الرائع، كنا نتأمل المقاهي البحرية الرائعة، الروضة، ودبيبو، ونتحسر بصمتٍ على المقاهي البحرية في اللاذقية التي مُسحت من الوجود حين بلطوا البحر.. فاجأني بضحك كالقصف، وبصعوبة قال انه تذكر حادثة، جلست على الفنار الحجري معطية ظهري للبحر، مستمتعة بالبرودة المنعشة الرطبة، كما لو انني مُحتضنة من الخلف بكيان دافىء محب.

قلتُ له : هيا، أضحكني معك.

لجم ضحكه بصعوبة وقال لي : تصوري ذات يوم، خربشت توقيعي واتاني الهام ألا أفرّ من المشفى بل ان اجلس في المكتبة أقرأ رواية شرف لصنع الله ابراهيم فوجئتُ بعد لحظات بدخول مدير المشفى إلى المكتبة لم يلقِ التحية، بل اتجه بخطوات واسعة الى النافذة ووقف يرصد الشارع وبيده ورقة وقلماً، لم اعرف في البداية ماذا يفعل، ثم فهمت انه يسجل أسماء الأطباء الذين يهربون، وفي اقل من عشرة دقائق كان قد كتب أكثر من ثلاثين اسماً !! تصوري المدير يتحول الى شرطي. خرج من المكتبة ساخطاً وهو يتوعد ان يعاقب الهاربين جميعاً... تمنيتُ لو املك الشجاعة وألحقه لأذكره انه كان أول الهاربين قبل ان يصير مديراً.

– وهل عاقبهم؟!

– عاقب معظمهم، ولكن البعض لا يجرؤ ان يعاقبهم لأنهم فوق القانون.

كنتُ سعيدة لأني اشعر انني وبحر بيروت والهواء المنعش وهو ـ صديقي ـ كيان واحد، بيننا لحمة قوية لا تنفصم، معه أصير أقوى

وقادرة على الشفاء.

وحين قلتُ له ذات يوم: في صداقتنا الشفاء.

اخرج مفكرة صغيرة من جيبه وسجل تلك العبارة، وهو يبتسم بامتنان.

• • •

في عيده التاسع والسبعين، قبّلت وجنتيه الذاويتين وتمنيتُ له أمنيات زائفة بطول العمر، قرر دعوة أصدقائه إلى مطعم ايطالي، كنتُ اجلس بجانبه أمثّل بذهول اني زوجة المفكر المبدع، ولم يكن احساسي بالغرابة والذهول قويين كما احسهما، وأنا أتأمل الوجوه الموغلة في الشيخوخة، وكيف تصبح ملامحها مضحكة وبشعة حين تضحك... تسعة من أصدقاء زوجي المقاربين له في العمر كانوا يحفّون بي، ليشعروني بوطأة الورطة، ليس ورطة عيد ميلاده، بل زواجي... قدموا له هدايا فخمة، ربطات عنق فاخرة، وبسكي معتق، حمالة مفاتيح من الذهب، طقم أقلام شيفر، لكن أكثر ما أثار سخريتي زجاجة عطر مُسكر من ايف سان لوران تخيلت العجوز المهترئ سيرش جسده بالعطر ليغريني !! يا للقرف، فكرت، بل قررتُ اني سآخذ معظم هذه الهدايا وأعطيها لصديقي، فزوجي المسكين لم يعد ينتبه او يتذكر أغراضه... تخيلتُ فرحة صديقي بالهدايا، وكيف سيتمنع عن قبولها لكني سألح...

حين دخلنا الشقة البديعة، وقد تناثرت باقات الزهور في زواياها كهدايا من تلامذة زوجي المعجبين بمؤلفاته والذين يتذكرون عيد ميلاده كل عام... شعرتُ باستراحة المحارب، الحمد لله ارتحتُ من طقوس عيد ميلاده... وضعتُ كيس الهدايا في غرفتي، طلب اليّ ان احضر ماء الزهر، كنتُ بحالة نفاذ صبر، أريده ان ينام بسرعة، لعنتُ ماء الزهر،

لأني لن اقدر ان أذوب فيه المنزم...

من يستطيع ان يتنبأ بتصرفات الشيوخ... جلستُ بجواره على الشرفة ارشف ماء الزهر، واثني على كرم أصدقائه ولطفهم، كان يرنو إلى البحر الأسود الملتمع تحت نور قمر قريب ومستدير، قال لي : كم أحس ان نهايتي قريبة، كما لو انني أراها أمامي...

في قلبي أسرعت أقول : يا ربت، لكنني شهقت ومثلت الغضب قائلة : أرجوك لا تتحدث هكذا، يارب، يارب يعطيك طول العمر...

ابتسم دون ان ينظر إلى وجهي، ابتسامة ملتبسة، كما لو انه يحزر نفاقي لكن قد أكون واهمة، إذ صار من الصعب ان اعرف كيف يفكر، أو إلى أي حدٍ عُطب فكره.

ارتعشت يده فاندلق ماء الزهر على قميصه الحريري، انفلت بشتائم بالانكليزية أسرعت امسح القميص واطلب إليه ان ينزعه لأغسله فوراً، فتوجه بغضب اليّ واتهمني بقلة الذوق وبأني من مدينة بالية ولم أتعلم آداب السلوك، فكيف اطلب منه وهو مستمتع بجلسته ان يذهب إلى غرفته لينزع ثيابه...

كانت بي رغبة شديدة ان اشتمه واترك لعنان مشاعري المكبوتة ان تفصح عن نفسها، تخيلتُ اني سأقول له : ياخرف، يامسكين، أتشتمني، ألا يكفي اني أتحمّل قرفك...

لكني لم ابدِ أي ردّ فعل، سوى ابتسامة سخرية، لا اعرف ان كان قد لحظها، حدثت نفسي المهم ان ينام، ان يريحني وينام.

لكن ليلة التعذيب الخيالي بدأت حين تحامل على نفسه وقام بمشقة من كرسيه ومدّ لي يده قائلاً بصوتٍ واهن يتوسل : ألن ترافقي حبيبك إلى غرفته وتدلليه كي يغفو.

انصعقتُ وانصعتُ، رافقته وأنا ابذل جهوداً خارقة كي اكبح فوران

غضبي استأذنته لأشرب ماء، أخرجت زجاجة الويسكي، وتجرعت جرعتين كبيرتين أحرقتا أحشائي، لدرجة ترنحتُ من قوة المشروب.

جلستُ على حرف سريره، انتظر خروجه من الحمام، كنتُ أراه بعين خيالي كيف ينزع بروية وبيدين مرتجفتين عدسات عينيه ويضعها في العلبة المخصصة لها ثم ينزع ثلاث جسور من فمه وينقعها في الكأس الخاص الممتلىء بالماء المعقم... وبعدها يغسل فمه بالسائل المركز الفوّاح برائحة النعناع... ويلبس عباءة نومه الرقيقة على جسده العاري المقرف.

لكنه خرج من الحمام عارياً تماماً، فصرختُ به لِمَ لا تلبس عباءة النوم.

رد بسخرية لاذعة : أتخافين عليّ من البرد.

استدار فتأملت مؤخرته المُجعدة، فعصفت بي عاصفة ضحك لم انجح في كتمها فاضطررتُ لأكذب، وقلتُ ان سبب ضحكي هو صديقه فلان الفلاني الذي صار ينسى اسم زوجته...

لم يعلق لا على ضحكي ولا على كلامي، جلس في سريره مسنداً ظهره إلى الوسائد الثلاث، وطلب إليّ ان اشغل المذياع على المحطة ذاتها التي تبث أغاني الخمسينات الرومانسية.

اللعنة على هذه الليلة، اللعنة على هذه الليلة...

نفثت طلباته، فقال : ألن تداعبيني قليلاً.

هل ابصق عليه، واشتمه ! وجدتني اجلس بجواره منكمشة، أمسح على رأسه البارد بنعومة، أثار ملمس زغب رأسه اشمئزازي... أمسك يدي وهبط بها إلى صدره الرخو، ابتلعتُ قرفي وداعبتُ كتفيه المقوسين بعضلاتهما الضامرة وجلده الجاف الأملس، ثم داعبت ثدييه المتهدلين الرخوين، وأنا اشعر كيف يصلبني القهر وينتهكني... ترى هل أنا

قبلة... ألا يمكن ان أنجو من هذا الوضع المهين؟!

لكني لم أكن املك الوقت لأفكر، كنتُ في قلب المعمعة كما اسمي لقائي معه فوق فراش الخداع والقرف، وكي تصل المهزلة إلى ذروتها قال لي:

انزعي ملابسك لقد اشتقت إلى جسدك.

- لا، لا أستطيع.

ادهشني جوابي أكثر مما صدمه، كيف امتلكت الجرأة لأرفض بشكل قاطع.

أسرعت أقول: أحس بإنهاك وبرد.

لم يعلق، لا اعرف هل جرحه كلامي، لكن كبرياءه يمنعه من معاتبتي، لكنه قال بعد برهة: أتبخلين على حبيك ببعض المداعبات؟

تساءلت ان كانت غايته إذلالي، هل ينسى أم يتناسى قرف جسده واهترائه؟! أم انه خرِّف لدرجة يصدق فعلاً اني أتقبل جسده ويمكن ان احبه وأداعبه؟!

لكن حين باعد بين فخذيه ليكشف عورته الضامرة المسودة، وقال لي وهو يبتسم:

- قبليه...

انتفضت كملسوعة بلدغة عقرب وقلتُ له وأنا أكظم غيظي: لا أحب هذا المزاح.

- لكني لا امزح.

أجبرتُ نفسي ان احتمي بالصمت كي لا انفجر، قمت واتجهت إلى النافذة العريضة أحدق بعينين ملتهبتين بالغضب ببحر بيروت، أعاتبه انه لا يهب لنجدتي، ارجوه ان يرحمني... تمنيتُ لو ارمي نفسي من النافذة وانهي حياتي، تمنيت لو املك الجرأة واخنقه... لا اعرف كم دقيقة

مرّت وان نهب انفعالات هدنني هدأ. . . وجدتني امشي بهدوء واخرج من غرفته وحين وصلت إلى الباب جمدني صوته : ناولبني عباءة نومي.

أعطيته عباءة النوم دون أن انظر إليه. . . ولم يهمني أن اسأل عن معنى الشتائم التي كان يرطم بها بالانكليزية.

بآلية ابتلعت حبتي منوّم، ابتلعتها مع الويسكي، دخلتُ غرفتي واقفلت الباب وتأكدت من إغلاق النافذة، كان جسدي يرتعش كأنه مسموم، كنتُ متأكدة ان حالة تسمم نفسي قد أصابتني. . . وقبل أن اغفو واغرق في غيبوبة النوم انتبهتُ ان وسادتي قد تبللت بالدموع

• • •

من أنا ؟! ألحّ عليّ هذا السؤال وأنا جالسة في المقعد الخلفي للسيارة المرسيدس من أحدث طراز، وبجانبي العجوز. كنتُ أصغي بذهن شارد لصديقته والتي تصغر زوجي بسنوات قليلة، تقود السيارة ولا تتوقف لحظة عن الثرثرة وعن عشيقها الحالي ـ احد أصدقاء زوجي ـ الذي سخر لاصطحابه، لنقضي ليلتين في أجمل منطقة في لبنان وأكثرها ترفاً : فاريا.

كان عشيقها مثقفاً ذائع الصيت عاش عمره في أميركا وله كتابات هامة عن الشعوب العربية وعلاقتها مع الغرب، خاصة ان الغرب يحتفي به كثيراً، وقد يكون المثقف العربي الذي نجح بخرق الثقافة الغربية مرسخاً حضوراً قوياً بين المثقفين الغربيين.

كان لا يزال محتفظاً بقامة منتصبة رشيقة رغم تجاوزه عقده السابع بسنوات، وما ان انضم إلينا، حتى نثر في الجو حيوية هائلة، كان حضوره آسراً حقاً، وحديثه شيقاً، وتعليقاته ساحرة، ولا تزال نظرته تحتفظ ببريق الشباب.

فكـّرتُ انه كهلٌ يقارب زوجي في العمر، لكنه يُحبّ، ولا تزال روحه متوهجة وجسده مقبولاً، ولم استطع منع نفسي عن التفكير بسوء حظي، وحسرتي اني لم أتزوج رجلاً مثل صديق زوجي... ياه أي نحس يقمصني، لم اتزوج سوى أتعس عجوز في العالم.

لم أكن قد زرت فاريا من قبل، منذ أيام رافقتُ صديقي إلى ضهور الشوير وتغدينا في مطعم الصخرة بعد ان نسجتُ كذبتي بإحكام واقنعتُ زوجي اني سأغيب نهاراً كاملاً لأني سأرافق صديقة لي ستجري عملية استئصال ثدي.

واليوم أنا مع زوجي وأصدقائه... يفتتني شعوري بالضياع، فلا انفك أتساءل من أنا؟ ماذا أريد؟ ماذا فعلتُ بحياتي؟!

ولم يكن لي من معين سوى الإطراء اللبق والرقيق الذي كان يخصني به صديق زوجي... خاصة حين يغمز العجوز ويقول له: انتَ محظوظ بزوجة جميلة وشابة ومثقفة مثل ايمان.

فيرد زوجي: هي ايضاً محظوظة، لقد أنقذتها من مدينة مُقرفة.

لمن انتمي، لهؤلاء النخبة التي عاشت حياتها بالطول والعرض، والتي احسدها على أسفارها وحياتها الغنية وثقافتها وسعة اطلاعها، أم انتمي لصديقي الهارب مثلي من مدينة انتهكته وعفـّرت كرامته في وحل الفساد؟!

كنتُ بحالة مزرية من الإعياء النفسي بعد الليلة المدمرة التي قضيتها في صحبة العجوز ليلة عيد ميلاده، وجدتني استنجد بوجه ابني كعادتي دوماً حين أشارف على الانهيار، كم احتاج ان أضمّه واقبـّله واشمّه، كيف كيف أقنعتُ نفسي ان زواجي من العجوز هو لصالحه وكي اضمن له مستقبله، ليتمكن من الدراسة في أحسن الجامعات، لأؤمن له بيتاً يؤويه... كم ارغب بالاعتذار له.

قررتُ انه حال رجوعي من فاريا، سأسافر إليه، وأبقى معه شهر الامتحان كله وليذهب العجوز الى الجحيم...

كان فندق فاريا اسطوري الفخامة، لكنه خاوٍ من الناس، لأن الموسم السياحي الشتائي والتزلج على الجليد قد انتهى، وبدا العاشقان سعيدين يمرحان ويضحكان... تساءلتُ أهما عاشقان حقاً أم يمثلان؟! بدا لي عشق الكهول غير مقنع ومضحك... يبدو ان حياتي مع العجوز قد سممت روحي وتفكيري معاً، فصارت رؤيتي مشوهة لكل شيء.

أبدى زوجي انزعاجه لوجود سرير واحد عريض في الغرفة، تبرّم وتذمر وقال انه لا يستطيع ان يغفو وبجانبه شخص، مهما يكن!

ولم يعرف أية سعادة ادخلها إلى قلبي حين اقترح عليه الموظف في الاستقبال ان يحضر سريراً اضافياً إلى الغرفة...

شعرنا بالجوع، لأن مناخ فاريا البديع المنعش يفتح الشهية، وينشط الغدد، وبعد ان وضعنا أغراضنا في الغرف المترفة، التقينا في المطعم ذي الإطلالة البديعة بيوت متناثرة على سفح جبل، لم ار في حياتي بيوتاً أجمل وأكثر أناقة وحيوية من بيوت فاريا، سقوف قرميدية، وقواطع خشبية كثيرة، لم يكن في المطعم احد غيرنا لذا حظينا بدلال خاص.

اقترب منا نادل سحرني جمال وجهه وسألنا ماذا نشرب، اجمعنا اننا نريد نبيذاً احمر، أما زوجي فأصر على النبيذ الأبيض.

ساعدني النبيذ كي اخفف إحساسي بالضياع والغربة، كنتُ اشعر تماماً كما لو اني مقتلعة من جذوري وملقاة بإهمال على رصيف الحياة، وبمعونة النبيذ والحديث الساحر لصديق زوجي أمكنني الاسترخاء والاستمتاع بالمكان والمناظر الساحرة وقررتُ أني سأدعو ابني وصديقي في اقرب فرصة إلى فاريا. فجأة غمرتني مشاعر حنان عذبة تجاه صديقي، تخيلته يعمل في المشفى، ويسجل العمليات باسم طبيب

لبناني، ترى هل بدأت أحبه؟! أليس الحنان بطانة الحب، وهو ألم يقل لي انه يشعر بالضياع ان لم يتحدث إليّ كل يوم... هل يحاول كل منّا ان يرمم روحه بايهام نفسه انه يُحِب ويُحَب...

كان النادل الجميل دائم الابتسام، لكني شعرتُ انه يقاوم تعبه بالتظاهر بالابتسام... تخيلت انه يرافقني في نزهة طويلة لأتعرف على معالم فاريا الساحرة... غريبٌ أمري، هل صرتُ أدمن بالتخاطر بين البشر، لأنني في اللحظة التي تخيلتُ فيها اني امشي برفقة النادل في الغابة، قال بلهجة مرحة ومبطنة بسخرية لم يلحظها احد غيري:

- هل الشابان راضيان عن الخدمة؟

قال هذه العبارة وهو يركز نظرته الثاقبة على وجهي، نظرة تعني: خسارة شبابك مع هؤلاء العجائز.

ظل زوجي مكفهر الوجه كالعادة، لكن صديقه المرح قال: كله ممتاز.

بعد الغداء أحس زوجي بنعاس وتعب، ورغم تعبي فقد آثرت ان انطلق في طرقات فاريا، وان افرّ من وجود زوجي، رغبتُ أن اتصل بصديقي لكن خفت أن انقل له تشوشي خاصة بعد سموم الليلة السابقة.

ما الذي يحدث في أعماقي؟ أية تفاعلات كيميائية وشرارات كهربائية تحدث في غرف روحي العميقة، أتنفس هواءً منعشاً، وتلتمع عيناي متأملة سحر طبيعة تشعرني اني استيقظ من سباتٍ طويل، اشعر بصدمة المعجزة حقاً، يتقل إلي عنفوان الطبيعة وسحرها وقوتها، تتدفق مشاعر ايجابية حارة عنيفة، أحسها تفور من ينابيع عميقة في روحي، أتخيل أعماقي أشبه بوكر نحل تسابق فيه العاملات لصنع عسل الشفاء.

سيطر عليّ هوى اني أريد ان أعطي لحياتي دفعاً جديداً، لِمَ لا؟

تذكرتُ نصيحة احد الفلاسفة للناس، بأن يقولوا كل صباح لأنفسهم : نحن قادرون. كل صباح يجب ان يقول كل إنسان لنفسه : أنا قادر.

تبكتُ الأشجار، في لحائها دفء أشبه بدفء جسد حبيب، رشحت عيناي بدموع الوجد، ليس لابني ولأهلي وللناس البسطاء الذين أحبهم، بل للكون كله، وعيتُ ذلك الانسجام والتناغم البديعين بيني وبين الكون، كنتُ محتواة داخل روح كونية عظيمة.

جلست تحت شجرة شرح عملاقة، وأسندتُ ظهري إلى جذعها، وتأملت النمل النشيط بحنان... تذكرتُ كيف كنتُ اسحقه لمجرد التسلية، بالقسوة البشر ا...

النمل الذي وجد قبل الإنسان بملايين السنين، ولا يزال مستمراً، رغم انه اضعف الكائنات الحية، ولا يملك أي سلاح سوى الصبر والاجتهاد، النمل المُسالم الذي لا يؤذي أحداً لا يشكو، ولا يتباهى، لا يأكل إلا القليل، لا يطمع احد باقتنائه... لا بيت له سوى ثقوب صغيرة في ثنايا الجدران او سطح الأرض، كنتُ بحالة عجيبة من التوهج لدرجة ان سرياً من النمل يعلمني حكمته، كان بامكاني ملامسة تلك الطاقة الهائلة المشعة في أعماقي، طاقة تتفجر حرارة في راحتي، وومضات قوية في عقلي، بل شعرتُ بأن الشرارات التي تنبعث من دماغي تشبه الألعاب النارية التي يطلقونها في السماء أثناء الاحتفالات، يا للانقلاب العجيب في أعماقي، فوران من الضوء والطاقة بنيران آخر نقطة معتمة في عقلي، هوى أثقال وثقيل يرّج جدران قلبي، تنهمر صور من حياتي أمام نظري، عليّ ان أعيد فهم هذه الصور، وراء كل صورة كهف يجب ان نعرف مَدخله لنصل حتى قاعه المعتم، ما الصورة إلا تظهيرٌ لهذا القاع المعتم، انها تحصيل حاصل لكم هائل من التفاعلات التي حدثت. كان المدى الواسع يحفزني لتنقية روحي من السموم،

لأمتلك شجاعة المواجهة، ماذا فعلتُ بحياتي؟ مَن مثل الطبيعة النقية الأبية يُشعرنا بفساد أعماقنا؟! هل أنا راضية عن عيشي؟! ما الذي يربطني بالعجوز؟ إلى متى سيظل هروبي؟! كيف أقنعتُ نفسي ان اقسّم حياتي إلى حياتين، اياماً مع ابني، واياماً مع العجوز الذي اسمه زوجي؟! وأقنعتُ نفسي ان ما افعله هو عين الصواب؟! يا ه كم تفضحني الطبيعة كم تعريني وتعكس لي حقيقتي المُنافقة البشعة...

انجلى ذهني، والتمعت حواسي متوهجة، كذلك اللمعان الأخاذ للأشجار بعد مطرٍ عاصف، غسلت الدموع عيني وقلبي وأنا اهمس: يا للعمر المهدور، يا للعمر المهدور، أمكنني في تلك اللحظات ان اقبض على سنوات حياتي، كما لو انها كمشة سنوات، عصرني ندم حارق وأنا أعي كيف يُهدر العمر ويضيع، وكيف نرزح تحت ظروف قاسية تجثم فوق حياتنا كصخرة عملاقة لا نملك القدرة على زحزحتها... اعرف انني لستُ الوحيدة التي تشعر ان عمرها ضاع منها، كل هؤلاء الملايين المساكين، اللاهثين وراء اللقمة، المهدوري الكرامة، اللذين فقدت وجوههم تعابير الكرامة، كل هؤلاء المساكين الذين يستمرون في الحياة بفتات الأمل ويقتصدون في عيشهم وطعامهم وفرحهم ويأوون إلى بيوتهم متعبين منكسري القلوب كالنمل تماماً...التمعت بذهني تلك الصورة وخنقتني، الشعب مثل النمل، يكدح ويكدح، مذعوراً ان يجوع ذات يوم، ثم يأوي إلى جحور لا تدخلها شمس الحرية والكرامة.

ماذا عليّ أن افعل؟! أية شربكة غريبة هي حياتي، نفاق مستمر مع عجوز متكبر متجهم، ابني الذي اعبده واتركه وحيداً لأيام طويلة بحجة انني سأؤمن له مستقبلاً مشرقاً... ساعات التسكع في مدينة سحرتني وكانت هروبي الأجمل، رجل هو مرآة روحي هارب مثلي، نلتقي

لنتحدث عن الهُناك... سر علاقتنا ان حديثنا لا ينقطع... كما لو اننا نشفي جراح أرواحنا بالكلام، هل كنتُ احتاج ان أحتضن بطبيعة فاريا الساحرة كي أواجه نفسي؟! أم ان تلك المواجهة كانت لابدّ حاصلة؟ كنتُ أحدسُ ان كل قواي الآن مستارة ومستفزة لتشكيل قرار، يجب ان اتخذ قراراً حاسماً وان أضع النقاط على الحروف، صحيح انني أعيش حياة مترفة مع العجوز لكنه لم يؤمن مستقبل ابني، استحي ان ألمّح له ان يضع مبلغاً من المال باسمي، لا املك حساباً في البنك، ولم يلمّح مرّة انه سيشتري لي بيتاً... عجباً كيف استمر معه وكل أموري معلقة، أية مغفّلة أنا !! وحين ترضى امرأة شابة ان تربط حياتها بعجوز فيجب ان تقبض الثمن سلفاً، ويجب أن يكون ثمناً باهظاً، لأن لا شيء في العالم يعوّض ذبول الروح...

أغمضتُ عيني منتشية من الهواء المنعش المحمّل بشذى الأرض والأغصان فكرتُ اني لو مُت الآن سأكون سعيدة، ستضمني فاريا الساحرة إلى حضنها الدافىء... خفتُ ان أغفو، لأن استرخاءة لذيذة خدّر أطرافي، قمت وقطفت بعض الزهرات الصغيرة البنفسجية ذكية الرائحة، وعدتُ إلى الفندق منصتة طوال الوقت لهدير أفكاري، عليّ ان أضع النقاط على الحروف، عليّ ان أواجه العجوز بصراحة، ولن يهمني رد فعله، لم اعد أخشاه...أشعرتني تلك الحقيقة بقوة عظيمة : لم اعد أخشاه.

كان الرجل الفذ ـ كما سميته ـ يدخن الغليون ويشرب الاكسبريسو، أحاطه الدخان بهالة من الغموض الساحر، شعرتُ بفرح انه وحده، سيمكنني ان أتحدث إليه، هذا الرجل ساحر، كل عبارة تصدر عنه مدهشة، آسرة، مضيئة، صادمة كما لو انها تحفزّ فكرنا على التفكير، لوّح لي ودعاني للانضمام إليه... سألته عن صديقته فقال انها

تعاني من صداع وترتاح في الغرفة...

سألني ان كنتُ ارغب بشرب الاكسبرسو، فقلتُ انني أفضل القهوة.

عاودتني الفكرة ذاتها: ليت هذا الكهل الرائع كان من نصيبي بدل العجوز الذي لا يُطاق... لم اخفِ إعجابي به، قلتُ له: أتعرف، أحسدك على روحك المرحة الذكية، وعلى حيويتك، والجو المرتاح الفرح الذي تنشره حولك... صدقني لم التق برجل شخصيته آسرة مثلك...

ضحك وقال: تقصدين لم تلتقِ بعجوز روحه مرحة، خاصة ان العجائز عادة مكتئبون ونزقون ومتذمرون، كزوجك.

صدمتني جرأته، ورغبته ان تتحطم الحواجز بيننا دفعة واحدة، حين هممت بالكلام عجزتُ عن صوغ عبارة، كان ذهني مشوشاً ومرضوضاً، أعطاني النادل الذي يضع فنجان القهوة وكأس الماء على الطاولة أمامي فرصة لأستجمع أفكاري... وجدتني أرد بدون تفكير: لكنه صديقك.

نفث الدخان ذكي الرائحة وقال مؤكداً: أجل انه صديقي الذي اعرف عيوبه. حدثيني كيف ارتبطت به؟

ياه، كيف عرف هذا الرجل الفذ كم أنا بحاجة لحديث روح لروح وفكر لفكر.

كانت موسيقى ناعمة هامسة تتسلل إلى مسامعنا كأنها تغوينا ان نبوح بأسرارنا، في عينيه نظرة تفهم دافئة وعميقة، تشعرني بالطمأنينة، وتؤكد لي انه صديق يمكنني الوثوق به...

قدّم لي غليونه، وقال بصوتٍ مشجع: دخني، فهذا يساعدك على الكلام...

وجدتني اتشجع وأسأله: أراك تهتم لأمري.

- بالتأكيد، أنت شابة ذكية وحساسة، وروحك حلوة ومرهفة، أريد

ان اسمع منك، ان أعرفك...

أمكنني أن اشعر بسحابة الحزن كيف عبرت وجهي، فكرت ان هناك غريزة لدى الإنسان هي غريزة الاعتراف، كل منا يحتاج ان يتخفف من أثقال روحه...

يا ليتني التقيت هذا الرجل قبل زواجي، ليته كان من نصيبي...

نفث الدخان بتلذذ، فدب شعور مرح لذيذ في روحي، وجدتني ابدأ كلامي بضحكة ساخرة: تصور أنت وأنا من بلدٍ واحد، قريتك تبعد عن مدينتي نصف ساعة، لكنك محظوظ، أحسدك حقاً فقد نجوت.

- ما من شك انني نجوت، فالابتعاد عن بلد الخوف نجاة حقيقية...

- بلد الخوف والفساد لو سمحت.

- اجل، انهما وجهان لعملة واحدة... لكن أحب ان اعترف لك انني عشتُ طفولة بائسة، فقر مدقع، كنا ننام مع الحيوانات في غرفة واحدة.

ضحكت، قلتُ وأنا أتأمل أناقته المفرطة: كم يصعب عليّ الربط بين الرجل الأنيق الذي أتحدث إليه الآن، وذاك الذي كنته، تنام في غرفة بائسة مع الحيوانات.

- معظم الناس كانوا فقراء وقتها، لكن أتعرفين صور طفولتي متوهجة أبداً في ذاكرتي وفي كل مرة أستعيدها أحس بنشوة غريبة، كنتُ امشي في البساتين حافياً آكل خبزاً، واقطف ثمار الأشجار، وأتفرج على أمي ونساء القرية، لا يتوقفن عن العمل، لا يشكين أبداً... كم كانت الحياة صعبة.

وجدتني أقاطعه: لكنها كانت حقيقية.

بدا راضياً عن تعليقي فقال: اجل كانت حقيقية، كان فيها تحدٍ

وأمل... روعة امي ونساء القرية انهن رغم افتقارهن للعلم والثقافة ورغم كونهن أميات، لكنهن آمَن بالعلم، عرفن بحدسهن الفطري ان لا مستقبل بلا علم، كانت امي تقدس الكتاب رغم انها لا تعرف القراءة.

- ألا تزور قريتك؟

- لا، للأسف، مشاغلي كثيرة، وفي كل مرة أزورها، أجرجر لساعات طويلة إلى التحقيق، لماذا تكتب هكذا؟ لماذا قلتَ هذه الفكرة؟ ألا ترى ان كتابتك تسيء للوطن؟

- الا تخشى أن تسجن ذات مرة؟

- طالما اننا عرب، فهذا يعني ان الخوف معشش بأعماقنا، لا تصدقي أحداً يقول لك أنا لست بخائف، لا تتخيلي كم أحس بحزن حين ازور وطني، واقصد بيتي الريفي الذي أتمنى لو تزورينني فيه ذات يوم، يتوافد شبانٌ وشابات لزيارتي، كم احزن عليهم، طاقات لا تجد متنفساً، قهر وذل وفقر وخوف، انعدام الأمل بالمستقبل... لديهم حلم وحيد أن يهجّوا، أن يجدوا عملاً في أية دولة خليجية أو أجنبية، عملاً يشعرهم بكرامتهم وآدميتهم... لأن بلدهم يذلهم بالبطالة، ورواتب الاحتقار...

وكما لو انه فتح باباً موارباً بين روحي وروحه، قلتُ له بحماسة: أتعرف عملت ممرضة أكثر من خمسة عشر عاماً، هل تخمّن كم اقبض كل شهر: مئة وعشرين دولاراً!

- اعرف، فأنا على إطلاع على أدق التفاصيل في وطني، في آخر زيارة لي التقيت بشابٍ جامعي، في كلية الطب، اعترف لي انه يعمل حمالاً في المرفأ... واعرف مهندسين وحاملي شهادات جامعية، يشتغلون سائقي تاكسي... والكثير من الموظفين حاملي الشهادات يعترفون انهم يأكلون اللحم مرة في الشهر، وان كل ملابسهم وملابس أولادهم من سوق الألبسة المستعملة.

يستهويني الفضول لأسأله : لو انك بقيت في الوطن، هل كنتَ لتصير على ما أنت عليه؟

وأظنه قرأ السؤال في عيني قبل ان اسأله، فقال: يستحيل، ما كانوا سيسمحون لي ان اكتب كما اكتب بحرية... مشكلة العالم العربي الحرية... هذه الكلمة تصيبهم بالذعر...

- من هؤلاء؟ من هؤلاء الذين يمنعوننا من الكتابة بحرية، ويسجنوننا اذا كتبنا بحرية وصدق؟!... أظن ان العرب أكثر الشعوب تستعمل الأفعال المبنية للمجهول.

ضحك، ربت على خدي وقال : أنت امرأة ذكية وحساسة، معك حق، لقد كتبت ذات يوم مقالاً عن الفعل المبني للمجهول في الخطابات العربية.

أتسألينني من هؤلاء، انهم المستفيدون، الذين يمتصون خيرات الوطن ويتحكمون بمفاصله، والذين يحاربون أي فكر حرّ نزيه لأنه يفضح ممارساتهم.

- حسناً، والناس، لماذا يتحملون! بل كيف يتحملون كل هذا الذل؟!

الجواب بسيط ياعزيزتي لأنهم خائفون، شعب بأكمله مذعور.

كنتُ اعرف الجواب، لكنني رغبتُ ان اسمعه منه، لكن عجباً لم أتوقع ان عبارته ستنغرس كالخنجر في قلبي.

طلب من النادل ان يحضر البيرة، قال : حديث ثقيل مثل حديثنا يحتاج لمعونة البيرة...

فكرّت كم هو آسر، وكم ان كل عبارة تصدر عنه ساحرة... شكرته على الغليون فأعاد ذكه بالتبغ، وابتدأ ينفث الدخان بتلذذ...

- أرى انك تهربين من التحدث عن نفسك.

- لا ابداً، ماذا تريدني ان أقول، حياتي هروب... أتأرجح بين هروب وهروب

- كما قدّرت، كان زواجك من صديقي مجرد هروب.

- تماماً.

- لكن الهروب لا يحلّ المشكلة يا سيدتي.

- وما الذي يحلّها؟

- المواجهة.

انفجرت بضحك وقح، تعمّدت ان يجرحه، سألته بغضب: منذ دقيقة كنتَ تتحدث عن شعب يشله الخوف، شعب مذعور كما سميته، وتقول لي الآن ان الحل هو المواجهة.

- اجل، لأن الخوف حين يصل إلى حد معين، يجب أن يتحوّل، بمعنى آخر ان يُستثمر، وحين يُستثمر الخوف تحدث المواجهة.

- كلامك جميل، لكن ثمة فجوة هائلة بين الأفكار والتطبيق، هل يمكن ان تعطيني أمثلة، اقصد ان تترجم كلامك على ارض الواقع...

- اقرئي التاريخ، تجدين أجوبة لكل تساؤلاتك، الشعوب تثور، تحمل وتحمل الظلم والقهر لكنها تثور... في كل زمن وفي كل مجتمع هناك قادة، أشخاص شجعان متنوّرو الذهن يحرضون الناس لمقاومة الظلم...

ضحكت ضحكة ترشح بالألم وعكس خيالي صورتنا نحن النساء البائسات نتناول فطورنا الفقير كحياتنا، متحلقات حول صحن البطاطا المسلوقة المهروسة ككرامتنا.

ابتسمت وقلتُ له مداعبة: نحن النساء البائسات سنقود الثورة.

- أية نساء؟!

للحال انهار جدار بيني وبينه، فتدفقت بالحديث، كان كلامي

كشلال، كمطر غزير يرغب ان يبلغ أعماق أعماق الأرض... حكيتُ له كل شيء عن مشفى القذارة وعن المدينة البائسة الفقيرة، عن الخوف، والتفاهة، وانعدام الثقافة، حكيتُ له عن اليوميات التافهة المهدورة، تدخين الاركيلة، والجلوس لساعات في المقاهي ندوّر آلة الكلام الأبدية، كلام ثم كلام ثم كلام، المتنفس الوحيد للمهدورين...

توقفت فجأة عن الكلام، حدقت به بقسوة، غرست عيني المتمردتين في عينيه المسالمتين وقذفت عبارتي كسهم : قل لي الآن كيف ستولد الثورة.

- افهم غضبك واحترمه لكن...

قاطعته وقد استفزني هدوؤه : ما يجب ان تعرفه ان الموضوع أكثر تعقيداً من مجرد غضب، هناك عمر ضاع ياعزيزي، هل تتخيل شعور إنسان يشعر ان عمره ضاع منه... لو تعرف كم كانت أحلامي كبيرة، وكذلك إمكانياتي، لكني رغماً عني عُفرّتُ في وحل الفساد، رغماً عني تشوهت... وأنا الآن أمارس لعبة الهروب، كي انسى، فقط لأنسى ان عمري ضاع...

انهمرت دموعي لتفضح مدى توتري، مسحت راحته الدافئة على شعري بحنان اقترب مني وهو يقول : أنت امرأة عظيمة...

لكني قلتُ بإصرار : بل انا امرأة عهرّها الزمن.

ضحك، كما لو انه يستخف بدموعي، وقال : الآن سنأخذ استراحة من الكلام ونشرب البيرة، هيا، ارفعي كأسك في صحتك...

كيف يسحرني هذا الرجل؟ كيف استطاع ان يهدىء بلحظة ثورة أعماقي... رشفت البيرة وأنا أتأمل المكان حولي، الثريات العملاقة من الكريستال، الأثاث البديع من الخشب، الستائر المخملية المضاعفة المبطنة بستائر من الشيفون الوردي الفاتح، كل

شيء يبرق بالترف والذوق، ما اجمل الحياة حقاً... عكس خيالي سنوات الغيظ وأنا أعيش على حافة الانفجار، متربعة فوق سرير، في غرفة تختنق بأغراض أهلي، بيت الأسرة، او بتعبير أدق سجن الأسرة... أكان باستطاعتي ألا اهرب؟!

أكان باستطاعتي ان أعيش عمري متربعة فوق سرير انتظر انقلاباً في حياتي لن يحصل أ...

نظرتُ إلى صديقي مبتسمة قلتُ له : أتعرف، فيك شيء يحيرني، ليس مجرد كاريزما في شخصيتك، بل، اه كيف اعبّر لك، معك يختفي الألم. ابتسم وقال بأنه أجمل إطراء سمعه طوال حياته.

فجأة اتخذت ملامحه وضعية جدية، وبدا قلقاً... مسّد براحته شعره الفضي الاشبه بهالة من نور، وتأمل وجهي بحنان، نفث الدخان وقال : اسمعي، قد لا تسنح لنا الفرصة ان نلتقي ثانية، لكنك انسانة مميزة، وصديقة غالية، لقد لفتتني صفاتك النادرة، ثقافتك، حساسيتك، خفة ظلك، لذا أجد ان من واجبي ان أحذرك من مخاطر العيش مع رجل كئيب ناقم مثل صديقي، انه صديقي، وهو مناضل رائع لكنه دائم الألم لأن قدره ان يتفرج عاماً بعد عام على خسائر شعبه، انه كمناضل رجل عظيم، لكنه على المستوى الشخصي رجل قاسٍ ومغرور ونزق، ومُدّمر لمن حوله، أنت لا تعرفينه في شبابه، كان السبب في انتحار زوجته، لم تنتحر بشكل مباشر، لكنها أدمنت الكحول، هو الذي دفعها للإدمان، بإهماله لها، كان يشعرها طوال الوقت انها لا شيء، وان لا قيمة لها، ويتصرف في البيت كما لو انها غير موجودة... بحسب لغة علم النفس فهو رجل سادي، يتلذذ بتعذيب غيره، ثم انه لا يبالي بمن حوله، يهمه عالمه الخاص، انه مشغول دوماً بنظرياته وكتاباته، وكل من حوله يجب ان يُسخّر لخدمته.

- اعرف، كل ما تقوله صحيح، لقد عانيتُ كثيراً من عيشي معه، كان يذلني ويحقرني بلا سبب، في البداية اعتقدتُ انها طباع المفكرين والمبدعين، ثم صرتُ أجد له مبررات أخرى مثل المرض، وكثرة الأدوية التي يتناولها، خاصة أدوية سرطان الدم، فأفسر نزقه الدائم وتحقيره لي كما لو انها الآثار الجانبية للدواء... الى ان أدركت متأخرة انه يحب ان يدمر من حوله، يريد ان يكون محور الاهتمام دوماً وان يعبده الناس، ويمتدحونه طوال الوقت، والويل لمن لا يظهر له ولاء الطاعة...

- اذاً، ما الذي يقدمه لك هذا الرجل السادي؟!

بيروت، يقدم لي بيروت

- وهل تستحق بيروت كل هذه التضحيات!...

أجبتُ بابتسامة ودمعة، وشربت نخب صديق هبط في حياتي كمعجزة.

• • •

تذكرتُ كتاباً قرأته منذ سنوات موضوعه: لماذا نرضى العيش مع أشخاص يذلوننا! يومها أغضبني الكتاب ورميته جانباً وأنا ألعن المؤلف الذي سرد مئات القصص عن علاقات بين بشر أساسها الهيمنة والاستغلال، احد الطرفين يهيمن على الطرف الآخر ويسمم حياته وكيانه وروحه، يذله ويضطهده وينتهك كرامته والآخر مشلول الإرادة، يتقبل هذه المعاملة الوحشية صامتاً.

لماذا أتذكر هذا الكتاب الآن؟ ألستُ واحدة من هذه الحالات؟

وهذا الصديق الرائع الذي وضعه القدر في طريقي ليمد لي طوق النجاة ويحذرني بكل نبل نفسه: أنقذي نفسك قبل أن يدمرك العجوز.

أإلى هذا الحد خدرتني بيروت وسحرتني وبلبلتني، لدرجة جعلتني أقدم نفسي قرباناً من اجل البقاء في حضنها ! لكن أية فائدة سأحصل عليها من عيشي في بيروت إذا كان الثمن ان اخسر نفسي !

ابني الحبيب، الصامت، المكابر، الذي يحبني بلا حدود، لا يعاتبني، ولا يلومني يتظاهر انه يحترم زواجي... لكن...

يا لصدمة الحقيقة المزلزلة، كيف، كيف أمكنني الابتعاد عن ابني، ثم ماذا امنتُ له حفنة من ثياب جميلة وأحذية رياضية، حفنة من مأكولات لذيذة، احضرها له كلما زرته !...

لقد وعدني العجوز انه سيلحق ابني بالجامعة الاميركية، وأنا صدقته دون ان أطالب بأية ضمانات ! يا لي من مغفلة ؟! أية امرأة بلهاء أنا، اعتقدتُ اني اخدع العجوز، بينما هو الذي يخدعني، فقد نجح في اصطياد امرأة شابة تدلله، وتلبي طلباته المقرفة الشاذة، وتعتني به... مقابل وعود، مجرد وعود كلامية !

جللني الخجل، كنتُ خجلة من تجاربي ومن نفسي، عصف بأحشائي غثيان وأمعن خيالي بتعذيبي وهو يعرض أمامي صوري مع العجوز في فراشه، ياه كيف سمحتُ له ان يتهكني لهذه الدرجة ! لماذا نرضى العيش مع أشخاص يذلوننا ! ليتني لم أتخلص من هذا الكتاب.

كنت جاهزة للحظة المواجهة، فما ان عدنا من فاريا، ودخلنا البيت الفخم والصامت كقبر، حتى ابتدرتُ العجوز برغبتي ان نضع النقاط على الحروف.

وكعادته في تحقير من حوله، لم يعلّق بكلمة، لم أبال ؛ بل قلتُ له : أتعرف سيحتاج ابني الى سنتين كي يحصل على الشهادة الثانوية، وقد وعدتني ان تلحقه بالجامعة الاميركية، لكن لم تقدم لي أية ضمانات.

لوى فمه قرفاً وقال بعد تردد : كم انت إنتهازية، أتعيشين معي من

اجل المال !

ابتسمت بسخرية : بل من اجل الحب المتأجج وحده ! لأنك تحسن معاملتي وتذللني بتحقيرك المستمر لي، لعلك تمنى ان أدمن على الكحول كزوجتك.

أحسستُ بالبلبلة التي أحدثتها هذه العبارة في نفسه، وعجب من أين حصلتُ على هذه المعلومة، لم يسألني بل تابع بالبرود ذاته : أنا لا أساوم.

- لقد فكرتُ بمهزلة عيشنا المشترك، بالنفاق والتمثيل والخداع. . . أمامك احد خيارين، اما ان تضمن مستقبلي ومستقبل ابني بشكل فعلي، او أتركك بسلام تتابع حياتك في برجك العاجي.

لم يرد. . . استفزني صمته. . . قاومت رغبة جامحة ان انهال عليه بسيل من الشتائم اللاذعة، لكني تمالكتُ أعصابي، وقلت ببرود : أرى انك لم ترد !

- لا جواب عندي.

- تقصد انه لن تقدم لي أية ضمانات.

- لا.

ضحكت ضحكة تعمّدتُ ان تكون خليعة وساخرة، ورغم غضبي الأعمى، واللذة الحارقة بتجريح العجوز، فإني شعرتُ بسعادة من توصل إلى حل بعد صراع طويل وضياع، سأترك هذا المفكر السادي الخرف وسأنجو بنفسي، سأعود إلى ابني، اماً محبة وفقيرة، سيغفر ابني فقري، لكنه لن يغفر إهمالي له.

● ● ●

سلام الهزيمة

اسمعي بما انك أم لا يحق لك أن تنهاري.

اردد هذه العبارة لنفسي مراراً في اليوم، وأنا مستسلمة للفراغ، تتلبسني حالة انتظار دون ان اعرف ماذا انتظر ! ربما انتظرُ النوم، اذ أحس براحة كما لو انني أتحلل من ثقل حين يداعبُ النعاس أجفاني بمعونة المنوّم الذي لم اعد قادرة على الاستغناء عنه.

عدتُ إلى مدينة التحنيط، حالة مثالية من اللا انتماء، احساس مستمر بالحسرة وانتقاص القيمة، لا أعير أي شيء اهتمامي، وليس هناك من يعيرني اهتمامه. أحب تلك الحالة حيث اشعر كأنني غير مرئية، وحده ابني هدفي ومحور حياتي لكن تنتابني الشكوك أتراه يصدّق ضحكاتي، وحديثي المصطنع والمعجون بحيوية زائفة؟

هل يفهم ان أمه امرأة ذوت رغباتها، احياناً اخجل منه حين استعجل ذهابه الى أصدقائه لأنفرد بنفسي، لم اعد املك الهمة على التمثيل، لم يعد يضايقني ابداً مشاركتي والديّ العجوزين العيش، فالخيبات جعلتنا في عمرٍ واحد، انتظرُ ان يشيب شعري، وتتساقط أسناني، لأتقرّب منهما أكثر لأشبههما تماماً، فهما المؤكدان الوحيدان في حياتي، هما مرآة مستقبلي.

مسكينان، ماذا قدّم لهما اولادهما سوى الخيبة ! ابنهما البكر لم يعد سوى صورة على جدار فقد هجّ من البلد وهو في العشرين من عمره بعد ان اعتُقل معظم اصدقائه لانتمائهم الى رابطة العمل الشيوعي، قرر

الفرار لأنه كان واثقاً انه لو بقي سيغيب في السجن كرفاقه، لم نعرف إلى أين هرب، لكن بعد شهرين من اختفائه، ابلغنا عن طريق وسيط انه في السويد.

تتابعت الشهور والسنوات وقد تحول أخي إلى مجرد صوت في أوقات تزداد تباعداً يتصل بأهله : كيف صحتكما، كيف الأحوال. . .لا تقلقا عليّ، انا بخير زوجتي امرأة رائعة تعوضني عن أسرتي، وأولادي رالعون.

يسأله ابي : هل يتكلم أولادك اللغة العربية؟

- يجيبه بسخرية : لا، ما حاجتهم لها.

اخي الأصغر هج بدوره الى مدينة ابها في السعودية، ليعمل مهندساً في شركة ايطالية، وبعد اشهر فاجأنا بزواجه من طبية تزيده بعشر سنوات لكنها نقلته الى فوق فوق كما يقول، كانت بروفسورة في طب الأطفال، انجليزية، وعلى وشك إنهاء عقدها مع مشفى في أبها. . . أظنه تعمّد ان يصطادها، ووقعت في الفخ، سافر معها إلى إنكلترا، أذكر هاتفه يوم زواجه كان صوته مَرِحاً كأنه زقزقة، قال لي : باي باي عروبة. . .

ظلت عبارته تؤلمني لفترة طويلة، أقلّبها من كل جوانبها، هل صارت العروبة كلمة تثير السخرية وتعني القهر والفقر وانعدام الحرية، وانعدام الأمل بالمستقبل. . . وإلا ما معنى عبارته المحمّلة بسخرية وقرف : باي باي عروبة.

خلال خمسة عشرة عاماً زارنا مرتين دون ان يصطحب زوجته وابنته الوحيدة كان يتعلل بأعذار لعدم اصطحابهما معه، لكننا عرفنا ان زوجته تكره العرب ولا تحس بالأمان في بلد عربي، وترفض ان تتعلم ابنتها العربية او تزور وطن والدها لتتعرف الى أسرته.

أظن ان الانتصار الوحيد الذي حققته بعد عودتي وتركي للعجوز

انني استطعتُ ان اضع احزاني جانباً، وماعدتُ أتذكر او أفكر بما جرى معي من صدمات وخيبات ولم اعد أعذ بّ نفسي بتساؤلات لا مجدية مثل : ما محصلة حياتي؟ صرتُ أكثر انسجاماً ورأفة مع ما خفتُ منه طوال حياتي، الفقر، والوحدة.

ياه كم كنتُ اتألم حين لا اجد شخصاً واحداً احدثه، الآن أحس بمتعة ان لا اصدقاء لي.

كنتُ اتأمل ببرود تام ودون ذرة تأثر كيف فسدت حياتي، وأتفرج على موت آمالي، ياه، ما من شيء يخرّب الروح مثل الطموح الجامح... ربما جوهر مشكلتي انني آمنتُ بكل جموح روحي ان من حقي عيش حياة كريمة، وان لي قيمة. ايماني بقيمتي كانت دفعني لأتحايل على راتبي الحقير واتشاطر وانهب أدوات من المشفى... بالغباني، لم افشل في التشاطر فقط، بل صرتُ عبرة، دخلتُ تاريخ المدينة، ووُشمت صورتي في الأذهان الممرضة التي سجنت بتهمة الفساد ونهب المال العام. احياناً أمشي في الشوارع، فأحس كما لو اني احمل يافطة على صدري تحكي قصتي...

اجلس في المقاهي البحرية المتواضعة، أدخن الاركيلة، اشعر ان الأزرق يحتويني، تنسكب فوق روحي المشققة من الأسى زرقة السماء وزرقة البحر... أفكر ان لون الحياة هو الأزرق.

أتذكر العجوز وبيروت، اذ لا يمكنني فصل احدهما عن الآخر، تنشطر مشاعري القرف والاحتقار اللذين يحرضهما فيّ العجوز، والهوى الذي يستيقظ في روحي وأنا استعيد أدق التفاصيل في بيروت، الفنار الحجري الذي يزنّر بحر بيروت كطوق، تعاونية الحمرا، مقهى دبيو، والروضة، شارع بلس، فاريا الساحرة، ضهور الشوير، صور تحرقني شوقاً ولهفة، لا يمكنني تذكر بيروت إلا وحالة من الافتتان تتلبسني

طوال الوقت.

لم احصل على الجنسية الاميركية، لأن العجوز كلف محامٍ أن يطعن بأحقية حصولي على الجنسية، وبأني امرأة لجأت لابتزازه، ولم احصل منه على أي مبلغ. لم اعد املك سوى السخرية، بالحظي العاثر اعتقدتُ ان زواجي من العجوز سيؤمن مستقبلي، ومستقبل ابني، أتساءل هل انا استثناء، كم من الشابات تزوجن كهولاً أغنياء وتمكّن من جمع ثروة ! هل عليّ ان اؤمن بالقدر والحظ لأفسّر ماحدث معي. هل جوهر مشاكلي ان في أعماقي احساساً متمرداً بالكرامة يرفض ان يُهان، وبأنه مهما حاولت تدجينه وسحقه، ينتفض متمرداً من وقت لآخر، ولولاه لاستطعت تحمّل قرف العجوز...

كانت أخبار العجوز تصلني عن طريق الخادمة التي تخدمه، انها الوحيدة التي واظبت على الاتصال بي وأحبتني من كل قلبها، بل كنت اقرأ دهشتها وحزنها عليّ لارتباطي مع عجوز مثله، وحين اتصلت بي ذات صباح ربيعي لتزف لي خبر موته، أحسستُ بنشوة الانتصار، وللحال صار اسمه الميت، وبقيت لأيام مستمتعة بشعور الشماتة والتعالي على الميت، كوني حية، لكن سعادتي لم تدم طويلاً لأني أدركتُ اني أجلاً ام عاجلاً سأموت وسأتساوى به...

لكن صارت تنتابني عادات غريبة لا منطقية، كأن اقرأ برجه كل يوم وأحس بمتعة لذيذة لا افهمها اني اقرأ برج الميت، كما لو اني لا أريد ان افوّت أية فرصة لأشمت به، لأنفث عن أحقادي تجاهه.

عدتُ للانضمام الى حلقة النساء الصابرات، في المستوصف وليس في المشفى، كله مثل بعضه، صرتُ أشاركهن أشغالهن المنزلية حالما يغادر الطبيب مدير المستوصف، وأتأمل أحاديثنا الذابلة المثقلة بالاحباطات والإحساس بانعدام القيمة. هيمنت على عقلي تلك الصفة

التي توحدنا : إحساسنا بانعدام القيمة وانعدام الكرامة.

لم تعد تؤلمني التفاهة، والأحاديث المملة المكررة، التي نجترها كل صباح عن حقارة الراتب وعن احتمال ان يزيد، كنا نوهم أنفسنا بأن الراتب سيزيد حقاً ونتواطأ مع أكاذيبنا بأننا سمعنا من مصادر موثوقة انه سيتضاعف.

كان صديقي يتصل بي من بيروت ويدعوني لزيارته، يسألني عن الهُناك فأضحك وأجيب الجواب ذاته كل مرة، وبالمرارة ذاتها : لا جديد، كل شيء باقٍ كما هو. اسأله عن بيروت واصف له شوقي لها، أقول له إنني اشعر اني منفصلة الى امرأتين، امرأة تعيش هنا، وأخرى تعيش في بيروت، وان عينيّ متخاصمتان عين ترى بؤس الواقع هنا، وعين مفتنة بصور بيروت.

لكني لم اعد املك الهمّة للسفر، حالة من سلام الهزيمة تلبستني، كل مساء أتفرج على أخبار الموت والمطربات العاهرات، ابتلع المنوّم وأتقوقع كجنين، أغطي جسدي كله باللحاف متخيلة اني مت...

عدتُ لمتعة القراءة، لكن استبدلتُ كتب الشعر بكتب علم النفس، تستهويني الكتب التي تحكي عن أمراض النفس، خاصة الاحباطات والاكتئاب، دهشت ان هناك أربع وأربعين نوعاً من الاكتئاب، شخصتُ لنفسي حالة متقدمة من الإحباط التي تعني الاكتئاب، واللامبالاة، والأحاسيس العدوانية الدفينة والعزلة...

المؤلف يقول : ألم الاكتئاب أفظع ألم في العالم، بل هو أصعب من ألم السرطان لكن ثمة طاقة للنجاة، فحين تبتلعني هوة الاكتئاب وتغويني بالانتحار أجد نفسي ملتصقة بابني، استأذنه لأضمّه طويلاً إلى صدري، أغمض عيني وارجوه ان يتحدث بأي شيء، أختزن صوته، وموسيقى كلماته، وأنفاسه، استمد من نقاء روحه دواءً يشفي روحي

المتسممة بالأحقاد والقهر... وحده يجعلني استمر حية وحده أملي.

أتسلى بالأفكار، أمشي منتظرة ان تهبط عليّ الأفكار من سماء ما، من فضاء ما لأن داخلي ما عاد قادراً على ابتكار فكره، فقد فقدتُ الحماسة لكل شيء، ألعب بالكلمات، أعرّف اليأس بأنه فقدان للحماسة، أفكر ان قلقي كان حماسياً، ثم تبلد كل شيء فيّ، حتى حركاتي صارت أبطأ، في الاستسلام الراحة، أشبه براحة الموتى في قبورهم... لكن احياناً تتلبسني حالة من قلق لا يحتمل فأرجو نفسي ان اطلب معونة طبيب نفساني، اذ أخشى ان تكون صحتي النفسية في تدهور كبير وتحتاج لعلاج... لكنني سرعان ما اسخر من نفسي، فانا أشبههم... اشبه شعباً بأكمله... فأي أمان اكبر من ان يشرب الجميع من نهر الجنون.

أتفرج على حياتي كما لو اني خارجها، لا أحس اني في قلب المشهد، بل خارجه دوماً، كل شيء يثير فيّ الحسرة والغرابة، أكوام القمامة في الشوارع الضجيج المدمر للأعصاب، منظر أطفال يحملون حقائبهم الثقيلة ويدخلون من باب مدرسة يحف بمدخلها أكوام القمامة، اعتادوا المشهد وما عادوا يحسون بالأذى... الممرضات الصابرات، المتحلقات حول فطورهن الفقير، يجترن الحديث ذاته متى ستزيد الرواتب، وكيف سيضمنّ مستقبل أولادهن؟!

أفكر بابني، انه يرغب بدراسة الهندسة، أخشى ألا يسمح له مجموعه العام في البكالوريا من دراسة الهندسة، ياه لو نقصه بضعة علامات سيتوجب علي ان ادفع له كل سنة حوالي مئة ألف ليرة ليتمكن من دراسة الهندسة... ابتكروا ما يسمى التعليم الموازي... طيب إذا كان مجموع رواتبي عن سنة لا تساوي مئة ألف، فكيف سأتمكن ان ادفع هذا المبلغ لابني كل سنة؟! كيف يسنّون القوانين ألا يفكرون

بالفقراء، بأصحاب الدخل المحدود... لكني لا املك سوى الأمل بأن ابني سوف يحقق المجموع الذي يخوله دخول كلية الهندسة دون ان اضطر للدفع...

• • •

تشعرني الأغصان المزهرة بصدمة الخلق والإبداع، احسد الطبيعة التي لا تعرف الاكتئاب، كيف تزهر تلك الأغصان اليابسة الجافة، أية طاقة خلاقة تجعلها مثقلة بأزهار ملونة بديعة، من نافذة الميكرو باص أراقب الأشجار واحدها، ابتسم وقد استوقفتني غيرتي من الطبيعة، ليتني خُلقت شجرة... كان عليّ ان انحني بشدة كي أترجّل من الميكروباص، لكني كل مرة انطوي فيها أحس اني انحني تجاه زمن ابن كلب، زمن شوّهني رغماً عني... ما ان اقتربتُ من المستوصف حتى تجمدت لأتفرج على حالة من الهرج والمرج يشارك فيها الجميع حتى المرضى، الآذن يشطف الدرج والعيادات، الممرضات يمسحن زجاج النوافذ، وبعضهن يخفين أشغالهن اليدوية، وأكياس الكوسا والباذنجان وغيرها من الخضار... أسرعت إحداهن لتقدم لي روباً ابيضاً مكوياً، وقالت وهي تلهث : أسرعي، أسرعي البيه فوف يزورنا الوزير...

قلت لها بسخرية : كل هستريا التنظيف هذه بسبب زيارة الوزير.

أجابت بحماسة : طبعاً.

- ولولا زيارته، يظل المستوصف قذراً ومقرفاً...

- هيا أسرعي، فقد قرر زيارة العديد من المراكز الصحية.

حوالي الواحدة ظهراً وبعد ان استنفدنا طاقة الانتظار، سمعنا هدير سيارات موكب الوزير، هب الطبيب مدير المستوصف والأطباء لاستقباله، وقفوا عند المدخل يرسمون الابتسامات البلهاء على

وجوههم،وعيونهم تعكس ولهاً وطاعةً للسيد الوزير. . .

منذ عودتي من بيروت لاحظتُ اني اخلق داخل نفسي احساساً بالانفصال عن الناس وحياتهم، صحيح انني أعيش مثلهم، ويومياتنا متشابهة، لكن لم اعد ابداً اشعر بالانتماء لهم، لذا لم اصب بعدوى الهياج لزيارة الوزير للمستوصف.

فاحت رائحة المنظفات في الجو، وحرصت الممرضات ان يبدين بمظهر لائق أنيق، اخفين الشحاطات العتيقة، ولمعّن أحذيتهن.

كنت أقف عند نافذة الطابق الثاني من المستوصف، أتفرج على مهرجان الاحتفاء بالوزير، وحين فتح الباب الخلفي لسيارة المرسيدس السوداء اللماعة ترجّل الوزير ببطء، ولوهلة اختل توازني، وشعرتُ ان كياني كله في دوامة، ويضطرم بالرفض والاحتقار. . حدقت بعينين مصعوقتين بالوزير. . . هل قاسم هو الوزير ! أيعقل ان يكون قاسم هو الوزير !. . . أم ان هناك تشابهاً كبيراً بينهما. . .

سألت زميلة لي : هل قاسم هو الوزير. . .

- يا للسؤال الغبي، ألم تعرفي انه عُيّن وزيراً للصحة.

- منذ متى ؟

- منذ ثلاثة اشهر.

- لا لم اسمع.

- لأنك شاردة دوماً.

ابتلعتني ظلمة هبطت عليّ كوشاح، اظلم عقلي وقلبي وعيني، ولم اعد أميّز شيئاً حولي، كنتُ أتفرج من خلال ضباب على الجمهرة في الأسفل، مخطوفة الأنفاس، شاعرة بثقل رهيب على قلبي، ثم غامت الرؤية وتدفقت صور قاسم في خيالي، صورته يرمي لي المال بطريقة مُذلة، ملامحه الجامدة وهو يحث العمال للسرعة في استبدال جهاز

التخدير بآخر معّطل... صوره يتفحص الأدوات الجراحية ويلمعّها بقماشة من المخمل...

لكن، كيف يصير هذا النصاب وزيراً، ألم يُحقق معه بتهمة نهب المال العام لأشهر، صحيح انه تمكن من الخروج من الورطة، لكن اسمه تلطخ...

قام الوزير بجولة على عيادات الطابق الأول، واطلع باهتمام على الدفاتر التي تسجل فيها أسماء المرضى وتشخيص أمراضهم والأدوية التي تُعطى لهم، وكان يوصي بضرورة الدقة، ثم صعد إلى الطابق الثاني ليطلع على عيادات الطابق العلوي يرافقه مدير المستوصف الذي غيّر من مشيه وبالغ في الانحناء لسعادة الوزير.

تمنيتُ لو اهرب، لا أتحمّل ان يراني، ان تلتقي عيوننا، لكن عقلي لم ينجح بنجدتي في إيجاد طريقة للهروب، لكن نظره سقط عليّ، ورغم إيهامه في تجاهلي كما لو انه لم يرني، فإن برهة أشبه بومضة أشعرتني بارتباكه ودهشته... عيناي أصرتا ان تقولا له أنت النصاب واللص يا سعادة الوزير.

ثم دعا الجميع إلى الطابق السفلي ليتكلم. غصّت قاعة المرضى بالموظفين، بدوا أشبه بأشباح في لباسهم الأبيض، ابتدأ الوزير كلامه بنحنحة وقال اننا كلنا شركاء في خدمة الوطن، وان العمل المؤسساتي هو عمل جماعي... وبأننا يجب ان نبذل كل ما بوسعنا لخدمة المريض، والاهم ان نبتسم في وجه المريض، المريض المتعب والقلق، وبأن الابتسامة تدخل الطمأنينة إلى قلبه وتشعره بالتعاطف.

تذكرتُ ان أكثر ما كان يدهشني في شخصيته كونه عاجز عن الابتسام، وبعد ان استفاض في وصف أهمية الابتسام في وجه المريض، تنهد وقطب جبينه، وبدا عليه الإرهاق الشديد، وسرح نظره

في البعيد، وقال بلهجة جادة وحازمة : الوطن يمر بظروف صعبة، التحديات أمامنا كثيرة، ولا انتصار فعلي على التحديات سوى العمل الجاد المخلص، بل التفاني في العمل، كلنا شركاء في هذا الوطن، وعلينا ان نعتمد اسلوب الشفافية في عملنا...

لم اعد افهم كلامه، لكن كلمة شفافية كانت تداعب سمعي من آن لآخر... كنت انزلق إلى فلك الزمن، أتمرّغ في وحل الذكريات، وصور قاسم اللص والمرتشي والمنافق تخنقني...

انسحبت بهدوء، كما لو انني أتسلل، ومن الباب الخلفي للمستوصف خرجتُ. كانت شمس الظهيرة حادة وقاسية، والأشجار التي تحف بالطريق مثقلة بالبراعم المتفتحة زهوراً بديعة الألوان، أشجار وردية، وأخرى بيضاء، وأخرى صفراء...

مهرجان الألوان الفاقعة الصارخة بحب الحياة... كنتُ مشوشة لدرجة كبيرة لدرجة ما عدتُ اعرف ماذا اشعر... رغبتُ بالنوم الطويل الطويل، وتذكرت الشابة ذات الخمسة عشرة ربيعاً والتي أحضرتها أمها إلى المستوصف منذ أيام لأنها تظل نائمة... وتبين ان والدها قطع تعليمها وحبسها في البيت بانتظار العريس... فكانت تهرب من واقعها بالنوم... كم أحسستُ بالتعاطف معها، لارحمة حقيقية لنا سوى النوم... هاج شوقي لابني، أين انتَ أضمك طويلاً طويلاً إلى صدري، او اوسد رأسك في حضني، لتشفيني من سموم كلام الوزير...

لم يتأخر الميكروباص، بالغت في الانحناء كالعادة لأتمكن من الصعود، جلستُ مهروسة بين جسدين لامرأتين تعكس عيناهما فراغاً وسأماً... ورغم جعير المذياع الصارخ بأغاني هابطة أمكنني ان أظل مفتتة بالأغصان المثقلة ببراعم الأمل...

وطوال الطريق كانت الأشجار تجهد ان تصوغ حكمتها وتقدمها

لي بحبٍ كبير... الحياة هي ان نستمر في الأمل رغم معرفتنا مدى الخراب حولنا...

حين توقف الميكروباص عند الإشارة الحمراء، مددت يدي وتمكنتُ من اقتطاف زهرة من غصن شجرة.

انتهت

التحويل لصفحات فردية
وتصغير الحجم
وإزالة البقع
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا للأخت العزيزة رياحين
التي قامت بسحب الكتاب

هوى

رواية

هيفاء بيطار

• كاتبة من سورية

كان عليها أن تفك شربكة أعماقها بصبر وحذر كي تعيد ترميم الصورة، كي تخترق تلك المساحة المعتمة بين المراهقة النقية التي كانتها والإنسانة المرتشية التي صارتها.

اكتشفت أن عملية التحول أعقد مما تصورت، فليس شحّ الراتب وإحساسها بالظلم دفعاها لنهب المال العام بل هناك سبب أكثر أهمية وهو حاجتها لتقليص شعورها بالنبذ والتهميش في المجتمع. أحسّت بفرح ورضى حين اكتشفت هذا السبب إنها تلمس الحقيقة الهامة كما لو أنها تكشف جرحاً نازفاً مهملاً تراكم فوقه نسيج ميت وحجبه.

اعترفت لنفسها وبعد جهد كبير لفهم أعماقها أنها حين دشنت مرحلة الرشوة والفساد في حياتها أنها دشنت ولادة إنسانة عملية وذكية وتستحق وسام الانتماء لهذا العصر، أليس الشعار الصريح لتكون إنساناً مرموقاً ويحسب حسابك هو أن تتعلم من أين تؤكل الكتف وأن تنجح في حفر قنوات سرية مع شبكة من الموهوبين بنهب الوطن.

تتذكر تلك السنوات الطويلة الكئيبة حين كانت مجرد متفرجة بعيون خرساء يائسة على هؤلاء الناجحين الذين أثروا خلال سنوات قليلة ثراء فاحشاً بلا حياء يتباهون به أمام الجميع هازئين من العيون الصامتة الخائفة تسأل من أين لك هذا؟

صدر أيضاً للروائية هيفاء بيطار

ISBN 978-9953-87-119-6

منشورات الاختلاف
revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^